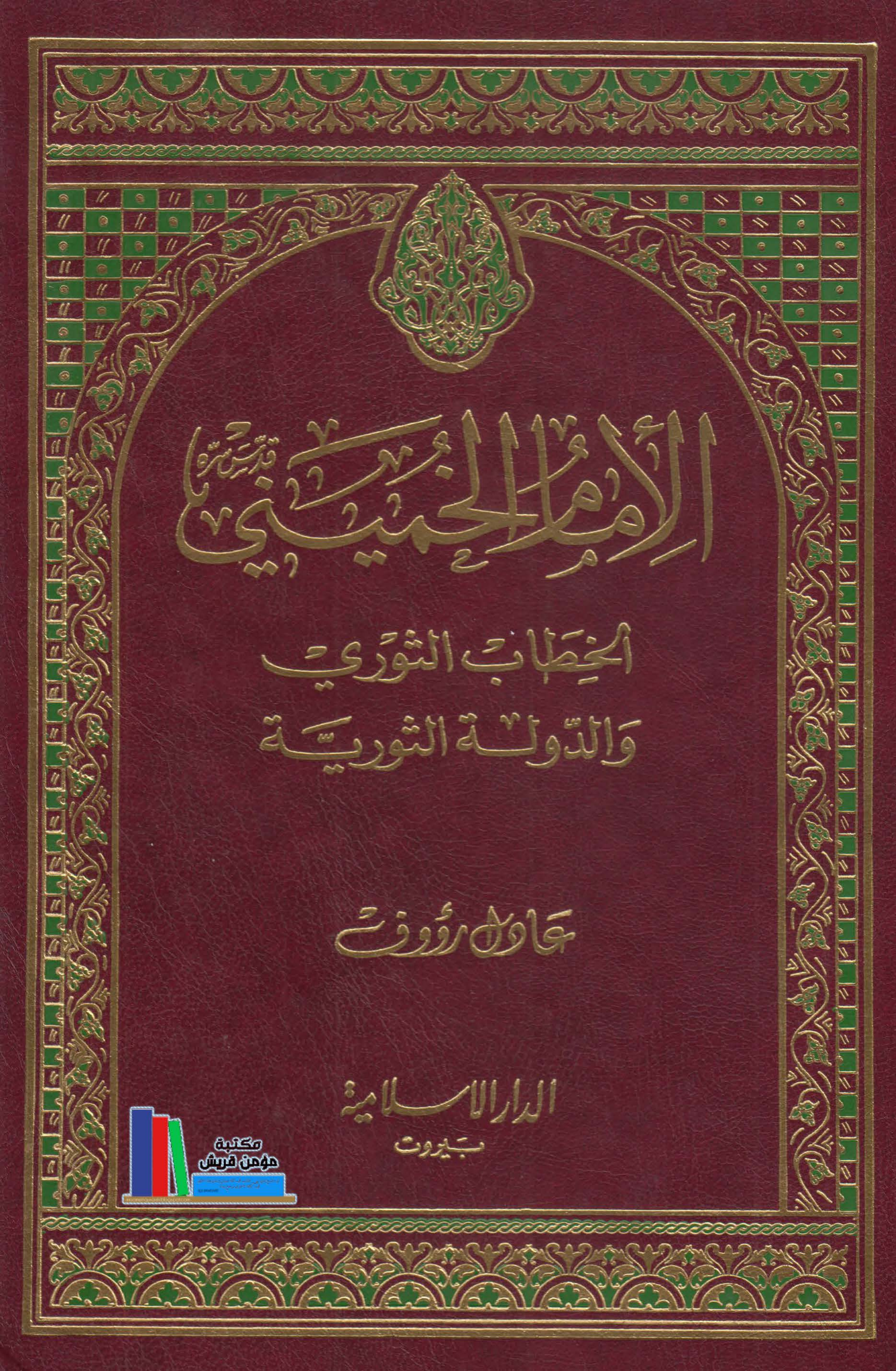
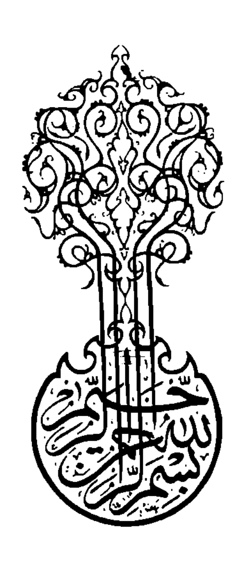


الإمام الخميني قدس سره
الخطاب الثوري
والدولة الثورية
عادل رؤوف
الدار الإسلامية
بيروت



الخطاب الثوري
والدولة الثورية

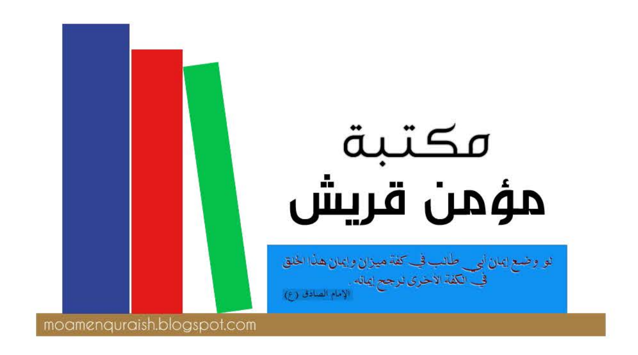


الإمام الخميني قدس سره

الخطاب الثوري والدولة الثورية

الأستاذ
عادل رؤوف

الدار الإسلامية
بيروت . لبنان



الطبعة الأولى

١٩٩٥م - ١٤١٦هـ



كورنيش المزرعة- بناية الحسن سنتر الطابق الثاني

هاتف: 816627. ص ب: 14/5680

المكاتب والمستودعات -حارة حريك شارع دكاش

هاتف: 820031- 835670. ص ب: 25/209

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد تبلورت فكرة هذه الدراسة في ذهني عندما أردت أن أدرس وصية الامام الخميني «رض» دراسة مستفيضة فوجدت أن وصية الإمام «رض» هي مجموعة كبيرة من العناوين والمفردات والتعبيرات الثقافية والعسكرية والإقتصادية والسياسية والأخلاقية، أو انها مختصر لعمل موسوعي ضخم لو أراد المرء تغطيتها، وتغطية كل ما حظي بخصوصية، لاحتاج إلى تركيز إستثنائي في سياق هذه الوصية، ولذا فإنني عندما أردت أن اتناول الوصية بالدراسة وقعت في اشكال منهجي لأنني لم أنوِ أساسا، ولا أدعي لنفسي القدرة على تغطية الوصية في أبعادها الموسوعية وفي محتواها الشمولي والتفصيلي.. وعندما حاولت أن أرجع الوصية الى إنتمائها الخطابي كمحاولة للتسهيل.. وجدت إن الخطاب الثوري لدى الإمام «رض» هو الآخر يحتاج الى جهود تحليلية كبرى، لا أدعي أيضاً أنني قادر لوحدي على القيام بها... ولكن وايمانا مني بأهمية الوصية كمحور وأهمية الخطاب الثوري كمكون من مكونات المشروع الإسلامي الكبير الذي نظر له الإمام «رض» فكرياً وثورياً واقترن اسمه به.. حاولت أن أقف في هذه الدراسة على «بعض» ثوابت خطاب الإمام الثوري وكان ذلك من خلال مجموعة من المقالات التي كتبتها ونشرتها الصحف، مع إجراء بعض الإضافات عليها.. وأكرر هنا كلمة «بعض» وأؤكد عليها لأن هذا الخطاب الثوري يبقى أعقد وأشمل من محاولتي الأولية هذه.. لتحليل بعض صفاته ورصد بعض ثوابته.. هذه الثوابت التي اختزنتها الوصية كعينة شاملة ـ جامعة لهذا الخطاب الثوري، أو المقالة الثورية، ولذا فإن الذي فعلناه هنا هو أننا وقفنا على ثوابت الخطاب الثوري لدى الإمام «رض» بناء على نصوص الوصية المباركة، وبناء على النصوص العامة المأخوذة من أحاديث وتصريحات الإمام «رض» التي قالها في حياته، لكي نشكل بذلك الملامح والسمات والمكونات الخطابية من جهة، وتتضح الصورة المفرزة التي تشكلها الوصية لهذه

السمات والمكونات من جهة أخرى. . . وبمعنى آخر، لتشكل «الجسم» الخطابي الثوري لدى الإمام «رض» إذا صح التعبير، ولنرى كيف تجسد هذا «الجسم» الخطابي مرة أخرى من خلال الوصية، أو كيف تحولت هذه الوصية إلى عينة من عينات الخطاب الثوري. . . هي الأشمل والأثرى من غيرها، والأصلح لأي مشروع عمل يهدف إلى دراسة الخطاب الثوري لدى الإمام «رض» ومن ثم مكونات المشروع الثوري أو النهضوي.

أما فيما يخص الفضاء الذي يتحرك فيه أو يتعاطاه الخطاب كنموذج متجسداً بالوصية، وهو ما سميناه بالفضاء الموسوعي بكل مجالاته الثقافية والسياسية والتربوية، فإننا تحركنا في داخله حركة تحددها الإثارة المهمة في ثنايا الوصية تارة ويحددها الثقل التكراري لأي مفهوم ثقافي أو سياسي أو فكري تارة ثانية، وتحددها القوة التحليلية التي يجسدها النص الخطابي ـ نص الوصية ـ تارة ثالثة، وتحددها ضرورة تكامل المفاهيم المثارة بما تمثله ثوابتها الخطابية من ثقل أصلي في الشكل الخطابي العام تارة رابعة. فما يجب أن يقال هنا هو أن ثوابت الخطاب الثوري تبقى أيضا متفاوتة الأهمية والثقل والمساهمة في تركيب أو رسم الشكل النهائي لهذا الخطاب.

على أيةِ حال: ـ هذه الحالات الأربعة وحالات التعاطي الأخرى كانت تتجاوز في أكثر الأحيان نص الوصية لتشرحه بنصوص أخرى سابقة للإمام «رض». كما أنها كانت تشكل في موضوعاتها الثقافية وغير الثقافية نوعاً من الجدلية والتواصل والإرتباط التبادلي لتضفي على الخطاب لوناً من ألوان المرونة في إدراك أهدافه النهائية وتجعله ينفرد بمثل هذه الجدلية وما تؤديه من دور إيضاحي لتركيب النص الخطابي الثوري.

إنها محاولة إذاً لإثبات «لاعفوية» الخطاب الثوري لدى الإمام. . ومحاولة لتسليط الضوء على جوانب المنهجية والتخطيط والاتساق والإنتظام التي تحقق الأهداف الفكرية، أو لتترجم المدرسة الفكرية التي يمثلها الإمام ويروج لها من خلال خطابه هذا، ومحاولة لتحليل عناصر ومكونات الخطاب ودوره في تجسيد الفكرة أو المبدأ الإسلامي.

إن الخطاب الثوري لدى الإمام الخميني «رض» لم يسقط في قطعية زمنية مع نفسه ولم يقع في مطبات الصعود أو الهبوط أو الإهتزاز أو التناقض، وعبّر عن نفسه بشكل تتطابق فيه البدايات «مراحل العمل الثوري الأولى» والنهايات «الوصية». . . وإذا

كان لهذا الثبات من معنى فمعناه يرتبط بسعي الإمام إلى تأسيس دولة ثورية تصبح مصداقا للخطاب وضمانة لتواصله. كما إنها تتحول إلى جنب الخطاب الثوري إلى أداة من أدوات المشروع الإسلامي الثوري الذي قاده الإمام.. وربما أن هذه العلاقة هي التي تقود الباحث إلى الوقوف على جهود الإمام «رض» لتأسيس الدولة الثورية فيما هو يسعى إلى دراسة مكونات وثوابت الخطاب الثوري لدى الإمام.. لأن قسماً كبيراً من هذه الثوابت ترتبط بتأسيس الدولة الثورية وما انطوت عليه من نظريات أو خطوط نظريات تحولت إلى ممارسة في مجالات الدفاع والثقافة والقيادة والنقد والإعلام وغيرها، لاسيما في نصوص هذا الخطاب التي جاءت في أحاديث الإمام «رض» بعد إنتصار الثورة الإسلامية.

باختصار أراد الإمام «رض» أن يجعل من الخطاب الثوري عاملاً في بناء الدولة الثورية، وأراد أن يجعل من الدولة الثورية ضمانة لتواصلية هذا الخطاب، وأن يتحول الخطاب والدولة إلى أدوات ذات علاقة جدلية في المشروع الإسلامي الثوري.

وهل تؤخذ ملامح ونظريات وخطوط هذا المشروع الإسلامي السياسي من غير الإمام (رض)؟ فالإمام بحكم قدراته الفقهية والعلمية.. وبحكم قدراته الحركية السياسية تحوّل إلى مرجع لاستلهام الإسلام السياسي الذي تعرض إلى مؤمرات دولية كبرى سعت إلى إبعاده عن مسرح السياسة العالمية وبالإضافة إلى هذا.. فإنّ حياة الإمام السياسية قاربت السبعة أو ثمانية عقود زمنية..؟ ليست كسواها من حيث التحولات الفكرية والسياسية والانهيارات والنهضات التي شهدتها الإنسانية.

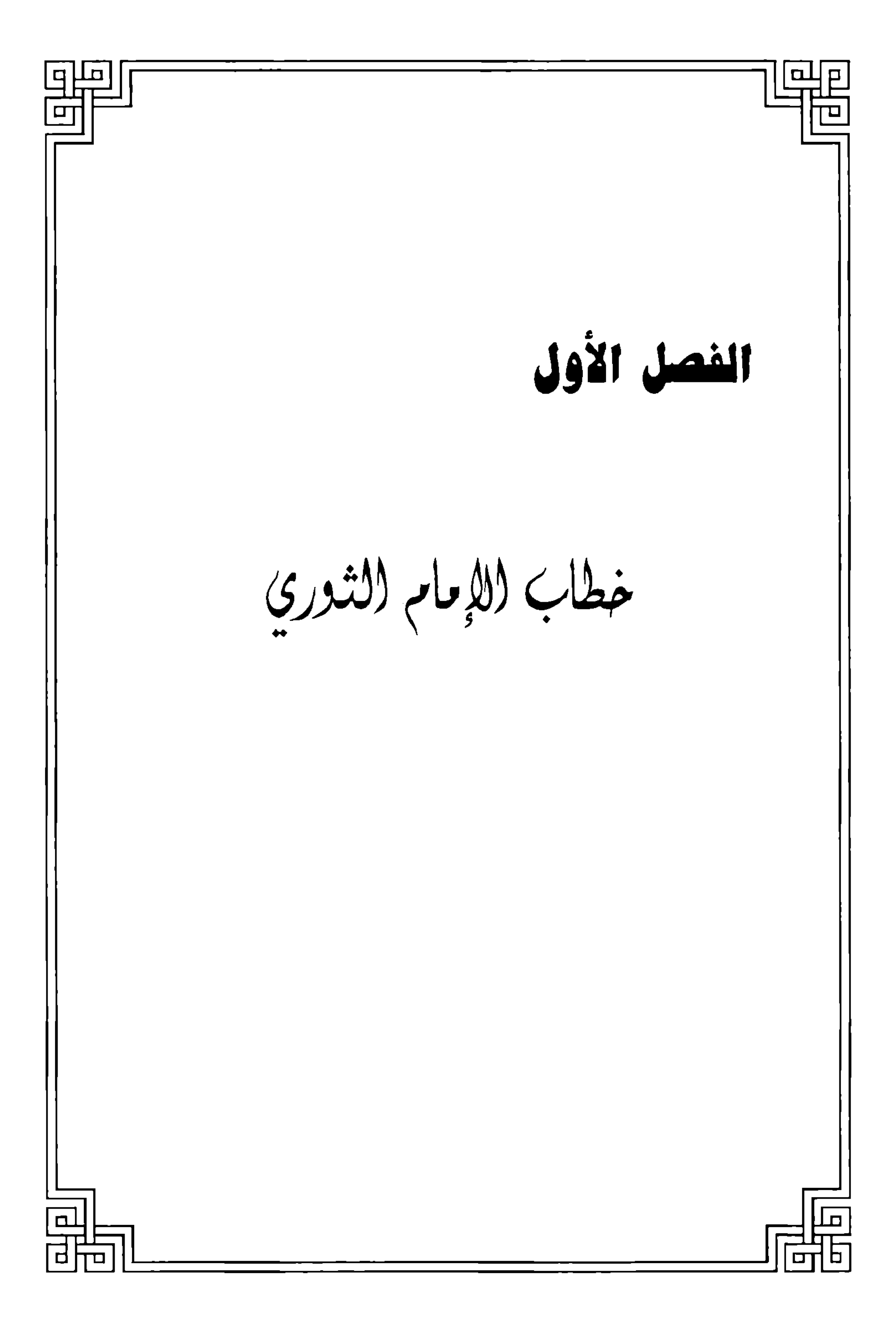
لقد واكب الإمام الخميني (رض) هذه التحولات بدرجة كبيرة من درجات التماس والتفاعل وعايش انهيار الكيان الإسلامي ـ المتمثل بالدولة العثمانية ـ والحروب العالمية التي شهدها القرن الحالي، وانبعاث ا الكثير من الرموز والحركات النهضوية، كما أنه رصد «البدائل» الدولية للإسلام المنهار وعدد كبير من الطروحات القومية واليسارية، ومارس وسط هذه المعايشة والمراقبة دوره السياسي الإسلامي.. وبالتالي فإن وعيه السياسي اختصر زمن تلك التحولات، وأن فكره السياسي هضم كمّ كبير من التجارب الحركية والسياسية.. وانطلاقاً من هذه الثروة المعرفية والمواكبة استطاع الإمام (رض) أن يشخّص تحديات المواجهة الإسلامية ـ الدولية واستطاع أن يؤسس للمشروع الإسلامي كخطاب نظري أولاً، وكدولة ثورية في جزء من العالم الإسلامي

ـ إيران ـ ثانياً، وكوعي ثوري طامح لأن يُنجز مفردات المشروع الإسلامي الإسلامي الكبير ثالثاً . فهذا الوعي الذي تفجّر في الشارع الإسلامي مع انفجار الثورة الإسلامية في إيران، تحوَّل بحدّ ذاته إلى مصدر جدلي لحركة الوعي السياسي الإسلامي إلى جانب الدولة الإسلامية الثورية كممارسة وخطاب سياسي يشكل امتداداً لخطاب الإمام الخميني (رض) في ثوابته وقيمه ومفاهيمه الثورية .

الإمام الخميني إذاً هو رجل القرن الحالي ـ بما استوعبه وعايشه من أحداث هذا القرن ـ ورجل القرن القادم ـ على أكثر الاحتمالات ـ لمَّا خلفه من تراث سياسي ومن تأسيس محكم لمجمل أدوات المشروع النهضوي الإسلامي .وربما ان الإمام (رض) نفسه، كان يقرأ أفق حركة المشروع الإسلامي عبر مجموعة استشرافات ورؤى استباقية قائمة على قدرة هائلة في التحليل السياسي، وقائمة على تراكم الخبرة السياسية الكبير الذي أشرنا له . . . وهذا الاستباق والاستشراف على أكثر من محور سياسي الذي تحوَّل إلى مصاديق أو حقائق على الخريطة السياسية العالمية، يكرس من ناحية أخرى أهمية قراءة حركة المشروع الإسلامي وموقعه المستقبلي العالمي على ضوء تجربة الإمام (رض)، وقيمه السياسية ونظرياته الثورية التي أسسها .

وعلى الرغم من أن القرن الحالي شهد انبعاث أحزاب وحركات ورموز إسلامية مهمة بقيت تمارس العمل السياسي الإسلامي، بشكل علني تارةً، وسري تارةً أخرىٰ. قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران إلا أن هذه الحركات والأحزاب والرموز ما استطاعت بالتأكيد أن تؤسس للإسلام بصفته السياسية العالمية، والإمام الخميني (رض) فقط هو الذي استطاع أن يؤسس المشروع الإسلامي العالمي. . وأغلب الظن أن فكر الإمام (رض) السياسي الذي نحاول أن نسلّط الأضواء هنا على بعض جوانبه وملامحه قد فتح أبواب المواجهة بشكلٍ لم يستطع أحد إغلاقها وأن حلبة الصراع المفتوح ستشهد اشكالاً وفصولاً قادمة معنونة بإسم الإمام الراحل كرمز غائب . . حاضر .

عادل رؤوف



الفصل الأول

خطاب الإمام الثوري

الثبات

بعد ثلاث أو أربع سنوات من عمر الثورة الإسلامية في إيران وجد العالم نفسه أمام لون من ألوان الخطاب الثوري الجديد. . . لون لم يكن سائداً من قبل من حيث عنصر الثبات فيه، ومن حيث مقومات وعناصر تعاطيه مع الأحداث العالمية ورموزها والجهات المعنية بها. . لون يسير على وتيرة واحدة ولا يقع في أية فجوة بين الإدعاء الثوري والممارسة الميدانية الثورية، كما لا يعرض نفسه بأي شكل من أشكال الخلل التناقضي الذي يؤدي في نهاية المطاف إلى غياب مصداقية الثورة، فالخطاب العلماني أو الخطاب القومي والوطني أو الخطاب (الإسلامي ـ القومي) لم تسلم من خلال التجارب الرافعة للشعار الثوري في الوقوع في تلك الفجوة أو ذلك الخلل التناقضي، وعالم اليوم عالم معقد، ولعل أحد أساليب التعقيد فيه بالنسبة لأي خطاب ثوري هو أن يجمع هذا الخطاب في تعاطيه مع الشعوب ومع الأنظمة الرسمية محاور مفهومية واحدة لا تفقد المعنى الثوري، ولا يجامل على حساب هذا المعنى من خلال المجال الدبلوماسي وما يمليه من مفردات مجاملة بين الدول، أو ما يمليه من غض النظر عن أشكال الظلم التي يمارسها الطرف الدولي الآخر. . .

لقد كان الإمام الخميني ـ رضوان الله عليه ـ باعتباره يُمثل خطاب الثورة يرفض أي ازدواجية في عرض الأهداف الثورية في صور الخطاب المتعددة لديه، فهو لم يتراجع عن عرض هذه الأهداف لمجرد الضرورة الدبلوماسية التي تتحول لدى الآخرين إلى سبب كافٍ من أسباب تحول طرف دولي إلى صديق. . . إن الإمام (رض) كان لا يتعاطى هذهِ اللغة ولا يبررها بأصول الضيافة الدولية، أو ضوابط عُرف المخاطبة الدولي، أو أي شكل من أشكال

التبرير الأخرى، فبإمكان من يتابع ويقرأ ويحلل صور خطاب الإمام (رض) الثوري أن يضع يده على التعددية الإيجابية التي تضم في طياتها دهاءً «مشروعاً». . والتعددية التي تطرح المبدأ الإسلامي الواحد بأساليب وصيغ خطابية مختلفة. . والتعددية التي تبدو ثابتة عند هذا المبدأ أمام أشكال متغيرة من الخطاب السياسي الدولي والأقليمي الذي يتبادل معها الحديث في المناسبات الرسمية وغير الرسمية.

ومن خلال مجموعة نصوص متقابلة من حيث الجهات المخاطبة يمكن أن نقرأ بسهولة صفة الثبات المذكورة في خطاب الثورة منذ (بهمن) الأول لها وحتى الآن، وقبل أن ندخل في هذه النصوص لا بد أن نقول هنا بأن المجال الذي بإمكانه أن يبلور صفة الثبات بصورة واضحة هو مجال التعاطي بالحديث مع الشعوب وحركات التحرر من جهة، والحكومات والأنظمة السياسية من جهةٍ أخرى، أو ما يقال عنه لغة الثورة التي تخاطب الشعوب وتحثها للتمرد على الواقع المأساوي الذي يلفها، ولغة الدولة التي تسعى إلى علاقات سياسية ودبلوماسية مستقرة. . .

إننا نعنى بصفة الثبات في خطاب الثورة ما يتحرك عليه هذا الخطاب من محاور تعاطي مبدئية وإسلامية واحدة في كلتا الحالتين، أي سواء كان موجها إلى الشعوب وحركات التحرر العالمية، أو موجها إلى الأنظمة السياسية ورموزها، ولنقرأ الآن نماذج من خطاب الثورة على لسان قائدها الراحل موجهاً إلى الشعوب، يقول الإمام (رض) في حديث له بمناسبة الذكرى الأولى لإنتصار الثورة الإسلامية ـ ١١ شباط ـ ١٩٨٠ م يقول:

«ها اني من المستشفى الذي أعالج فيه، أوجه تحذيري إلى جميع الشعوب المضطهدة، وأدعوها إلى الوحدة لتحرير أوطانها من سطوة الظل الأميركي وسائر القوى المتجبرة التي غمست يدها حتى المرفقين بدماء جميع المظلومين المكافحين في العالم».

ويقول «رض» في نداء له بمناسبة بدء اسبوع التعبئة الجماهيرية في ٣ ربيع الثاني ١٤٠٠ هـ :

«يامستضعفي العالم إنهضوا وانقذوا أنفسكم من مخالب الظالمين، المجرمين، ويا مسلمي العالم الغيارى إستيقظوا من سبات الغفلة، وحرروا الإسلام والبلدان الإسلامية من مخالب المستعمرين وعملائهم».

وفي ندائه لحجاج بيت الله الحرام، ١٣٩٩ هـ، يقول الإمام (رض).

«دافعوا حيثما كنتم عن إسلامكم ووطنكم وقاوموا عدوكم المتمثل في اميركا والصهيونية العالمية والقوى الكبرى الشرقية والغربية، ولا تأخذكم في ذلك لومة لائم».

وفي مكان آخر، وفي ندائهِ لحجاج بيت الله الحرام، ولكن في عام ١٤٠٠ هـ جاء ما يلي:

«أيها المسلمون المؤمنون بحقيقة الإسلام، إنهضوا، ووحدوا، صفوفكم تحت راية التوحيد، وفي ظل تعاليم الإسلام، واقطعوا أيدي القوى الكبرى الخائنة عن بلدانكم وثرواتكم الوفيرة، وأعيدوا مجد الإسلام، وتجنبوا الاختلافات والأهواء النفسية فإنكم تملكون كل شيء... اعتمدوا على الفكر الإسلامي، وحاربوا الغرب والتغرب، وقفوا على أقدامكم، واحملوا على المثقفين الموالين للغرب والشرق، وجددوا هويتكم».

إن المحاور التي تحركت عليها صور خطاب الإمام الثوري (رض) هذه هي:

١ ـ الدعوة إلى المبادرة الثورية.

٢ ـ الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ونبذ الإختلافات.

٣ ـ محور مقاومة الصهيونية. أو محور فلسطين.

٤ ـ محور مقاومة التغريب والقوى الغربية والشرقية.

٥ ـ محور العودة إلى الذات الفكرية الإسلامية الأصيلة.

وواضح ان هذه المحاور هي جزء من مجموعة المحاور التي تتحرك على

أساسها مبادىء ومفاهيم الثورة الإسلامية في إيران. . ولكن هل أن الخطاب الثوري الذي جسد هذه المحاور من خلال تعاطيه مع الشعوب، جسدها بنفس القوة عندما تعاطى مع الأنظمة السياسية أو من يمثلها. . أم أنها إندثرت تحت ضرورات المجاملة الدبلوماسية التي يفرضها التعاطي مع «الدولة».

وللإجابة، لا بد أن نعود ثانية لخطاب الإمام (رض)، الذي يمثل خطاب الثورة أو مقياسها الأعلى، ولنقف على بعض نصوصه الموجهة إلى تلك الأنظمة، أو إلى بعض رموزها السياسية، يقول الإمام (رض) في حديث له أمام وزير خارجية تركيا، بتاريخ ١٠ حزيران ١٩٧٩ م ما يلي:

«إن الأجواء المفتعلة في بلدان الشرق أدت إلى ان تكون المظاهر الغربية هدفاً ينشده شباب الشرق حتى أن بعض هؤلاء الشباب ضحوا بكل كيان أمتهم من أجل الغرب وهذه الهزيمة الروحية أفظع من كل هزائمنا».

وفي حديث للإمام أمام سفراء البلدان الإسلامية في عيد الفطر المبارك ١٤٠٠ هـ جاء ما يلي:

«إننا عندما نقول بأننا نريد أن نصدر ثورتنا إلى جميع البلدان الإسلامية. . بل إلى كافة البلدان التي يسيطر فيها المستكبرون على المستضعفين، فإننا نريد إيجاد وضع كهذا. . أي وضع تنتفي فيه الحكومات الظالمة المجرمة ويزول فيه العداء بين الشعب والحكومة».

وفي نص ثالث للإمام (رض) أمام سفير سوريا في طهران في ٢٣/ رمضان/ ١٣٩٩ هـ جاء ما يلي:

«كل ضعف في المسلمين، وكل فساد في الدول الإسلامية، نابع من الحكومات. إن الحكومات ـ بسبب أنانيتها ـ تقف أمام الأجانب كالعبيد، وأمام شعوبها، كالمتسلط، وروح العبودية هذه وروح التسلط، خلقتا كل المفاسد في الدول الإسلامية. . . والحل هو بيد الشعوب، وعلى الشعوب أن تعامل الحكومات التي تعمل ضد مصالح الإسلام والمسلمين نفس المعاملة التي عامل بها، الشعب الإيراني الشاه المخلوع».

وفي نص رابع يقول الإمام (رض) مخاطباً وزير الخارجية السوري في ١٦/٨/١٩٧٩ م.

«لو إجتمع المسلمون وادلى كل واحد منهم بدلو من الماء لتشكل سيلٌ أزال اسرائيل، ومع ذلك فهم ضعفاء في مقابلها، ان في ذلك لَلُغْزاً وهو علمهم بأن مصلحتهم في إتفاقهم ووحدتهم، فلماذا لا يتحركون لذلك؟ ولماذا لا يعملون على إفشال مخططات الإستعمار الرامية إلى إضعافهم؟ فمتى يحل هذا اللغز؟ وعند من؟ ومن الذي سيحله غير دول الإسلام والمسلمين؟».

أربعة نماذج من أحاديث الإمام (رض) مع رموز للأنظمة السياسية القائمة تكرر نفس المفاهيم الثورية والمبادىء التي عكستها النصوص الأولى التي كان الإمام (رض) يخاطب الشعوب فيها.. والخطاب في كلا الحالتين يتطابق أولاً في قوة الدعوة إلى المبدأ الثوري الذي يدعو إليه الإمام (رض) ويمارس هذه الدعوة بنفس الوضوح، ويتحرك على نفس المحاور التي هي في حديثنا هذا: التغريب، الوحدة الإسلامية، الفكر الإسلامي، فلسطين.. ولا يوجد فاصل سلبي أو فجوة بين الحالتين في قوة طرح المفهوم والمبدأ الإسلامي.. إنها إذاً صفة الثبات التي ينفرد بها خطاب الثورة.. حيث يعبر هذا الخطاب عن نفسه بنفس القوة حينما يوجه إلى الشعوب أو إلى الحكومات.

لقد كان الإمام (رض) حريصاً على أن يرسي الأسس المتينة لقوة الخطاب الثوري حتى بعد رحيله.. أي الخطاب ممثلاً بما يقوله المسؤولون الآخرون... وذلك من خلال العمل المؤسساتي الذي مارسه الإمام (رض)، والذي وضع أسساً لدولة ثورية لا يمكن أن تفرز، إلاّ خطاباً ثورياً، فحتى الآن لم تشهد المنطقة ثورة أرست أسس مؤسساتها التشريعية والقيادية والسياسية والثقافية والتعبوية كما فعل الإمام (رض).

فطبيعة هذه المؤسسات كانت تشكل نمطاً خاصاً في عراقة تمثيلها لقيم الثورة وقيم الشعب الذي فجرها.. ولذا فلقد تحولت هذه المؤسسات إلى ضمانة لهذه القيم، في نفس الوقت الذي حققت فيه غرض الدولة بأحسن ما

يكون هذا التحقيق، فإذا كانت مفردة الدولة تتحقق من خلال ثقل المؤسسة التي تقوم عليها في كافة المجالات، فإن الثورة الإسلامية كانت السبّاقة لترجمة هذا المعنى ومقاومة كل ما تعرضت له من خطط من خلاله، وإذا كانت مفردة الدولة تتحقق من خلال قوة الموقف في العلاقات خارجياً فالعزلة السياسية أو الدبلوماسية التي تفرضها مجموعة دول كبرى عدوة ليست مؤشراً على غياب صفة «الدولة» إنما هو يكرسها تماماً ويعطيها نمطاً خاصاً ويعبر عن جوانب القوة فيها، فإيران مثلاً بإمكانها أن ترتبط بعلاقات سياسية ودبلوماسية جيدة مع الدول الكبرى، أو يمكن القول أن هذا الخيار هو بيدها، وما دام الأمر كذلك فإن عدم الإقدام على ممارسته هو تعبير من تعابير قوة الموقف «الدولي» الإسلامي الذي يطمح أن يغير الأجواء التي تحيط به إلى ما ينسجم مع أهدافه الثورية.. لا أن يقع هو ضحية لتأثيرات هذه الأجواء الخارجية..

إن الإمام (رض) كان رجل دولة ايضاً.. لكن أية دولة؟ أنها الدولة الثورية التي تقوم على بناء مؤسساتي «ثوري» ولا تفرز إلاّ خطاباً ثورياً، يتصف بالثبات وسط عالم متقلب.

على أية حال، لقد كانت الوصية نموذجاً للخطاب الثوري... وفي إطار «الثبات» جاء فيها:

«وأما وصيتي للشعوب الإسلامية فهي: أن إتخذوا حكم الجمهورية الإسلامية والشعب الإيراني المجاهد نموذجاً وقدوة لكم، وضعوا حداً بكل قوة لممارسات حكوماتكم الجائرة إن هي رفضت الإنصياع لمطالب الشعوب، وهي كمطالب شعب إيران، فالحكومات التابعة للشرق والغرب هي علة مسكنة المسلمين».

إن هذا النص يكرر الدعوة إلى الثورة، ولأن الوصية خارجة عن صور المخاطبة التقليدية ينعدم فيها عنصر المقارنة الذي اعتمدناه لبلورة ثابتة «الثبات» المتقدمة في «جسم» الخطاب الثوري العام لدى الإمام (رض) ـ، ويتبلور هذا الثبات من خلال مقارنة «الوصية» ذاتها وهي تدعو إلى المبادرة الثورية مع الخطاب الثوري ممثلاً بتصريحات ونصوص الإمام أيام حياته، وهي

تدعو الشعوب كذلك إلى ذات المبادرة الثورية. فحتى عندما يرحل الإمام (رض) عن الحياة لا تهتز اللغة الثورية التي يتحدث بها، . . . لا بل إنها تتعمّق أكثر، كما توضح ذلك قراءة الوصية المباركة بكاملها.

مقاومة التخويف:

لقد كانت ثابتة من ثوابت الخطاب الثوري لدى الإمام (رض) تتمثل في تحطيم حاجز الخوف من الدول الكبرى لدى شعوب المنطقة أو تحطيم مكانة وهالة هذه الدول في العقل الإسلامي. . . فواضح ان رموز النظام السياسي العالمي ومنذ أن تمكنوا من القضاء على الكيان الإسلامي كان خطابهم السياسي والإعلامي يقوم على عناصر تخويف واضحة للشعوب وعناصر تحسيس لها بحالة من حالات العجز أمام واقع الإمكانات المادية والعسكرية الهائلة التي تمتلكها هذه الدول، وبعبارة أخرى فإن خطاب تلك الدول كان يهدف إلى إخضاع الشعوب من خلال جو إحساسي بفوقية هذه الدول، وبإستحالة نجاح أي حركة تحررية أو معارضة لنظامها السياسي العالمي. ولا شك أن أساليب التخويف هذه نجحت إلى حد كبير في تعطيل الطاقات الثورية وتعطيل قدرة بعض التيارات السياسية التي وقعت ضحية لهذه الأساليب وراحت تنخرط في جهود ترويجها الدعائية لمضاعفة تخويف الشعوب العربية والإسلامية. . .

وحتى إلى ما قبل الثورة الإسلامية في إيران، ما كان في الساحة من مصاديق لأي رأي يخالف أو يعارض أو يقاوم أساليب التخويف الدولية أو يسلط الضوء عليها بما فيه الكفاية، ويمكن القول إن أحداً لم يقاوم هذه الأساليب مثلما قاومها الإمام الخميني (رض)، فلقد دفعت صخامة الجهود الدعائية العالمية في إطار ترويج التخويف وتحويله إلى ثابتة من ثوابت الخطاب الأعلامي للدول الكبرى. . دفعت الإمام (رض) إلى أن يعطيها أهمية خاصة ويدرجها كتابته من ثوابت خطابه الثوري. عندما ينظر إلى هذا الخطاب في اللحاظ الشمولي العام.

فأي قراءة لهذا الخطاب تقوم على رصد صفاته أو مكوناته الثورية، أو على أساس جرد لثوابته التي يخرج التعاطي بها عن إطار العفوية، ويدخل في سياق تركيزي خاص من قبل الإمام (رض)، لابد أن تفرز «ثابتة مقاومة التخويف» كواحدة من الثوابت الأساسية في الخطاب المذكور.. ثابتة تواجه الدعاية الدولية العدوة للإسلام، وتعالج آثار السياسة التخويفية الممارسة ضد العالم الإسلامي من قبل الدول الكبرى.

وعندما وصلت الثورة الإسلامية إلى نقطة الإنتصار، راح الإمام يبلور من خلال خطابه الثوري درساً مهماً من دروس المواجهة.. كما أنه راح يوظف مصداق إنتصار الثورة في دائرة ثابتة مقاومة الدعاية التخويفية للدول الكبرى، فالحركة الثورية للشارع الإيراني على رغم المواجهات الدولية التي جوبهت بها، والممارسات الإرهابية التي لجأ إليها الشاه في سبيل كبحها، أثبتت في نهاية المطاف قدرتها على الوصول إلى نقطة الإنتصار، وصمودها أمام كل ما مورس ازاءها من مؤامرات.. كما إنها أثبتت إمكانية الخروج الشعبي على إرادة الدول الكبرى وعلى نظامها السياسي الصارم... فهذه القوة لا تملك شيئاً أمام أي شعب تتبلور لديه رؤية التمرد، ويحول هذه الرؤية إلى فعل ثوري، وينضوي تحت لواء قيادة واعية كقيادة الإمام (رض)... لا تملك الدول الكبرى أمام القرار الثوري والتمردي لهذا الشعب شيئاً.. ولا بد لهذا الشعب أن يصل إلى الانتصار. لقد أفرزت لحظة إنتصار الثورة الإسلامية في إيران هذا المعنى... والإمام (رض) كان يرى بأن هذا الإفراز بحاجة إلى تركيز أو بلورة نظرية، فهو كان يقول في حديث له أمام المشاركين في مؤتمر القدس بطهران في ٢٧ رمضان ١٤٠٠ هـ. يقول:

«من الخطط التي مارستها الدول الكبرى وتابعتها الدول الصغيرة في ذلك هي إخافة الشعوب للوصول إلى مآربها.. فلقد شهدتم شائعات السافاك في عهد غصب السلطة من قبل «محمد رضا» المخلوع، حتى كانت كل عائلة تظن بأنها اذا تفوهت بكلمة واحدة عن الشاه تعاقب على ذلك، واشاعوا بأن السافاك متواجد في كل مكان، وإنَّ الشعوب إذا أرادت التصدي لحكومة ظالمة أو قوى

كبرى، فيجب أن تحطم الأوثان، تحطم أولئك (الظلاّم) الذين تصدروا الزعامة وذلك بالحديث وتوعية الآخرين وإزالة الفكرة التي تقول: لو تكلم أحد ضد الحكام لأنقلبت الدنيا، ولهذا شاهدتم عندما انطلقت الشعارات ضد الشاه المقبور لم يحدث شيء، وقد رأيتم كيف خرج الشعب إلى الشوارع عندما أعلنت الاحكام العرفية ولم يحدث شيء... إذ أن اهم مسألة هي إزالة الخوف من قلوب الشعوب.

هذا النص هو نموذج لما ميز خطاب الإمام الثوري (رض) من تركيز على تحطيم الهالة النفسية في أوساط الأمة للدول الكبرى، وتوظيف حدث إنتصار الثورة الإسلامية في إيران لبلورة وتوضيح إمكانية الثورة والتحرك ضد هذه الدول، ولإيضاح عجزها عن فعل أي شيء قادر على إيقاف مسيرة الثورة إذا ما توفرت لها جرأة الإنطلاق، وأدركت خواء الدعاية التخويفية، وأساليبها الساعية إلى إيجاد جو من التهيب النفسي، والخضوع الذاتي للنظام السياسي الذي فرض على الأمة، وقام على أنقاض الكيان السياسي للمسلمين. وليس توظيف حدث الثورة الإسلامية في إيران إلاّ نموذجاً واحداً لسياسة توظيف الحدث في إطار إستيعاب الخطة التخويفية الدعائية الدولية لدى الإمام، ومواجهتها بالأساليب المناسبة، ودرجها كواحدة من ثوابت الخطاب لديه، ولعل النص التالي الذي قاله الإمام بتاريخ ٢٠ ذي الحجة الحرام ١٤٠٠ هـ ، ٣/ نوفمبر/ ١٩٨٠ م بصدد القضية الأفغانية يوضح أبعاد تلك السياسة، يقول الإمام (رض):

«ولكن عندما تستيقظ الشعوب شيئا فشيئا سوف تعلم ان الموضوع ليس كذلك، فقد رأينا أن التدخل العسكري للإتحاد السوفيتي في أفغانستان التي تؤلف شعبا ضعيفاً ولكنه حيّ، وقد وقف هذا الشعب بقوة الإيمان في الوقت الذي كانت الحكومة الأفغانية الغاصبة وبعض الأحزاب اليسارية تعمل كلها مع السوفيات، ومع ذلك كان الشباب الأفغاني المتطلع قد وقف بوجههم، ومنذ مدة طويلة أوجد للسوفيات بعض المشاكل، وعلينا أن نقول بأنهم دحروا السوفيات سياسيا، وكان هذا ناتجاً عن علمهم بأنه ليس من الحقيقة في شيء

من أن السوفيت لو غزوا بلدا لا يمكن الكلام بعد ذلك ويجب الإستسلام مائة بالمائة! أو إن أمريكا لو تحرش احد بها ـ إيران مثلا ـ فسوف يباد البلد بأجمعه ويزول!!! إن هذا الرعب قد فشل شيئا فشيئا. . . وإنما كان الأعداء قد أوجدوا هذا الرعب عن طريق دعاياتهم بحيث كانوا ينجزون أعمالهم بواسطة هذا الرعب.

إن أولئك الذين لم تكن قوتهم إلى حد بحيث يبيدون شعباً بكامله كانوا يستخدمون هذا الإسلوب أيضاً، ولكن الشعب الإيراني قد دحر هذا الموضوع وأباد هذا النظام، وهكذا بالنسبة للقوى العظمى أيضاً كان الموضوع هكذا بحيث كان إرهابها أكثر من واقعها، لو حدث أمر في بلد صغير مخالف للسوڤييت أو الأمريكان كان يكفي أن تنهر أمريكا أو السوفيات ذلك البلد الصغير، كان الموضوع ينتهي بذلك التخويف فقط».

وفي مكان آخر يقول الإمام (رض) بتاريخ ٥/٨/٦٠ المصادف ٢٦/١١/٨١:

«وما أريد التأكيد عليه هو أن تخرجوا من رؤوسكم ما يقال من أنه لا يمكن مواجهة الدول الكبرى، صمموا على ذلك تقدرون، لأن الله يدعمكم ويحميكم، إن الهمسات التي تشاع من قبل عملاء الإستعمار من أنه لا يمكنكم الحياة دون اللجوء إلى إحدى الدول العظمى كلها خطأ مئة بالمئة وغير صحيحة، قفوا على أرجلكم بإستحكام وقوة وكونوا مع الله واسعوا قبل كل شيء إلى الرقي في الإنسانية عندها يمدنا الله بعونه ونستطيع أن نحصل على إستقلالنا وحريتنا وحفظ إسلامنا ونوفق إلى ذلك إن شاء الله».

لقد كانت مفردة الدعاية التخويفية واحدة من أكثر المفردات التي جسدتها سنوات المواجهة الأخيرة، ويقول الإمام (رض) في وصيته المباركة في هذا الإطار: «من المؤامرات المهمة والملحوظة بوضوح في القرن الأخير، وخصوصا في العقود الأخيرة، وبالأخص بعد إنتصار الثورة، مؤامرة الدعاية الواسعة وبأبعاد شتى والهادفة إلى إدخال اليأس من الإسلام إلى قلوب الشعوب، خاصة شعب إيران المضحي، وتروج أحياناً لذلك بصورة ساذجة

وبلهجة صريحة بأن احكام الإسلام وضعت قبل الف وأربعمائة عام فلا يمكنها اليوم إدارة أمور الدول».

وبالطبع يضع الإمام (رض) يده على الهدف الدولي لأسلوب الإثارة الدعائي هذا، فهو يقول:

إن الهدف من ذلك هو تيئيس المسلمين ومحاربتهم نفسياً وسط أجواء تسمح نوعاً ما باللجوء إلى هذا الأسلوب النفسي، إذ أن الواقع الإسلامي هو واقع مأساوي بلحاظ التعدد السلبي الذي يسود الساحة الإسلامية في وجهات النظر، ومن وجود الحكام التابعين والمسلطين على رقاب المسلمين في أكثر نقاط العالم الإسلامي الجغرافية، وعلى صعيد فارق الإمكانات في القوى العسكرية بينه وبين أعدائه الدوليين، ومن حيث غياب وحدة الكلمة والموقف إزاء القضايا الإسلامية المصيرية، فهذه المظاهر السلبية كانت ولا زالت تشكل الأرضية التي تتحرك عليها مفردة الدعاية العدوة المضادة للإسلام، فأعداء الإسلام يحاولون الإيحاء بأن العالم الإسلامي إنما إنتهى إلى هذا الحال لكون الإسلام نفسه ما عاد يصلح لقيادة البشرية، ولقد أصبحت نظرياته «بالية وقديمة» ولا تواكب تطورات العصر وحاجاته والضرورات التي إستجدت، وبمعنى آخر أن أعداء الإسلام يحاولون توظيف الظواهر السلبية في العالم الإسلامي ليوجدوا منها أرضية وأجواء الإنطلاق لإسلوب دعائي أو مفردة دعائية تلعب دورها في إطار الحرب النفسية التي يشنونها ضد العالم الإسلامي، وغالباً ما يكون هذا الإسلوب الخبيث قائماً على إنتقاء محكم لمادة الدعاية، وذا قابلية في إيهام العقول الساذجة والبسيطة التي لا تتعمق في الربط المباشر بين تلك المادة الدعائية المثارة والأرضية التي انطلقت منها. ولا تحاول أن تقرأ الأهداف العدوة، ولا تستطيع بحكم درجة وعيها الهابطة أن تحيط بتاريخ الصراع، والوقوف على الأسباب التي أدت بالعالم الإسلامي إلى هذه النهاية، ولا قابلية لها في قراءة علاقة الفكرة بالزمن.

ان شريحة البسطاء هذه تقع على الدوام ضحية هذا الأسلوب الدعائي، وهنالك شريحة أخرى، هي شريحة المنتفعين من ترويج هذا الأسلوب، وعليه

فأن أسلوب المواجهة الإسلامي يجب أن يرتقي إلى ما يجعله قادراً على التصدي للشريحة الثانية بأساليب كاشفة لروح النفعية والاستغلال لديها، وأن ينهض بوعي الشريحة الأولى، إلى ما يعطيها ضمانة الفرز، فرز الدعايات المضادة التي تشكل مفردات الحرب النفسية العدوة، فأن كون الأفكار الإسلامية جاءت قبل ألف وأربعمائة عام لا يشكل علامة سلبية للفكر الإسلامي إنما يمثل نقطة إيجابية في كون هذه الأفكار جاءت بشمولية ورصانة وقوة تعطيها عناصر الخلود، وقدرة الإمتداد مع الزمن، وفي هذا الأطار قدمت الثورة الإسلامية في إيران خلال السنوات الإحدى عشرة المنصرمة من عمرها، قدمت الدليل الحي الذي احرق العديد من مفردات الدعاية الغربية والشرقية، بما فيها تلك المفردة المرتبطة بزمن الأفكار التاريخي.

التركيز على قدرة الإسلام الخلاقة:

كما إن نموذج الثورة الإسلامية ضيّق مساحة إستخدام الحرب النفسية على أعداء الإسلام، فهذا النموذج أوضح قدرة الإسلام الخلاقة على إدارة أمور البلاد الإسلامية، بعيداً عن التبعيات إلى الدوائر الكبرى، وقدم الدليل على أن امكانات وطاقات الأمة الذاتية هي من الضخامة بحيث أنها قادرة على إنتهاج سياسة مستقلة غير خاضعة للقوى الشرقية والغربية. لقد أثبتت التجربة الإسلامية في إيران حيوية الأفكار الإسلامية، وترجمت شعار العدالة في اطاره النظري إلى الواقع العملي، كما انها اتاحت المجال للإبداع والابتكار والإنطلاق نحو فضاء العلوم العسكرية وغير العسكرية.

لعل ذلك هو الذي دفع القوى الكبرى إلى الوقوف بوجه هذه التجربة من خلال وفاق وتخندق جاد ضم كل القوى الكبرى من أجل الإطاحة بها والقضاء على فرص التطور والإستقلالية أمامها، والحؤول دون تأثيراتها على عموم الشارع الإسلامي الذي ادرك اليوم أنَّ الإسلام ليس قادراً فقط على إدارة الحياة وأمور البلاد الإسلامية فحسب... وإنما هو قادر على تقديم أروع نموذج حاكم في عالم مظلم بنماذجة الإرهابية والبطشية.

يقول الإمام (رض) في وصيته بصدد قدرة الإسلام على إدارة الحياة:

«انهم إما جهلة بالحكم والدستور والسياسة أو عالمون لكنهم يتظاهرون بعدم الإطلاع لأغراض خاصة، فإجراء القوانين على أُسس القسط والعدل، ومنع الظلم، ومواجهة الحكم، وبسط العدالة على كلا الصعيدين الفردي والإجتماعي، وقمع الفساد والفحشاء واشكال الانحرافات، وتحديد الحركات بموازيين العقل والعدل، وقضايا الاستقلال والاكتفاء الذاتي، ومكافحة الإستعمار والاستغلال والاستعباد، وقضايا الحدود والتعزيرات على أساس العدل، ومنع فساد وتدمير المجتمع وقضايا السياسة، وتبرير شؤون المجتمع وفق معايير العقل والعدل والإنصاف والمئات من أمثال هذهِ القضايا هي ليست من الأمور التي يبليها الدهر على مدى التاريخ الإنساني والحياة الإجتماعية، وادعاء ذلك مثل الإدعاء بان القواعد العقلية والرياضية يجب أن تُلغى في القرن الأخير وتستبدل بقواعد أُخرى، وما هو بأكثر من إدعاء بليد، القول بانه اذا كان يجب أن تجري العدالة الإجتماعية في بدايات العصر الإنساني منعاً للظلم والنهب والقتل، فأنها قد اصبحت اليوم قديمة، فهذا هو عصر الذرة».

واخيراً نقول: أنه على الرغم من مساهمة الثورة الإسلامية في إيران، في إبطال أساليب الدعاية العدوة، لم يغفل الإمام (رض) عن اثارة الجانب الدعائي وضرورة التصدي الحازم له، مثلما انه لم يغفل من قبل على التركيز على هذا الجانب واعتباره على انه مسؤولية ضخمة تقع على عاتق مسؤولي الدولة الإسلامية، إذ انه كان يقول:

«عليهم أن يوقضوا أبناء الأمة التي ركزوا في ذهنها، خلال سنوات متطاولة، عدم إمكانية معارضة اميركا والأتحاد السوفياتي، ولا زالت هذه الدعاية راسخة في الاذهان، يجب علينا أن نفهّم الشعوب بأن هذا الأمر ممكن، وخير دليل على ذلك ما حدث في إيران. لقد ملأوا أدمغتهم بأنه لا يمكن خوض الحرب مع تلك القوى، ولا يخفى ان هذهِ الامور هم الذين قاموا باشاعتها عن طريق عملائهم داخل صفوف شعوب البلدان الإسلامية.

«يتوجب على الأشخاص الموجودين في البلاد الإسلامية ـ أولئك المعتقدين بالإسلام، والذين تنبض قلوبهم من أجل شعوبهم، ويريدون خدمة الإسلام، أن يقوم كل منهم ببعث شعبه من داخله، لكي تعثر شعوبهم بالتالي على ذواتها التي فقدوها، فأن الشعوب التي فقدت ذواتها، فقدت بلادها، وأن الافكار التي رسخت في أذهانهم، والمتمثلة بعدم إمكانية المقابلة مع القوى العظمى، وانها سوف تعمل كذا وكذا، يجب أن تزال من أدمغتهم، أي يجب أن يزال من أدمغة الشعوب هذا (اللاممكن) واحلال (الممكن)... كلا فبالإمكان أن نعمل ذلك كاملاً».

جاء ذلك في خطاب للامام (رض) مع المشاركين في مؤتمر القدس العالمي بتاريخ ١٩٨٠/٨/٩ م، وفي نداء له لحجاج بيت الله الحرام غرة ذي الحجة ١٤٠٥ هـ ، يقول الإمام (رض):

«وتجسيد شعائر المواقف الكريمة، والمشاهد المشرفة في بلدانكم، والخطوة الأولى تتمثل في إزالة اليأس الذي عمل الشرق والغرب وعملائهما على غرسِهِ في قلوب المسلمين ونفوسهم، وجعلوا المسلمين يصدّقون بعدم إمكان استمرار حياتهم دون الارتباط بقوة كبرى، وإيران أثبتت حكومة وشعباً في هذه الثورة العظمى تفاهة هذا الفهم وخواءه».

هكذا يستوعب الإمام (رض) أساليب وصور الحرب الدعائية في سياق المواجهة القائمة، ويصنع أو يؤسس الأساليب المضادة لها، بما يفرز ويبلور ثابتة مقاومة التخويف والتيئيس الدولي بصورة واضحة في خطابهِ الثوري.

التحريـك:

لقد كان الخطاب الثوري للإمام يقوم على الهدف التحريكي للشارع الإسلامي الذي يتكرر بألوان وأساليب متعددة فتارة يكون الأسلوب التحريكي لدى الإمام قائما على التذكير بالواجب الديني لمقاومة الظلم المتمثل بالنظام السياسي العالمي الذي قام على الكيان السياسي للمسلمين. وتارة ثانية يتمثل الأسلوب بتذكير العالم الإسلامي بإمكاناته الذاتية المادية والبشرية بما يؤهله

لإدارة المواجهة إدارة ناجحة، وتارة ثالثة يحاول الإمام (رض) أن يحرك الساحة الإسلامية من خلال الطرق على أرشيف التجارب الفاشلة لقيادة الشعوب بالقوة، ونبش حالات الإنتصار التي سجلتها بعض الأمم والشعوب على القوى الكبرى، وتارة رابعة يستقر أسلوب الإمام (رض) التحريكي على سرد متواصل لجرائم الكبار ضد الشعوب وعلى كشف متواصل لما لا يمكن ان تستوعبه مدارك المواطن العادي من حركة تآمرية غربية أو شرقية أو على عجز هؤلاء الكبار عن مواجهة أية ثورة، وتارة خامسة يأتي التحريك عبر مقاومة الإتكالية كأحد الأمراض الإجتماعية الخطيرة.. وعلى رغم أن الجو العام في ظل السيطرة الإستكبارية على الشعوب ما كان يشجع على العمل بهذه الأساليب بصورة متواصلة، على رغم ذلك بقي الإمام (رض) يطمح في أن تنجح أساليبه في تغيير الواقع الدولي الذي كان سائداً قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران، ولقد حقق هذا الانتصار طموح الإمام، وتحول إلى مصداق من مصاديق نظريته في المواجهة، وواصل أساليبه تلك بعد الثورة، وكنموذج هنا يقول في حديثه بمناسبة عيد الأضحى سنة ١٤٠٠ هـ.

«... أنتم أيها المسلمون تملكون كل شيء، وتملكون قوة الإسلام التي تفوق كل شيء وكل السلاح، كما تملكون الصحارى والبحار والبلاد الواسعة الغنية.. انكم في غنى عن كل شيء ولكن اكثر أبناء شعوبكم يفتقرون كل شيء، أن كل هذا بسبب عدم تطبيقكم للتعاليم الإسلامية، وأن ثرواتكم التي يجب أن تصرف على المسلمين تعطى لغير المسلمين بثمن بخس».

وفي نداء من نداءاته لحجاج بيت الله الحرام في ٢/ ١١/ ١٤٠٠ هـ يقول الإمام (رض):

«اعلموا أن قدرتكم الروحية ستتغلب على جميع الطواغيت وتستطيعون بعددكم البالغ مليار انسان وبثرواتكم الطائلة غير المحدودة ان تحطموا جميع القوى.، انصروا الله كي ينصركم، أيتها الجموع الغفيرة من المسلمين انتفضوا، وحطموا اعداء الانسانية، فإن اتجهتم إلى الله تعالى والتزمتم بالتعاليم السماوية فالله تعالى معكم».

• ومن خلال هذين النصين يمكن القول:

ـ **أولاً**:ان الدعوة التي يوجهها الإمام (رض) إلى الأمة لكي تثور على واقعها المأساوي. لم تكن دعوة ساذجة غير موجهة وغير واضحة في أرضيتها المبدئية والفكرية... بل انها حركة في إطار الإسلام وعلى أرض فكرية كبديل للحالة الراهنة.

ثانياً: ـ انه وبالأضافة إلى ما توفره الحركة في إطار الإسلام من ضمانات ربانية بالموفقية والإنتصار فإنه من الملاحظة المادية فان الأمة تملك التمرد على القيود المفروضة عليها.

ثالثاً: ـ الواقع الإقتصادي والحياتي المتردي الذي تعيشه الأمة يكفي وحده لأن يكون سبباً لإنطلاق الحركة الذاتية.

ان كل ذلك يندرج في إطار اسلوب واحد هو اسلوب التذكير بإمكانات الحركة المادية والبشرية، اما ما يبلور الأساليب الأخرى فيمكن أن تقف عليه من خلال النصوص التالية.

يقول الإمام (رض) في لقاء له مع وفد من كبار علماء الدين السعوديين بتاريخ ٢٣/ جمادى الأول ١٣٩٩ هـ/ ق.

«ان قوة الإيمان هي التي نصرت جيشاً ضعيفاً على امبراطوريات العالم الكبرى، وجعلت ثلاثين شخصاً بقيادة خالد بن الوليد يغلبون ستين ألف مقاتل رومي. إن قدرة الإسلام هي التي حققت الإنتصار، وعلينا نحن المسلمين ان نحقق الإنتصارات الإسلامية بقوة الإسلام، علينا ان نجاهد قوى الكفر بقوة اسلامية وندفع عن بلداننا شر الظالمين».

ويقول في ندائه إلى الحجاج المسلمين في ذي الحجة ١٣٩٩ هـ ما يلي:

«يامسلمي العالم!

ماذا دهاكم؟ لقد استطعتم في صدر الإسلام بعددكم القليل ان تحطموا القوى الكبرى وتشيدوا صرح الأمة الإسلامية العظيمة.

والآن أنتم تقاربون المليار إنسان وتمتلكون الثروات التي بمقدورها ان تشكل أكبر حربة في مواجهة العدو اصبحتم أذلاء ضعفاء!!».

وفيما يخص أسلوبه التحريكي القائم على عجز الدول الكبرى عن مواجهة قرارات الشعوب التمردية يقول الإمام (رض) في لقائه بمجموعة من الضباط العسكريين الباكستانيين العائدين من حج بيت الله الحرام في ٤/ محرم/ ١٤٠٠ هـ/ ق يقول:

«في هذه المجابهة القائمة الآن بين كل الكفر والإسلام لا بين إيران واميركا، على المسلمين ان ينهضوا ويثوروا ويحققوا النصر في هذه المجابهة، وسينتصرون، وعليهم أن لا يخشوا من هذه الطبول الفارغة، ان لا يخافوا من اميركا بإعتبارها قوة كبرى وقدرة شيطانية وقادرة على ابادة الجميع في يوم واحد!! هذه دعايات اميركا، لا تستطيع أميركا أن تفعل ذلك، لا تستطيع أن تبرز عضلاتها امام المسلمين. العالم اليوم يدرك ما سيحدث في هذا الصراع».

وفي اطار تحريك الحوافز الدينية ومسؤولية الواجب الديني في مقاومة الظلم والطغيان الأرضي ورموزهما الكبرى يقول الإمام (رض) في حديث له مع عوائل شهداء الدول الإسلامية التي شاركت في احتفالات الذكرى السنوية الثانية لأنتصار الثورة بتاريخ ٢٩/ ١١/ ٥٩ هـ ش المصادف ١٨/ ٢/ ١٩٨١ م. يقول:

«لقد كان المؤتمر مناسبة للإسراف والتبذير دون الإهتمام بالإسلام وأمور المسلمين، ألم يسمعوا الحديث النبوي الشريف الذي يقول:

(من أصبح ولم يهتّم بأمور المسلمين فليس بمسلم)؟.

هل اهتَّم هؤلاء بأمور المسلمين عندما اجتمعوا في دولة كانت مهبطاً للوحي ومكاناً لمبعث رسول الله ونبي الإسلام؟ هل اهتموا بالإعتداء الصهيوني على لبنان وفلسطين؟.

يجب على الشعوب نفسها أن تعطي أهمية للإسلام، فأننا يائسون من زعماء الأنظمة».

ان أساليب التحريك لدى الإمام (رض) نجحت في الوصول إلى أهدافها سواء في ايصال الأحداث إلى نقطة الإنتصار في الداخل الأيراني، أو في توظيف هذا الإنتصار من أجل تفجير نقاط اخرى في الشارع الإسلامي شكلت بدورها مصاديق جديدة لثابتة التحريك في خطاب الإمام الثوري.

فلقد انفجر هذا الشارع الإسلامي في لبنان ليسجل درسا خاصا في المواجهة والمقاومة. وانفجر في فلسطين المحتلة ليسجل درسا آخر، وامتد إلى الشمال الأفريقي وإلى نقاط إسلامية وعالمية عديدة. ولا يمكن لأي مراقب منصف أن يفصل ببساطة اتصال الإنفجار الإسلامي في تلك النقاط عن تأثير الثورة كخطاب وكحدث، أوصل إلى نقطة الانتصار في القلوب المحرومة الأمل بإمكانية مواجهة الكبار المسيطرين على هذا العالم وفرض ارادة أُخرى إلى جانب الإرادة القائمة في ادارته سياسيا.

ان خطاب الإمام (رض) قاوم الإتكالية السياسية كأحد الأمراض الإجتماعية وكلون أو كأسلوب تحريكي آخر، وأخيراً في هذا الإطار وكتتويج لهذه المقاومة يقول الإمام (رض) في وصيته..

«وصيتي للشعوب الإسلامية هي أن لا تنظروا أن يأتيكم أحد من الخارج ليعينكم على الوصول للهدف ـ وهو الإسلام وتطبيق احكامه ـ يجب عليكم أن تنتفضوا من أجل هذا الهدف الذي يحقق الإستقلال والحرية».

وهذا النص من نصوص وصية الإمام (رض) المباركة يختزن مجموعة من المعاني الدقيقة التي تشكل أسلوب الإمام في مقارعة ومكافحة امراض الأمة الذاتية التي تشل طاقاتها وتقتل روح الإبداع لديها و تعرقل مسيرتها نحو الإستقلال والكرامة، فالواضح ان الإتكالية كانت ولا زالت تشكل أحد المظاهر المرضية في حياة الأمة الإسلامية.. وهذه الإتكالية لجزء كبير من الأمة الإسلامية ربما كانت السبب في ضياع الكثير من فرص الانتصار على الأمة، إذ

أنه بعد حدث الثورة الإسلامية في إيران تأثر الشارع الإسلامي برمته، وتفاعل مع هذا الحدث إلى أقصى درجات التفاعل وافرز هذا التأثر والتفاعل فيما بعد صوراً مشرقة للمواجهة تجسدت في افغانستان ولبنان وفلسطين والعراق وشمال أفريقيا ونقاط عديدة من العالم الإسلامي. . . ولو كان هنالك احتضان واع ومسؤول من قبل بعض شرائح الأمة لصورة المواجهة تلك. . . ولو كان هنالك تضامن جادٌ معها، لما كان سهلاً على القوى الكبرى وعملائها المحليين أن يمتصوا ضربات الإسلاميين، وأن يخططوا لإماتة أثار هذه الضربات، ولأن يعدوا العدة بالإغتيال والترغيب والترهيب وشراء الضمائر لإجهاض الحركة الإسلامية والقضاء على رموزها. . .

إن ما حصل، هو أن شريحة كبيرة من الأُمة كانت اما متفرجة على الصراع المرير الدائر بين الإسلامين من جهة وبين الأنظمة الفاسدة والقوى الكبرى من جهة أخرى واما متعاطفة، لكن إلى الدرجة التي لا يخرج فيها هذا التعاطف عن إطار الإحساس والشعور والموالاة القلبية. . . وأما ممارسة لحالة الإستنكار الداخلي أو ما يسمى «بأضعف الإيمان» في موقفها ازاء ما يدور من اشكال مواجهة حادة ومن صور صراع دام ومرير.

رفض الاتكالية:

هذا من جانب ومن جانب آخر فأن شريحة أخرى من الأمة كانت تمارس الإتكالية بلون آخر. . . هو لون الاعتماد على الآخرين ـ على إيران بالذات ـ من أجل انقاذها من جحيم تعيشه في ظل نظام من الأنظمة السفاحة الدكتاتورية. . . كما هو حال العراق في ظل دموية «صدام» ولغة الموت التي لم يعرف لها عالم اليوم مثيلاً. . وقبل أن نعلق تعليقاً سريعاً على نموذج العراق يجب القول إن هذا اللون من الإتكالية مسؤولٌ وإلى درجة كبيرة عن الواقع التبعي الذي يخيم بظلّه الكئيب عليها.

فالحرية في عالم، كعالم اليوم، معقد ومتداخل ومتضامن ضد كل ما هو إسلامي، وحساس أزاء كل حركة تسعى إلى التمرد على النظام الدولي بشكله

الحالي... الحرية في مثل هذا العالم لا يمكن أن تأتي عبر الآخرين.. فهنالك قيود وضعها العالم من خلال انظمته وقوانينه التي يدير فيها الساحة الدولية... وفضلاً عن هذه القيود فأن الحرية التي تأتي بلا ثمن قد تضيع بسرعة ويتم التفريط بها بسهولة.. الحرية بحاجة إلى ثمن وثمن ذاتي..

إن الإمام الخميني ـ قدس الله نفسه الزكية ـ عندما يقول بوجوب ذاتية التحرك في كل نقاط العالم الإسلامي والعالم المستضعف التي تخضع لممارسات إرهابية وبطشية.. لم يكن يسعى إلى التخفيف من عبء المركز ـ مركز ومحور انطلاق الثورة الإسلامية وهو إيران ـ ولا يريد أن يتنصل من دعم ثوار العالم الإسلامي... اذ هو ابو الثوار ومعلمهم، وملاذهم، وقائد تحركهم، ودافع الثمن طوعاً بدلاً عنهم، وراعي حركات التحرر، والثابت الوحيد في دعمهم في عالم متغير... أن الإمام (رض) يسعى إلى إظهار الاتكالية كأحد الامراض المسؤولة عن تراجع العالم الإسلامي، وكأحد الأسباب التي لا زالت تؤدي إلى ضياع الكثير من الفرص في مسار الصراع الذي يخوضه الإسلاميون مع اعدائهم الدولين الكبار، والأنظمة المحلية الإرهابية، ومن هنا يفهم سر تأكيد الإمام على ضرورة التحرك الشعبي الجماعي، وممارسة اسلوب التذكير بالقوة والإمكانات الذاتية التي تساعد على هذا التحرك، وتجعل منه امرا ممكنا يؤدي إلى الإنتصار إذا ما رافقته نوايا سليمة في الإتكال على الله فقط، وليس الإتكال على الآخرين والتخلي عن المبادرة الذاتية والفعل الذاتي المعارض لمظاهر الظلم والإستغلال التي يتعرض لها العالم الإسلامي...

إن الإمام (رض) عندما يحاول هنا أن يقضي على الأحلام التي تهيمن على فئة من الأمة بحيث تدفع بها إلى الرغبة في التحرير ـ عبر الآخرين ـ وليس عبر الفعل الذاتي... عندما يحاول الإمام ذلك فهو لا يفعله بما يؤدي إلى اليأس والقنوط... لا بل أنه وفي الوقت الذي يقتل فيه الاتكالية ويخطىء انتظار التحرير من الخارج فأنه يجعل التحرك من أجل الثورة على الظلم بحكم الواجب، إذ أنه يقول في الوصية «يجب عليكم أن تنتفضوا من أجل هذا الهدف

الذي يحقق الإستقلال والحرية». وهذا الربط بما يقوم عليه من أسلوب تحريكي واع للثورة يوضح جانباً من جوانب دقة الإمام (رض)، ويلقي الضوء على لقطة من لقطات فن التحريك لديه، وهو بالتالي لا ينسى أن يضّمن وصيته المباركة بعض اساليب التحريك الضمنية، ويرسم بطريقته الخاصة موقعاً واضحاً لهذه الأساليب في إطار استراتيجية المواجهة لديه مع الغرب، الذي يقوم بجهود مضنية من أجل إبقاء الأمة في حالة من حالات التخلف عن الصحوة التي أدت إليها ثورة الإمام، وإمام الثورة الراحل، بسنوات عمره الكريم، الحافلة بالجهاد والمتاعب والمصاعب والإصرار والجدية.

الإمام كان يطمح الى انقاذ الأمة من الإتكالية، ففي هذا الاطار كان (رض) يقول بمناسبة الذكرى الأولى لاستشهاد آية الله العظمى محمد باقر الصدر: «فلا طريق أمام العراق سوى هذا الطريق فعلى الشعوب أن تثور وأن تخلص نفسها من أيدي الأشرار وعلى الشعوب أن لا تقعد عن العمل حتى يقوم آخرون من الخارج بتخليصها فبداية الإنقاذ تأتي من قبل الشعب نفسه، ومع أن إيران كانت وحيدة ولم تعاونها أية دولة بل كانت كافة الدول الإسلامية وغير الإسلامية بأستثناء عدد قليل تعارضها وتقف الى جانب النظام، فقد أراد الشعب أن تنقرض هذه السلالة الخبيثة وكان له ذلك، فإذا أراد الشعب شيئاً فلا يمكن أن يفرض عليه شيء يخالف إرادته».

ويواصل الإمام (رض) حديثه قائلاً «على الشعوب أن تنهض و تنقذ نفسها من سيطرة حكومات القوى الكبرى، فلو كان الشعب الإيراني لا زال جالساً ينتظر أن تمتد يد من الخارج لإنقاذه لبقي على ما كان عليه حتى النهاية، ولظل يعاني نفس الضغوط من الحكم البهلوي الجائر، ولكنه هب متحداً منسجماً وهتف جميع أبنائه بصوت هادرٍ مدوٍ رافضاً هيمنة تلك الحكومة الكافرة وانتصر رغم مساندة القوى الكبرى للشاه المقبور ورغم القدرة العسكرية الكبيرة التي كان يملكها في الداخل، ولكن وحدة الشعب والتحام القوى العسكرية معه أحبطت جهود الشاه وأسياده وأدت الى انتصار الشعب. اذاً فلو نهض الشعب العراقي فإن جيشه لا بد وأنه سيلتحم معه ويجتث بؤرة

الفساد من بلاده. . .». وهكذا يتبلور من خلال هذا المحور خط آخر من خطوط نظرية التحريك لدى الإمام (رض) وتصبح مفردة الإتكالية عنواناً لهذا الخط.

مقاومة فصل الدين عن السياسة

لقد أوصى الإمام بعلاقة الدين بالسياسة وما مفاده «أن التشريعات السياسية في الإسلام اكثر من التشريعات العبادية». وأن «الكثير من التشريعات العبادية تنطوي على أبعاد ومعانٍ سياسية». وهذهِ العبارة شكلت المحور الذي تحركت في إطاره حياة الإمام القائد قبل أن تتحول الى وصية ذات خصوصية من وصاياه لقد عاش الإمام الراحل أيام شبابه وسط عالم إسلامي ممزق منهك القوى بالمؤامرات، غارق في المفاهيم الخاطئة، بما فيها مفهوم فصل الدين عن السياسة، وكان حد الإرهاق والترهل والغرق في المفاهيم المنحرفة للعالم الإسلامي آنذاك، لا يترك فسحة أمل في إصلاح أي تعبير ذا قيمة ومردودات واضحة، فالجهد المعادي الذي كان يحرص على تكريس منطق فصل الدين عن السياسة، لم يكن جهداً فردياً حتى تسهل مقاومته، أنه كان جهداً دولياً منظماً، له أرضيته التاريخية وخزينهُ الحقدي وقواه المنظمة. . جهداً وظف كل الامكانات العسكرية والدعائية من أجل أن يطيح بكيانية الإسلام، وأن يطيح بحالة الوعي لدى المسلمين، وأن يؤسس مفاهيم إنحرافية خاطئة تقول بفصل الدين عن السياسة، وفيما كان هذا الجهد يواصل سيره التصاعدي وينجح في الترويج للنزعات القومية والقطرية والوطنية و العلمانية كبديل عن التفكير في تحكيم الإسلام، وفيما كانت الأمة الإسلامية تتراجع في مقابل هذه النجاحات العدوة وبعد سقوط الدولة العثمانية، كان الإمام الخميني «قدس الله سره الشريف» يدرج ثانية مقاومة فصل الدين عن السياسة في خطابه الثوري ويجعل منها واحدة من مكونات هذا الخطاب المحورية، وكان يحمل طموحه في تحكيم كتاب الله واحداث الانقلاب المضاد على المؤامرة العدوة.

كان يُحيل الطموح الى حركة في دائرته التي يعيش فيها في إيران وفي الظرف المناسب، وانفجرت هذه الحركة لتسجل ذورتها التصاعدية، ولترسم

فيما بعد فصلاً جديداً من فصول سيرة جهاد الإمام الخميني في تصديه للمفاهيم المنحرفة في فصل الدين عن السياسة، فصل بدء بهجرة الإمام الى تركيا ثم الى العراق ليقضي فيه ثلاثة عشر عاماً من العمل الدؤوب المتواصل لتوعية الشارع الإيراني.

لقد كان يقول في واحد من دروسه في منفاه في النجف الأشرف/ ١٣٨٩ هـ، يقول: «كثير من الأحكام العبادية تصدر عنها خدمات إجتماعية وسياسية، فعباديات الإسلام عادة توأم سياساته وتدبيراته الاجتماعية.

فصلاة الجماعة مثلاً واجتماع الحج والجمعة تؤدي ـ بالإضافة الى مالها من آثار خلقية وعاطفية ـ الى نتائج وآثار سياسية استحدث الإسلام هذه الإجتماعات وندب الناس إليها، والزمهم ببعضها حتى تعم المعرفة الدينية وتعم العواطف الأخوية وتتماسك عرا الصداقة والتعارف بين الناس، وتنضج الأفكار وتتلاقح، وتبحث المشكلات السياسية والإجتماعية».

انفجرت الثورة الإسلامية، وتوالت مشاهدها التاريخية وأقام الإمام حكم الله في أرض إيران، لتصبح هذه البداية شاهداً على ما كان يحذر منه الإمام من الوقوع بفخ فصل الدين عن السياسة، فلقد حاولت قوى العالم الكبرى أن تحبط هذه التجربة بكل الأساليب وعبر شتى الإعتداءات العسكرية وغير العسكرية، ولما عجزت عن ذلك بقيت تتحرك على محور تشويه النموذج الإسلامي الحاكم في إيران، لتثبت فيما بعد ان الإسلام غير قادر على أدارة شؤون العصر وأقامة الحالة الحاكمة المطلوبة، ولأن الإمام الراحل قدس سره كان يستوحي بتجربته وعقله الكبيرين أبعاد عقدة الدول الكبرى ازاء عودة الإسلام الى مسرح الحياة، فهو كان يرى بأن اعداء الإسلام لن يهدأ لهم بال، وسوف يواصلون مؤامراتهم وممارساتهم العدائية، ماداموا يرون الإسلام يتحرك ويدير شؤون الحياة بصلابة وجدارة وقوة، وهو في هذا الصدد يقول في نداء له الى حجاج بيت الله الحرام ٣/ ١١/ ١٤٠٠ هـ.

«من الإشاعات المثارة بشكل واسع ضد إيران على الظاهر، وضد الإسلام في الواقع، الزعم بأن ثورة إيران لاتستطيع إدارة البلاد، وأن الحكومة

الإيرانية توشك على السقوط لإفتقادها الإقتصاد السليم والتعليم الصحيح، والجيش المنسجم، والقوات المسلحة والمجهزة!! وهذه الإشاعات تنشرها جميع وسائل الاعلام الأمريكية ووسائل الإعلام في إيران».

ومن هنا خصص الإمام جزءاً كبيراً من وصيته لمقاومة هذه المؤامرات والتأكيد على أن المؤامرة على الإسلام تبدأ وتنتهي عند مقولة فصل الدين عن السياسة.

فلقد قال الإمام (رض) في هذه الوصية: «لقد أسس نبي الإسلام (ص) حكومة كسائر حكومات العالم، ولكنها تمتاز عنها بدافع إقامة العدالة الإجتماعية وبسطها وكان لخلفاء الإسلام الأوائل حكومة على أمصار أوسع وتأسيس حكومة علي بن أبي طالب عليه السلام بنفس الدافع ولكن على نطاق أوسع وأشمل هو من الثوابت التاريخية».

وهذا النص هو واحد من نصوص عديدة وردت في وصية الإمام (رض) المباركة فيما يتعلق بعلاقة الدين بالسياسة، حيث مثلت هذه العلاقة مجالاً خطيراً من مجالات محاربة الإسلام كفكرة وكمشروع متكامل له نظرياته في إدارة شؤون الحياة السياسية والإقتصادية والإجتماعية وغيرها، وله نماذجه التاريخية الحاكمة، وفلسفة التشريع، وفلسفة النبوة والإمامة، فكل هذه المفردات إنما تفقد قيمتها ومعناها، إذا ما قيد الإسلام الى مفهوم أبعاده عن السياسة وإدارة شؤون الحياة، فيصبح القرآن بلا هدف، والتشريع بلا غاية، وتصبح مهمة الأنبياء (ع) غامضة مشوشة، وفي هذا السياق فإن ما يفهم من كلام الإمام (رض) المذكور هو: هل ان نبيَّ الرحمة الأكرم (ص) قد أسس أول حكومة إسلامية عادلة على الأرض أم لا؟ وهل إن الخلفاء والإمام علي عليه السلام قد قادوا مثل هذه الحكومة أم لا؟

وإذا كان الجواب بنعم، فكيف تفسر هذه (النعم) مع دعوات القائلين بفصل الدين عن السياسة؟

إن الإمام (رض) عالج هذهِ المقولة عبر محورين، محور علمائي ومحور

إقليمي، فعلى صعيد المحور الأول كان يقول في خطاب له مايلي:

«وعندما فعل شعار فصل الدين عن السياسة فعله وراج وانتشر... وعندما أصبح الدين في منطق الجهلة هو الإنغماس في الأحكام الفردية والعبادية، ... وعندما لم يعد يحق للفقيه تبعاً لذلك الخروج من هذهِ الدائرة وأسرها والتدخل في شؤون السياسة والحكم، عندما ساد هذا المنطق أصبحت معاشرة الناس تعد حماقة كبرى بالنسبة لعالم الدين، وعلى حد زعم البعض فإن عالم الدين يكون جديراً بالإحترام والتكريم، عندما يتخلص كلية من هذهِ الحماقة (معاشرة الناس) وإلا فإن عالم الدين المعني بالسياسة أو المدبر والذكي هو ذو أهداف ومطامع مشوهة ـ في نظر أصحاب هذا الزعم ـ وأمثال هذا الزعم كان رائجاً في الحوزات الدينية ووفق مقياسها، فمن كان منحرفاً كان أشد تديناً، وكان تعلم اللغات الأجنبية يعد كفراً ودراسة الفلسفة والعرفان تعد معصية وشركاً، في مدرسة الفيضية شرب ولدي المرحوم مصطفى وكان صغيراً ماءً بإناء في تلك المدرسة، فأريق الماء على الإناء لتطهيره! لماذا؟! لأنني كنت ادرس الفلسفة «!». (كيهان العربي العدد ١٦٠٦).

أما على الصعيد الإقليمي فلقد أخذت هذه المقولة أبعادها الإقليمية المفتوحة في الصراع، وأخذت علنيتها الحادة من خلال مجزرة الحرم المكيّ الدامية التي رفع آل سعود شعاراً لتنفيذها يتمثل بفصل الحج عن السياسة، فالواقع أن المواجهة بين الإسلام الأصيل وخصومه الكبار أو أولئك المنتمين إسماً إليه كانت منذ البداية تدور في إطار هذهِ المقولة، وكانت مواقف السعوديين قد أعطت المواجهة شكلها المباشر وسلطت الأضواء على واقع الصراع الذي كشف الإمام الخميني جوهره وأبعاده منذ بدايات حركته الجهادية. وبقي يركز على مقولة فصل الدين عن السياسة بعد الثورة في كل المناسبات فهو كان يقول في ذكرى المولد النبوي الشريف العام ١٤٠٨ هـ ما يلي:

«لقد سعت القوى الإستكبارية للإيحاء للمسلمين بعزل الدين عن السياسة، ولقد أجبروا البعض على التبليغ لهذهِ الفكرة كثيراً، حتى ظن الكثير

من الناس أن علماء الدين لا دخل لهم في السياسة، وأن كل ما عليهم هو التفرغ للعبادة. ولكن حتى السيد المسيح (ع) الذي يتصور أتباعه أنه قد جاء بمسائل معنوية فقط ـ ومنذ أن ولد قال أنه جاء بالكتاب فقد أخبر اليهود الذين أتهموا أمهُ مريم (ع) أخبرهم بأن الله قد أتاه الكتاب واوصاه بما يفعل ويقول تلك المسائل، فمثل عيسى (ع) لا يجلس في بيته ويكتفي بالدعاء وإلاّ لما تعرض للأذى أو محاولات الصلب».

مقاومة الدول الكبرى

كان الخطاب الثوري للامام «رض» في سنوات ما قبل إنتصار الثورة يقوم في ثابتة من ثوابته على عدائية الدول الغربية والتشكيك بكل مواقفها ازاء العالم الإسلامي. وتعبئة طاقات الامة الإسلامية في مواجهتها لا بإعتبارها الخصم الاوحد للاسلام في الساحة العالمية. بل باعتبارها الخصم المباشر أو الأكثر تدخلاً أو الذي أخذ على عاتقه مسؤولية الإطاحة بالعالم الإسلامي.

فالدائرة الاوسع لثابتة العدائية ازاء الغرب هي مقاومة القوى الكبرى والنظام السياسي العالمي الذي فرضته على الشعوب وعلى العالم الإسلامي بطريقة قسرية، فلم تكن بالطبع هذه القوى حيادية ازاء الإسلام بشرقيها وغربيها... انها قوى قامت نفوذياً ومعنوياً ومادياً على حطام الكيانية السياسية للمسلمين وهي بالتالي مسؤولة بدرجات متفاوتة عن المحنة التي يكابدها هؤلاء المسلمون أي بالضبط مثلما يقول الإمام الخميني «رضوان الله عليه» في نهضته الاولى ضد شاه إيران أي في ٢٠ جمادى الثانية سنة ١٣٨٤ هـ.

يقول الإمام «أمريكا أسوأ من بريطانيا وبريطانيا أسوأ من أمريكا وروسيا أسوأ من كليهما، بعضهم أسوأ وأتعس من بعضهم لكننا اليوم متورطون مع أمريكا... ليعلم الرئيس الاميركي أنه ابغض انسان على وجه الارض في نظر شعبنا لما يمارسه من ظلم بحق شعبنا الإسلامي. القرآن خصمه، وشعب إيران خصمه. لتعلم الحكومة الامريكية انها فُضحت في إيران». ان هذا الكلام قيل وكان الهدف منه هو شرح سر تركيز خطاب الإمام «رض» على الغرب والعالم الغربي، وهل ان هذا التركيز يشكل بحد ذاته نهاية لثابتة من ثوابت الخطاب المذكور، ام أن هنالك أفقاً أوسع وإطاراً أشمل تتحرك فيه تصريحات التنديد

بالغرب وزعيمته الولايات المتحدة الأمريكية؟.

إن القضية ليست قضية الغرب وحده.. إنها قضية القوى الكبرى الشرقية والغربية... ولكن لأن الخصم المباشر للعالم الإسلامي أو بتحديد أكثر لأنَّ الخصم الأقرب هو الغرب، فلقد تحول إلى ما يوحي وكأنه ثابتة من ثوابت خطاب الإمام «رض» والثورة قبل ان تصل إلى نقطة الإنتصار ولم يتغير هذا الشكل من الصورة حتى بعد الإنتصار، فلقد تورطت الولايات المتحدة الأمريكية ومن ورائها الدول الغربية في مواجهة الدولة الإسلامية اكثر مما تورط الاخرون... ولكن هذا الفارق في درجة العدائية بقي نسبياً وضئيلا وكأنه اقرب إلى تكرار الفارق في مواقف الاطراف الدولية حيال إيران قبل الثورة... ومهما يكن من أمر فأن حدث الإنتصار اذا كان قد أكد امكانية التمرد أو وجود القوة الذاتية لدى المسلمين لكي يلحقوا الهزيمة بالقوى الكبرى ويرفضوا الانضواء تحت نظامها السياسي، فأن حركة الدولة الإسلامية بلورت درساً جديداً من دروس المواجهة وهو درس امكانية أن تبقى الثورة صامدة رغم المؤامرات الدولية عليها وامكانية مواصلتها للنهج التمردي على تلك القوى الكبرى...

ففي السنوات الاولى بعد إنتصار الثورة كان لا زال هنالك في الساحة السياسية القومية والعلمانية من يشكك في إمكانية ان تبقى الثورة خارجة فعلاً على ارادة القوى الكبرى... وكان هذا البعض يرى بأن الثورة ستعجز بعد سنة أو سنتين وستقع في أحضان الغرب أو الشرق من جديد وسيكيف الخطاب السياسي والثوري لها مع ذلك التطور... كان الرهان داخل وخارج الساحة الإسلامية والعربية مقصوراً على ذلك، ولكن بعد ان مضى على الثورة السنوات الأربع أو الخمس الأولى من عمرها لم يتحقق في العقل السياسي العربي والدولي إلاّ حقيقة القدرة على البقاء بعيداً عن إرادة النظام السياسي العالمي... وبات الجميع يعترف ويقرّ بأن الثورة لم تقع في فجوات أو فواصل بين الخطاب الثوري والممارسة السياسية ـ الميدانية.

ففي نص من نصوص هذا الخطاب جاء بتاريخ ١٩٨٠/٣/٢١ م يمكن أن نقرأ ما يلي:

«ان واجبنا هو أن نقف في وجه الدول العظمى ولدينا القدرة على الوقوف بشرط أن يتخلى مثقفونا عن الانبهار بثقافة الشرق والغرب، وان يتبعوا صراط الإسلام المستقيم ويلحقوا بركب أمتنا، اننا معادون للشيوعية بنفس الدرجة التي نعادي بها الإستعمار الغربي وعلى رأسه امريكا، اننا الآن في صراع شديد مع الصهيونية واسرائيل».

وفي نص آخر قاله الإمام «رض» بتاريخ ١١ تموز ١٩٧٩ م جاء ما يلي:

«علينا أن نصنع من إيران بلداً مستقلاً سياسياً وعسكرياً وثقافياً واقتصادياً ومتحرراً من الاتكاء على امريكا والاتحاد السوفيتي وبريطانيا هذه القوى الدولية الطامعة... وعلينا ان نعلن هويتنا الأصيلة للعالم.. ومع الأسف أن (المثقفين) لا يستطيعون ان يتحرروا من تبعيتهم للشرق والغرب... ونأمل ان يعود هؤلاء الموتورون على الأمة إلى رشدهم في ظل التغيير الثقافي الأسلامي القائم، وأن يستعيدوا اصالتهم...».

ومنذ العام ١٩٧٩ م وحتى العام ١٩٨٨ م تواصل خطاب الإمام «رض» بنفس القوة وبما يُكرس ثابتة مقاومة الدول الكبرى العدوانية مجتمعة فهو يقول في بيان تاريخي هام بعد مرور عام واحد على مجزرة مكة ١٤٠٧ هـ يقول:

«ان الواجب الأساسي لنا ولثورتنا الإسلامية هو ان نهتف في ارجاء المعمورة: ان يا أيها النائمون ويا أيها الغافلون استيقظوا وانظروا إلى ما حولكم فأنتم تحلون بين اوكار الذئاب انتفضوا فما الآن بوقت نوم.

ان واجبنا الأساسي ان نصرخ، أنْ ثوروا سراعاً، فليس العالم بمأمن من شر الصيادين ان امريكا وروسيا قد كمنا لكم ولن يدعاكم إلا بعد ابادتكم كاملاً».

وفي وصيته المباركة يقول الإمام في هذا المجال ما يلي:

ـ «ان مخطط نزاع البلدان المستعمرة عن هويتها وتغريبها وتشريقها هو من المخططات التي كان لها مع الأسف تأثير بالغ على البلدان وعلى بلدنا العزيز وقد بقيت نسبة كبيرة من اثارها حتى عادت هذه البلدان لاترى نفسها ولا ثقافتها وقوتها بشيءٍ وترى في القطبين القويين الغرب والشرق العنصر الأفضل وثقافتهما هي الأسمى وانهما قبلتا العالم وصوروا التبعية لأحدهما بأنها من الفرائض التي لا مناص منها وقصة هذا المخطط مؤلمة طويلة والضربات التي وجهها الينا هذا المخطط وما زال مهلكة قاصمة».

الوضوح

إن خطاب الإمام «رض» كان في ثابتة من ثوابته او في صفة من صفاته واضحاً في المفردة ويسيراً في الإستيعاب وجامعاً لكل الاعتبارات التي ترتبط بمستوى المخاطب الفكري والثقافي والسياسي.. . اي أنه خطاب يهدف إلى تغطية كل المستويات الثقافية المخاطبة، لأنه موجه إلى الشعوب اكثر من غيرها فهو بدرجة من السهولة الاستيعابية بحيث ان أي انسان حتى الأمي الذي لا يعرف القراءة والكتابة يستوعب ما يصبو اليه هذا الخطاب ويتقبل مفرداته دون عناء أو حاجة إلى موضحات خارجية ويفهم عبارته كما لو انها لا تستفزه بتعقيدات الألفاظ والمصطلحات العلمية والأجنبية التي غالباً ما تميز الخطاب الفكري والثقافي والسياسي والثوري للرموز الفكرية الأخرى الإسلامية وغير الإسلامية.. انه خطاب ينسجم في بساطة المفردة اللغوية التي يقوم عليها مع مكانة العلماء لدى الشعوب.. حيث تذوي التعقيدات والاحساسات السلبية التي غالباً ما تميز علاقة الشعوب برجال السياسة العلمانيين، وحيث تسقط كل الحواجز النفسية ويطغى المناخ التفاهمي بديلاً لها في العلاقة بين الشعوب والعلماء ورجال الدين والتبسيط او سهولة المفردة اللغوية التي تُميز الخِطاب لغوياً لدى الإمام «رض» لا تعني شيئاً سوى انها فن خطابي يصل إلى درجة الامتياز الخاص والخاص جداً، أي ما يسمى ب «السهل الممتنع» الذي يمكن استيعاب محتواه ومقاصده بسهولة لكن ليس بالامكان العمل به كطريقة خطابية او كمذهب خطابي.. إذ هو يحتاج إلى أرضية تكوينية فكرية وثقافية خاصة وشروط وعي خاصة أيضاً.

ومهما يكن من امر فإن اهل اللغة يدركون أسرار ذلك اكثر مما ندركه

نحن. . ولكن يبقى الإمام «رض» وبالإضافة إلى كل ما تقدم حريصاً على إبقاء خطابه الثوري ممثلاً لأصالة الفكرة الإسلامية التي يؤمن بها ونابذاً لكل أشكال تطعيم الخطاب بالمصطلحات الأجنبية التي تحمل معها ظلاً ثقافياً تبعياً، والتي تضفي طابعاً تعقيدياً على النص الخطابي إلى الدرجة التي يكون من الصعب معها جداً استيعاب معناه اللغوي أو يبقى هذا الخطاب حكراً في إستيعابه على طبقة معينة إن لم يكن على نخبة ثقافية محددة، وهذا ما يفقد الخطاب مساحة كبرى من الوسط الجماهيري ويعدم فاعليته فيه، وبالتالي فانه يقلص من دائرة اهدافه الثورية أو إنه يسقط مادة هذه الأهداف البشرية.

إذاً تجاوز خطاب الإمام «رض» كل الإشكالات التي يمكن ان تحوله إلى لون من الوان الخطاب الجامد الدائرة في حدود نخبة معينة ليست هي مادة الثورة، حتى ولو كانت هي الصانع النظري لما يمكن ان يساهم في استقلال الأمة أو تبعيتها، واختار الإمام «رض» الطريقة التي تلبي الحاجة إلى تحريك الشعوب ولولا هذه الطريقة لما كان للثورة الإسلامية أن تكون فهذه الثورة مدينة في جزء منها إلى خطاب الإمام الثوري ودرجة وضوحه التي استطاعت ان تحرك القوة الكامنة في الشعب الإيراني، واستطاعت أن تطرح بسهولة كل ما يدور من أشكال ظلم وإستغلال داخلي وحالات صراع لا يمكن لذهنية الشارع أن تحيط بأسرارها ما لم تخاطب بمفردة واضحة. . ولولا هذا الوضوح الخطابي لما استطاعت الثورة أن تسجل هذا التأثير الذي سجلته حتى الآن في العالم الإسلامي والعالم بأسره، فخطاب الإمام لا يحتاج إلى واسطة أو أداة تفسيرية ولذا فأن فعله في الوسط الشعبي كان مباشراً وسريعاً وكبيراً ثم إن وضوح هذا الخطاب تحول إلى ضمانة من ضمانات الثورة كمشروع عالمي يطمح إلى إنقاذ المظلومين من أسر القوى الطاغوتية وتحرير الإنسانية المعذبة وتوحيدها تحت لواء الإسلام. كما ان الوضوح الطاغي على أي نص من نصوص خطاب الإمام «رض» سواء تمثل بالوصية أو الأحاديث الأخرى اسقط الحاجة الإستشهادية بهذا النص هنا.

الشموليّة

من الواضح أن خطاب الثورة الإسلامية قبل وبعد الإنتصار كان في ثابتة من ثوابته يجسد البعد الاهتمامي الشمولي للعالم الإسلامي.. وهذا الخطاب الذي يلخصه الإمام «رض» كان يواجه النظام «الشاهنشاهي» انطلاقاً من مواقفه حيال قضايا العالم الإسلامي ذات الطابع التآمري او انه يعلن الموقف ويردده مباشرة بما يعطيه بعداً شمولياً، وبعد الإنتصار لم تشغل احداث الثورة المتتالية الإمام «رض» عن قضايا العالم الإسلامي الاخرى، ولم تدفع به إلى الانكفاء نحو الساحة الإيرانية فقط واهمال ما يدور في هذا العالم، فبقدر ما كان الخطاب الثوري للإمام «رض» يعطيه حقه من خلال ما أسميناه بثابتة شمولية الاهتمام به وما يدور فيه من حركة دولية معادية، فأن هذا الخطاب واصل اهتمامه بالساحة الايرانية وانطلق يخطط او ينظر لها من خلال تجربة الإنتصار، أو عبر مصيرها كأحد عناصر أرضية التخطيط والتنظير المذكور.

لاحظ الإمام «رض» أولاً كيف يتعاطى في قضايا المواجهة من خلال كلامه الذي جاء في اول مؤتمر عقد بطهران لدراسة القضية الفلسطينية في رمضان من عام ١٣٩٩ هـ ، يقول الإمام «رض»: «إن مشكلة المسلمين، ليست مشكلة القدس وحدها، إذ هي واحدة من مشاكل المسلمين، أليست أفغانستان من مشاكل المسلمين؟! أليست باكستان من مشاكل المسلمين؟! أليست تركيا من مشاكل المسلمين؟! ينبغي أن نفكر بدقة في جذور هذه المشاكل التي تعم المسلمين ونجد لها الحلول اللازمة».

هكذا إذاً يجب أن نعي موقع أية معالجة لحدث يرتبط بالقضية الفلسطينية أو الأفغانية من خلال خطاب الإمام «رض»... فهذه المعالجة لا يمكن أن

تدرج في محور المشكلة الفلسطينية أو الأفغانية مثلاً كثابتة من ثوابت الخطاب المذكور على رغم أهمية وخطورة المشكلتين وعلى رغم تكرار التعاطي بهما بصورة متعددة في خطاب الإمام «رض» الثوري وبالأخص المشكلة الأولى. . . إن هذه المعالجة تنتمي إلى ثابتة أوسع وأشمل هي ثابتة الشمولية في تفكير الإمام «رض» المجسد لشمولية وعالمية الإسلام. . . إن الإمام «رض» راح ينظر من خلال خطابه إلى ما يحول هذه الشمولية إلى مشروع ثوري متكامل يتحرك خارج إيران على إيقاع الأحداث في داخلها.

ومن هنا فهو يقول بتاريخ ٢٦/٨/ ١٣٦٠ هـ ـ ش المصادف ١٧/ ١٠/ ١٩٨١ م يقول: «اننا لا يمكننا فصل أنفسنا عن سائر المسلمين، فكل ما قدمناه من شهداء ومعوقين ومشردين كان من أجل الإسلام. ونحن لا نعتبر مصير الشعب العربي ومصائر الشعوب الاخرى منفصلة عن مصيرنا ومقدراتنا.

فالإسلام هو لكل مكان ونحن من ضمن المسلمين، وعلينا أن نحافظ على الإسلام أينما كان. ويتعين علينا أن نقوم بواجبنا تجاه الدول الإسلامية التي تفكر حكوماتها اليوم في إقرار هذا المشروع المضر جداً وتريد فرضه على الجماهير. إن علينا أن نذكر الشعوب المسلمة والدول الإسلامية بهذا الضرر وإنني أُحذر الجميع مما في هذا المشروع (مشروع فهد) من خطر على الإسلام. . . ».

كما أن الإمام «رض» راح يحدد مفردات هذا التنظير ويضع أطره وقواعده. والملاحظ أنه حتى في المفردة الواحدة تجد أنها توزعت على مجموعة من المحاور حتى لو كان لها عنوان محوري واحد.

فيوم القدس العالمي كمفردة تنظيرية تتحرك في خطاب الإمام داخل ثابتة الشمولية وبعنوان القضية الفلسطينية.

هذا اليوم لا يريد الإمام «رض» أن يجعله مقفولاً أو مغلقاً على القضية الفلسطينية. لا. إن الإمام «رض» يجد معنى الأهتمام الشمولي حتى داخل المفردة الواحدة التي تشكل نقطة من نقاط البناء التنظيري لأساليب

ونظريات المواجهة مع القوى الكبرى وعملائها الأقليميين. ولنقف معاً على نموذج لهذا المعنى الشمولي داخل المفردة الواحدة من خلال النص التالي «يوم القدس ليس يوم فلسطين فحسب... إنه يوم الإسلام... يوم يجب أن ترفرف فيه راية الجمهورية الإسلامية في جميع الأقطار يوم نعلن فيه للقوى العظمى أنها لن تتمكن من التقدم في البلاد الإسلامية. إني أعتبر يوم القدس يوم الإسلام ويوم الرسول الأكرم(ص) ويوماً لا بد لنا فيه من تجهيز القوى وإخراج المسلمين من حالة الانزواء ومواجهة الأجانب بكامل قوتهم في أقطارنا، ولا يجوز للمسلمين أن يسمحوا لغيرهم بالتدخل في شؤون بلادهم».

إن هذا الكلام الذي قاله الإمام «رض» في ٢٢ رمضان ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩/٨/٩ م لا يحتاج إلى تعليق أو تسليط للأضواء على معناه الشمولي على صعيد الجهد التنظيري الذي يبذله الإمام «رض» في سياقه، حتى من خلال المفردة الواحدة. وينطبق هذا المعنى على مفردة البراءة من المشركين. حيث يقول الإمام «رض» في إطارها: «إن صرخة براءتنا من المشركين والكفار والظالمين، وصرخة امة ضاقت ذرعاً باعتداءات الشرق والغرب وعلى رأسهم امريكا وأذنابها.. إن صرخة براءتنا هي صرخة الشعب الأفغاني المظلوم. إن صرخة براءتنا هي صرخة الشعوب المسلمة في افريقيا.. إن صرخة براءتنا هي صرخة الشعبين اللبناني والفلسطيني إن صرخة براءتنا هي صرخة أمة يتربص الكفر والإستكبار بها ويتحين الفرصة لقتلها ويصوب بنباله وحرابه نحو القرآن والعترة...». (خطاب الإمام «رض» للحجاج ١٤٠٨ هـ). هكذا إذاً من داخل هذه المفردة يحاول الإمام «رض» أن يجد المشكلة الإسلامية بكل أبعادها ويغطي كل نقاطها الجغرافية فيذهب بها إلى لبنان وفلسطين وأفغانستان وأفريقيا... وهكذا تتضح الصورة الشمولية لخطاب الإمام «رض» في إطار المفردة المحدودة وفي البناء التنظيري الذي تشكل هذه المفردات وحداته العامة.

يوم القدس كان واضحاً من خلال مواقعه في خطاب الإمام في أبعاده الشمولية، ومسيرة البراءة من المشركين هي الأخرى كانت واضحة، وأي نصّ

من نصوص الوحدة الإسلامية التي يتعاطاها يجسد المعنى الشمولي المذكور. . . ولا فرق في ذلك بين الخطاب الثوري قبل انتصار الثورة الإسلامية أو بعد هذا الانتصار، وما يمكن أن يقال بعد في هذا المجال هو ان الثورة لم تجسد الشمولية من خلال الخطاب الثوري أو الجهد التنظيري الذي جاء في سياق هذا الخطاب فحسب بل إن الثورة حولت النظرية والتنظير إلى واقع ممارس من خلال سيرتها ومواقفها العملية ازاء العالم الإسلامي. . فدول العالم الكبرى أرادت في واحد من أهدافها أن تحصر اهتمامات الثورة في قضاياها الخاصة وأن تجّرد البعد العالمي لها عن معناه من خلال إيجاد فجوة بين خطاب الإمام الثوري وبين واقع الممارسة. . كانت الحرب التي فرضت عليها من قبل النظام الحاكم في العراق ربما تندرج في هذا الإطار الهدفي للدول الكبرى، وكانت مشاكل الداخل التي تفتعلها هذه الدول تندرج أيضا في ذلك الأطار. . وكانت هنالك جهود دعائية ضخمة تشويهية لحركة الثورة تستهدف أظهارها بالوجه القطري أو القومي. . لكن كل ذلك لم ينجح في إعاقة تحويل ثابتة الشمولية في الخطاب الثوري إلى ممارسة عملية بعد الإنتصار. . . كما ان كل ذلك دفع الإمام إلى التركيز على بعد آخر من أبعاد خطابه الشمولية وهو البعد المتمثل بشمولية الصراع بين الجبهة الإسلامية والجبهة الاستكبارية، والذي يحرص الاعداء على تصغيره عبر عناوين محددة. ولنقف على بعض نماذج هذا اللون الثالث من الوان الشمولية في خطاب الإمام «رض» يقول الإمام في حديث له أمام مجموعة من الضباط الحجاج الباكستانيين في محرم ١٤٠١ هـ، يقول: «هل تتصورون أن القضية قضية إيران والعراق وصدام؟ ان القضية قضية الإسلام وكل المستضعفين في العالم. . إنهم يريدون تفرقة المسلمين والسيطرة على العالم الإسلامي».

وفي نداء له إلى حجاج بيت الله الحرام في ١٤٠٠/١١/٢ هـ يقول: «أيها المسلمون المتضرعون إلى الله قرب بيت الله أدعوا إلى الصامدين بوجه امريكا وسائر القوى الكبرى، واعلموا اننا لسنا في حرب مع العراق، بل ان شعب العراق يساند ثورتنا الإسلامية، نحن في صراع مع امريكا، واليوم فأن يد

امريكا تجسدت في حكومة العراق وسيستمر هذا الصراع بإذن الله حتى نحقق استقلالنا الحقيقي».

وفي مجال آخر يقول الإمام في وصيته المباركة «إنكم يا أبناء الشعب المجاهد تسيرون في ظل راية تخفق في أرجاء العالمين ـ المادي والمعنوي ـ وسواء عرفتم أم لم تعرفوا فأنتم سائرون في درب هو وحده درب جميع الأنبياء (عليهم سلام الله) وهو وحده درب السعادة المطلقة ومن أجله يندفع كافة الأولياء لاحتضان الشهادة ويرون الموت الأحمر أحلى من العسل».

ويلاحظ في هذا النص من وصية الإمام الخميني بعده الشمولي في النظرة إلى الصراع القائم بواقعه الحالي وخلفياته وتاريخه، فالصراع الآني هو امتداد طبيعي لادوار جهادية مضت ولرسالات سماوية أدّت دورها، ولأنبياء قاموا بمهمتهم التبليغية لهذه الرسالات، وبالتالي فإنه امتداد لوحدة الهدف النبوي.. وحدة هدف الأنبياء «ع» على رغم الاختلاف في زمن التبليغ ووسيلته وأدواته وخصوصيات المرحلة التي يحصل فيها، ولا نعتقد إن تأكيد الإمام «رض» هنا على هذا البعد الشمولي في رؤية الصراع وإفرازه في الحرص على توحيد الجبهة الانسانية المظلومة ضد طغاة الأرض وناهبي شعوبها.. إنّ هذا التأكيد لم يكن عفوياً.. إنما هو صورة من صور التعبير عن ثقافة الإمام «رض» الوحدوية والتوحيدية وموقع هذه الثقافة في شخصية أية قيادة إسلامية.. اذ لا يمكن لهذه القيادة ان تؤدي دورها الرسالي دون ان تجد الحرص الإسلامي ونصوصه الفكرية في توحيد المظلومين إلى ممارسة معاشة ومكررة من خلال السلوك الحياتي، ودون أن تحوّل هذا الهدف التوحيدي إلى عنصر سلوكي أساسي يعبّر عنه مباشرة أو يأتي في «الظل» لأي حديث من أحاديث القيادة الإسلامية..

إذاً ليس الصراع هو بين حالة «متطرفة» وحالة دولية «عادية» في تعاطيها مع الأمور.. إنما «التطرف» هنا لا يعبر إلاّ عن اسم أو حجة أو ذريعة في سياق جهود الأطراف العدّوة وهي تمارس إجراءات ومستلزمات التحشيد والتعبئة ضد تيار المظلومين. حجة تنسجم مع الوضع القائم وتؤدي نفس دور

الحجج التاريخية التي رفعت بوجه الأنبياء «عليهم السلام». وليس هنالك صراع في التاريخ أو الحاضر دون حجج أو ذرائع ايهامية وتمويهية. كماليس هنالك مواجهة دون اسماء وعناوين احتياطية.. والتطرف هو عنوان «عصري» ضد تيار توحيدي يغوص في اعماق التاريخ.. مع قدم الرسالات السماوية ومع قدم الأنبياء «عليهم السلام».. عنوان ضد مبادىء الأنبياء «صلوات الله عليهم» مثلما كانت مفردتا «الجنون» و «السحر» تمثل عنوانين في سياق المسيرة الإنسانية وضد الأهداف النبوية أيضاً.. هذا معنى من المعاني التي يثيرها النص المذكور من وصية الإمام ـ قدس الله نفسه الزكية ـ فهو يسلط الضوء هنا على إنتماء مسيرة الشعب الإيراني.. ومسألة الإنتماء إذا كانت واضحة لشريحة من الشعب فإن هذا الوضوح يبقى ذا نسب متفاوتة وذا درجات مختلفة.. كما إن هنالك من لا يملك رصيد الوضوح الثقافي المطلوب ومن هو بحاجة إلى توضيح هذا الإنتماء.. ومن هنا يمكن أن نفهم عبارة الإمام «رض» التي يخاطب بها الشعب الإيراني «سواء عرفتم أم لم تعرفوا فأنتم سائرون في درب هو وحده درب جميع الأنبياء».

فقد يكون الإنسان مدركاً انه داخل مسيرة الحق لكن يبقى الإدراك متفاوتاً لآفاق هذا الحق وفلسفته وجذوره التاريخية ومداخلات التحدي الذي يتعرض له من قوى الباطل.

متفاوتاً بتفاوت الوعي الثقافي والدرجة المعرفية لدى أبناء المجتمع.. فهذا المجتمع ليس حالة وعي واحدة ولا مستوى التزامياً واحداً.

من خلال ما تقدم يمكن القول:

١ ـ الإمام شمولي في خطابه، أي بمعنى أنه يتجاوز الدائرة الوطنية والقومية ويسبح في قلب الدائرة الإسلامية.

٢ ـ خطاب الإمام «رض» شمولي، أي بمعنى أنه يجسد الشمولية حتى في دائرة المفردة الصغيرة الواحدة التي تشكل جزءاً محدوداً من البناء التنظيري العام.

٣ ـ اللون الثالث من الوان الشمولية يتجسد في خطاب الإمام «رض» من خلال شمولية الصراع بين الجبهة الإسلامية من جهة والجبهة الدولية المعادية من جهة أخرى.

٤ ـ اما اللون الرابع.. فهو لون يمتد مع تاريخ هذا الصراع.. وتاريخ المعاناة التي يختزنها.. وربط يضفي مسحة من الشمولية في إدراك أبعاد وخلفية الصراع القائم.

التحذير من الإسلام الرسمي

لقد بقي خطاب الإمام «رض» في واحد من مكوناتِه المهمة يقوم على التفريق بين النماذج الإسلامية الحاكمة بما يفضح أشكالها المبررة للسياسة الدولية الظالمة والمتحالفة مع هذهِ السياسة. فكثيرون هم الذين يتحدثون عن الإسلام، ويدعون احترامه وتطبيقه في شؤون حياتهم العامة، وكثيرون هم الذين يرفعون راية الدفاع عن القرآن ويروجون لطباعته وتوزيعه بأعداد كبيرة ومزينة، ولعل آل سعود هم أول من يجسّد هذا الأسلوب الإدعائي في العالم الإسلامي، واكثر من يتمسك به ويكرره منذ عقود طويلة من الزمن، إلا أن واقع الممارسة السعودية يظهر أنّ شعارات التعاطي بالإسلام لم تكن سوى لون من ألوان الخداع لشريحة ساذجة من الأمة لا تفقه الدين، ولا تحيط بالشرع الإسلامي وبواقع الرسالة التكاملي، فالاسلام ليس شعاراً يُرفع أو إدعاءً يُردد، أو إجراء منفرداً أو موقفاً منفصلاً، والاقتداء بالقرآن لا يتجسد عبر طباعته وتوزيعه على اكبر مساحة بشرية، بل الإسلام كل يدخل في الإدارة والسياسة، والإسلام جهاد وقوانين إجتماعية، والإسلام نقيض الظلم، ودعوة متواصلة لا تهدأ إلى الحق كما إن القرآن الكريم خزان الأسرار، هو دستور الأمة وكتابها التشريعي، وهاديها نحو العدل الإلهي ومنبع قوانينها وكتابها الفكري والفلسفي ومنظم كل مفردات حياتها وحركتها الإجتماعية.

وفي ضوء هذا الفهم يمكن ان تميّز دعوات المخادعة والمتاجرة بالقرآن من خلال طباعته ورفع شعاراته من الدعوات الخالصة الجادة إلى التمسك بخطه الفكري والجهادي والسياسي، فالفوارق واضحة هنا، وإذا كان بعض «العلماء» ممن يقعون ضحية فكر بعض الساسة فيعتبرون بعض خطوات التظاهر

بالإسلام أو بعض إجراءات احترامه، على أنها دلالة إيجابية يمكن أن تثمر خطوات لاحقة، فهذا الفهم في الواقع ينم عن سذاجة وبلاهة وعدم استيعاب لأحابيل الأنظمة الفاسدة والوان ممارستها الماكرة.

إذ كيف يكون النظام السعودي الذي يتحالف مع اعداء الإسلام الكبار، والذي يمزق وحدة الأمة من خلال مذهب وهابي تخريبي يُكّفر كل من لا ينتمي اليه، والذي يعطل إمكانات وطاقات الأمة البترولية والجهادية، والذي يخوض حرباً ضارية ضد أي لون من الوان مواجهة الظلم الدولي الممارس ضد العالم الإسلامي. كيف يكون مثل هذا النظام إسلامياً وقرآنياً لمجرد ان فهد بن عبد العزيز امر بطبع القرآن وتوزيعه؟.

أو لأنه مثلاً فرش المسجد الأقصى بالسجاد السعودي أو أنه قام بتلبية جزء من الحاجة الخدماتية لحجاج بيت الله الحرام في موسم الحج، فمثل هذه الإجراءات الشكلية إنما هي في الواقع شكل من اشكال الإطاحة بالإسلام والقرآن وهدمهما وتعطيلهما، كما يؤكد ذلك الإمام الخميني ـ رضوان الله عليه ـ حينما يقول في وصيته المباركة: «وقد رأينا كيف أن محمد رضا بهلوي طبع القرآن فأستغفل به البعض وكيف امتدحته فئة من رجال الدين جاهلة بالأهداف الإسلامية، ونشاهد كيف ان الملك فهد ينفق سنوياً مبالغ كبيرة من ثروات الشعب الطائلة لطبع القرآن الكريم والترويج للوهابية.. هذا المذهب المعادي للقرآن والقائم اساساً على الخرافات ويسوق الغافلين من الناس باتجاه القوى الكبرى التي تستغل الإسلام والقرآن الكريم لهدم الإسلام وتعطيل القرآن».

هذا هو ما حصل فعلاً، فالقرآن الكريم يكاد يكون معطلاً في كافة مجالات الحياة السعودية، إلاّ بإنتقاء بعض الجوانب العقابية التي تعكس منفردة صوراً منقوصة عن الجانب الجمالي لقوانين كتاب الله العزيز.. القرآن معطل في السعودية بكل مجالاته الجهادية ومجالات الحكم التي تدار بطريقة ملكية وراثية، لا علاقة لها بموازين العدل والكفاءة والتفقه وإقتراب القائد الفعلي من خلال التجربة إلى الله، فيما أن الملكية هي لعبة من لعب الطواغيت اخذها آل

سعود واعتبروها مثلهم الأعلى لأنها تلبي حاجتهم للتفرد بالسلطة السياسية وطموحهم الإستبدادي، وجعلوا التاريخ الأموي شاهداً على إسلاميتها.

ليس في مجال الحكم فقط تتجسد حالة تعطيل القرآن، بل في السياسة الوهابية الخارجية والعلاقات الدولية والتحالفات العالمية وموضوع الحج وعلى الصعيد الإجتماعي، وفي موضوع الوحدة الإسلامية التي يفرد لها القرآن آيات عديدة، بينما لا تعتبر هذه الآيات هي الأساس الذي يتم النظر في ظله للوحدة الإسلامية، بل ما قالهُ ونظر له محمد عبد الوهاب واضع المذهب الوهابي الذي كفّر كل المسلمين لأبسط الأسباب، حتى لو اعتقدوا بمبدأ الشفاعة، شفاعة الرسول (ص) وآله الاطهار، يكفّرهم ويُحِلُّ دماءهم فيما دماء الكافرين مصونة داخل السعودية وخارجها، وفي الداخل السعودي هنالك، عشرات الالاف من المستشارين ورجال المخابرات الأميركان يتحركون ويعيشون بعاداتهم وطرق حياتهم الفاسدة، دون أن يغيض هذا الفساد الحكام السعوديين دون أن يكون داعياً وفق المذهب الوهابي إلى تعميم قانون العقوبات.. القانون يأخذ مجراه التطبيقي ضد المسلمين الذين يؤمنون بالاولياء والصالحين ويرجون الشفاعة منهم يوم الحساب!! ومهما يكن من أمر فأن النظام السعودي الذي يرفع ويردد شعارات الوحدة الإسلامية والتضامن الاسلامي يمارس في الواقع أخطر دور تمزيقي لوحدة الأمة في ظل تشريعات كيفية دخيلة على الاسلام.

إن الإمام «رض» يحاول من خلال النص المذكور أن يرسم الحدود بين «الإسلام السعودي» وبين الإسلام الأصيل، ويسلط الضوء على بعض إجراءات التمويه في هذا الاطار... لكي لا تبقى هذهِ الاجراءات قادرة على التأثير في بعض اوساط الأمة التي لا تسمح لها الظروف بالقدرة على التمييز لأسباب مختلفة.

وليس الاسلام السعودي إلاّ نموذجاً للاسلام «الرسمي» الذي يقول الإمام «رض» في حديث له إلى الوفود المشاركة في مؤتمر القدس بطهران ٢٧ رمضان، ١٤٠٠هـ في صدده: «إسلام صدام مثل إسلام محمد رضا خان،

وإسلام ذلك المصري السادات مثل إسلام صدام.. إنه إسلام لا يخرج عن إطار اللفظ، يسمح لاتباعه أن يؤسسوا قواعد لمحاربة الدولة الإسلامية في إيران... يعقدون المعاهدات مع الكافر لقمع المسلمين.. وهذا هو إسلام السادات، وهذا أيضاً إسلام صدام الذي يزعم أنه مسلم ويزعم أنه مع الشعب الأيراني، ويزعم أيضاً في بعض ما قاله أنه يساند الشعب والحكومة الايرانية لكنه لا يترك يوماً يمر دون أن يفتح نيران المدافع على حدود الدولة الإسلامية... وهذا اللون من الاسلام هو الاسلام المستورد من أمريكا ومن الأتحاد السوفياتي... واذا لم نعد إلى الاسلام... إلى إسلام رسول الله، فأن مشكلتنا ستبقى دونما حل».

ويقول الإمام في كلمة له أمام أطفال شهداء العراق ولبنان و فلسطين (نداء الثورة الإسلامية، عرض لطائفة من نداءات الإمام الخميني إلى أبناء العالم الاسلامي) ـ يقول: ـ

«وأرى أمامي وجوهاً بريئة يُتمت وشردت على ايدي القوى العظمى وعملائها الظلمة... إن جميع حكام المسلمين يدعون الاسلام، وجميع حكام العالم ينادون بحقوق الإنسان، وليس هذا الأمر بجديد، فالإدعاءات كانت في صدر الاسلام كثيرة أيضاً غير أن هناك من تراجع عند العمل واختبأ، فالخوارج كانوا يدّعون الاسلام، وهكذا أفراد مثل عمرو بن العاص، واليوم نرى صداماً يرفع عقيرته بالاسلام والعروبة، وهكذا يفعل رفاقه من أمثال السادات... وما أبعد المدى بين اقوال هؤلاء وافعالهم»... ومن خلال هذه النصوص يتضح كيف كانت قضية الادعاءات المتعددة لتطبيق الاسلام تشكل ثابتة من خطاب الإمام «رض» ومجالاً لمعالجاته.

التكرار

نقف الآن على الموقف المكرر والعبارة المكررة في الثورة كخطاب قيادي مثل الإمام «رض» من خلال احاديثه وتصريحاته الصورة الاوضح والاكثر تمثيلا لها، فمن الواضح أن العبارة الثورية والنداء الثوري أو المفردة الثورية التي تحث الآخرين على التحرك والإفلات من القيود السلطوية لم تتعرض للإحباط في خطاب الإمام «رض» الذي لم يكن يتردد عن تكرارها. . . ذلك التكرار الذي يبدو للوهلة الاولى وكأنه زائد عن الحاجة أو يبدو وكأنه خيار مفروض أو ملازم لأي لغة ثورية. . . كما انه يحتاج لممارسته إلى صبر إستثنائي، لا سيما في ظل عدم الاستجابة الفورية لثورية الخطاب. . . إلاّ ان احدى عشرة سنة من عمر الثورة الإسلامية في إيران أظهرت أن لذلك التكرار أسرارا لا يفقهها إلا من يفقه أسرار القيادة، فالوعي الثوري لا يتشكل بين عشية وضحاها، فلكي يتحول هذا الوعي إلى قرار حركة تمردية فإنه يحتاج إلى وقت كبير. . . . ولكي تصل هذه الحركة إلى حالة النضج والشمولية وإلى مستوى التأثير والتهديد. . . تهديد المواقع الرسمية الانحرافية. . . سيتضاعف هذا الزمن. . . وعليه فإن أي تفكير قيادي منطقي يطمح إلى تثوير المنطقة والعالم الاسلامي لا بد أن يتحلى بالصبر والمثابرة وطول النفس والابتعاد عن منطق التسرع في جني الثمار. . . وقد يقول قائل بأن ذلك هو سنة العمل الدولي أو الحركي الطوعي أو المفروض بحكم الظروف التي يتعرض لها أي نظام أو حركة. . ونحن نقول إن الصبر والمثابرة اللذين يقعان في الاطار الدفاعي أو بالأحرى الحفاظ على النفس، يختلفان عن الصبر الثوري إذا صح التعبير. . . . الصبر على تكرار المفردة أو العبارة الثورية الحاثة للآخرين على الثورة. . . إن

عدم الاستجابة لهذه المفردة والعبارة لابد أن ينعكس على أي خطاب على شكل تراجع أو إحباط أو تأجيل للتعاطي بالعبارة الثورية على أقل تقدير. . . لكن هل أجل الإمام الخميني ـ قدس الله نفسه الزكية ـ عبارته الثورية في مقطع زمني من مقاطع خطابه الثوري. . . ؟

إن تكرار العبارة الثورية تحول إلى سمة أساسية من سمات خطاب الثورة، وثابتة من ثوابته، ويمكن القول انها الثابتة المحور أو الاساس التي يقوم عليه بناء الخطاب العام، فكل صفات وثوابت هذا الخطاب الأخرى كانت ممزوجة بالعبارة الثورية، أو بمعنى أكثر تحديدا العبارة الداعية إلى رفض النظام السياسي العالمي المفروض بقوة الحديد والنار على العالم الاسلامي. . . هكذا إذن يأخذ التكرار معناه الايجابي، أو ربما يتحول إلى سر من أسرار القيادة وشروط نجاحها. . . فكما اثبتت السنوات الماضية من عمر الثورة، أن عملية الوعي السياسي لا تتشكل عبر مفردة عاطفية واحدة، أو عبر دفعة وضوح لحقيقة الموقف العالمي المستغل للساحة الإسلامية، أو عبر تكرار محسوب لهذه الدفعة على شكل حدثي أو خطابي. . . فإن عملية الوعي تحتاج إلى وقت طويل إذ هي أشبه بالخبرة التي تأتي عبر الممارسة أو لا تأتي إلا عبر تراكم النداء الثوري، والحدث الثوري الشارح لهذا النداء، والذي يشكل مصداقاً له. . . كما أنها ـ أي عملية الوعي ـ تخضع من ناحية اخرى لشروط وظروف متفاوتة بين نقطة ونقطة اخرى من نقاط العالم الاسلامي الجغرافية، فلربما أن مستوى الوعي ودرجة الانحراف الاجتماعي وقوة القيود الارهابية المفروضة على هذه النقطة، كلها اسباب ترتبط أولاً بعملية تكوين الوعي الثوري، وترتبط ثانياً بتحويل هذا الوعي إلى قرار ثوري، ولربما أن البداية التكوينية للوعي الثوري قد تأسست مع تاريخ انتصار الثورة. . . وربما رافقت هذا التأسيس محاولات تحويل لهذا الوعي سريعة أو غير ناضجة إلى قرارات ثورية، لكن القانون الطبيعي والحركة الطبيعية للثورة بشروط خطابها «التكرارية» حددت فواصل زمنية بين وصول أي نقطة من نقاط العالم الاسلامي إلى الإنفجار المحسوب أو العفوي وبين زمن الانتصار في بهمن. . . فبين

إنفجار الجنوب اللبناني وانتصار الثورة في إيران هنالك فاصل زمني تكويني لعملية الوعي المطلوبة في لبنان. وبين الانتفاضة الفلسطينية وانتصار الثورة هنالك فاصل زمني تكويني أيضا. وهذه الفواصل كما قلنا تخضع لشروط ذاتية مرتبطة بنقطة الانفجار، وظروف طارئة تتعرض لها هذه النقطة بالاضافة إلى دور مفعول تكرار العبارة الثورية في خطاب الإمام الثوري في تشكيل أساس الوعي وعمليته التي تحتاج إلى تراكم حدثي وزمني.

ويبقى أن نقول بأن ثابتة التكرار في خطاب الإمام الثوري هي كثابتة الوضوح لا تحتاج إلى ارقام نصية. سواء من الوصية أو من أحاديث الإمام «رض» التي قيلت قبل هذه الوصية. فهي ثابتة تتجسد في أي نص خطابي وتتراكم داخل هذا النص في بعض الأحيان.

الوحدة الإسلامية

إن ثابتة الدعوة إلى الوحدة الإسلامية كانت إحدى أهم الثوابت الأساسية في خطاب الإمام (رض) الثوري الذي كان يتحرك وفق مجموعة من الثوابت، حيث انتهج الإمام (رض) في ممارسة هذه الثابتة خطين هما:

الخط الأول يتمثل بممارسة ترويج الفكر الوحدوي أو الدعوة المباشرة إلى الوحدة الإسلامية كمسألة دعا اليها الإسلام والقرآن والأنبياء والأئمة الأطهار (عليهم السلام) فالأمة لم تصل مراقي ومراتب المجد في تاريخها إلا عندما كانت موحدة في جهدها الفكري والسياسي أمام أعدائها والا عندما تجاوزت اسباب الخلاف.. كما أن الأسباب الخلافية لم تكن ذات وزن حقيقي في واقع الأمر إلاّ أن هنالك من يعمل على تضخيمها.. فلنقف على بعض النماذج من أحاديث الإمام الوحدوية. يقول الإمام «رض» لأئمة الجمعة في محافظة كيلان ومدينة رشت بتاريخ ١٧ ربيع الأول ١٤٠٢ هـ: «تعتبر الوحدة من المسائل التي اكد عليها القرآن كثيراً وكذلك من المسائل التي دعا الأئمة (عليهم السلام) إليها وبالأساس فأن الدعوة إلى الإسلام تعتبر في الحقيقة دعوة إلى الوحدة».

إن الوحدة ترتقي هنا في تفكير الإمام إلى مستوى بديهية من بديهيات عمل الدعوة إلى الإسلام، ويصل تفكير الإمام رأساً إلى مستوى الشك بكل دعوة إلى الإسلام لا تقوم على أساس وحدوي.. وفي مكان آخر، أي في خطاب له مع العشائر العربية في خوزستان بتاريخ ١٨ صفر ١٤٠١ هـ يقول الإمام «رض»: «لقد جاء الإسلام ليوحّد جميع شعوب العالم بعربهم وفرسهم وأتراكهم وليشكِّلَ منهم أمة عظيمة بأسم الأمة الإسلامية ويرسخ أركان هذه

الأمة العظيمة التي تستطيع بفضل إتحاد شعوبها وتراصِّ صفوفها أن تقف بوجه جميع المستكبرين الذين يهدفون إلى إخضاع حكومات البلدان الإسلامية لسلطتهم وفرض هيمنتهم على المراكز الإسلامية».

وفي نصّ ثالث يقول الإمام «رض» في خطاب له امام الضيوف الباكستانيين بتاريخ ٢٨ ذي الحجة ١٤٠٠ هـ يقول: «ركز العقلاء والعلماء المسلمون منذ صدر الإسلام وحتى يومنا هذا جهودهم من أجل الحفاظ على وحدة المسلمين ليكونوا يداً واحدة على من سواهم... ينبغي على كل مسلم في أية بقعة من العالم أن يتفاهم مع باقي المسلمين إلتزاماً بما أكد عليه سبحانه وتعإلى في القرآن الكريم، ودعا إليه الرسول الأكرم (ص) مراراً كذلك أوصى به أئمة المسلمين (عليهم السلام). وقد سار على نهجهم علماء الإسلام الواعون، وبذلوا جهودهم الحثيثة الهادفة إلى دعوة المسلمين للإتحاد والإخاء تحت لواء الإسلام».

إن خطاب الإمام «رض» في نصوصه المتقدمة وكل النصوص الأخرى التي تطرقت إلى موضوع الوحدة الإسلامية لا يحتاج إلى قراءة أو بالأحرى إلى جهد كبير لهذه القراءة، فنصوص الإمام «رض» واضحة في كل ما تتحرك من أجله من أهداف وحدوية أو تحويل تحقيق هذه الأهداف إلى همٍّ أو واجب على كل انسان مسلم. وجاءت الثورة لتتحول في درس من دروس المواجهة التي تخوضها بعنوان وحدوي إلى مصداق حي لهذا الفكر الوحدوي ومصداق لما جاء في خطاب الإمام «رض» من مفاهيم وحدوية أو بمعنى أدق تجسيد لثابتة من ثوابت هذا الخطاب التي يمكن القول أنها تكررت في كل نداءات الإمام «رض» إلى حجاج بيت الله الحرام. فالثورة قطعت في داخل إيران شوطاً كبيراً على طريق الوحدة كما انها نظرت من خلال اكثر من مشروع وضعت أساسه لهذه الوحدة وطرحت في أكثر من مناسبة أسساً لقيامها..

كما أن الإمام الخميني ـ قدس الله نفسه الزكية ـ ركز في وصيته المباركة على هذا الأساس الوحدوي.. لقد كان هنالك بعد للوحدة في كل حركة للثورة، وفي كل مفردة من مفرداتها التنظيرية.. وكان هنالك اسبوع خاص

لهذه الوحدة ومبادرات متواصلة في حياة الثورة تعطي دفعاً وحيوية للعمل الوحدوي بما يترجم ثابتة الوحدة في الخطاب الثوري، ويترجم البعد العالمي للمشروع الإسلامي الذي لا يمكن أن تنهض به جماعة من المسلمين وحدها مهما كان عددها. . . أن هذا البعد يحتاج في تحقيقه إلى أرضية حركة وتفكير وإنطلاق بالحجم السكاني والجغرافي والتأثيري لكل العالم الإسلامي وقواه البشرية وإمكاناته المادية. . .

أما الشكل الثاني من أشكال ثابتة الوحدة في خطاب الإمام ـ رضوان الله عليه ـ فهو الشكل الذي يقوم على إستيعاب أولي لمخطط التجزئة الدولي المعادي للعالم الاسلامي وطروحات هذا المخطط وادواته ورموزه ومن ثم مقاومته مقاومة ضارية. . . فالوحدة كما هي في خطاب الإمام أو في فهمه للواقع الإسلامي ليست دعوة فقط كما مر بنا سابقاً، كما إنها ليست تنظيراً فحسب. . انما هي أيضاً قضاء على جهد تخريبي دولي للموقف الاسلامي الموحد، والكيان السياسي الاسلامي الموحد. . . وإذا كانت الطروحات القومية الوطنية والطائفية هي البدائل أو الطروح التي تحركت عليها الخطة الدولية لتفتيت العالم الاسلامي، والقضاء على وحدته السياسية وغير السياسية. . . فأين وكيف كان واقع المعالجة أو التعاطي مع هذه الطروح في خطاب الإمام «رض» الثوري أو في دائرة ثابتة الوحدة فيه بالتحديد؟.

على صعيد الطرح القومي يقول الإمام «رض» في نداء له موجه إلى حجاج بيت الله الحرام في ٢ ذي القعدة ١٤٠٠ هـ يقول: «من المسائل التي خطط لها المستعمرون وعمل على تنفيذها المأجورون لإثارة الخلافات بين المسلمين، المسألة القومية التي جندت حكومة العراق نفسها منذ سنين لترويجها. . . وقد إنتهجت بعض الفئات هذا الخط القومي أيضاً. فجعلت المسلمين مقابل بعضهم بل وجرتهم إلى المعاداة أيضاً، غافلة أن موضوع حب الوطن وأهل الوطن وصيانة حدوده وثغوره لا يقبل الشك أو التردد، وهو غير مسألة اثارة النعرات القومية الهادفة إلى خلق العداوات والبغضاء بين الشعوب الإسلامية، فهذه المسألة عارضها الاسلام والقرآن الكريم والنبي الأعظم

(ص)، ان النعرات القومية التي تثير العداء بين المسلمين والشقاق في صفوف المؤمنين تعارض الاسلام وتهدد مصالح المسلمين، وهي من مكائد الأجانب الذين يزعمون الاسلام وانتشاره».

إن هذا النص يعكس المدى الاستيعابي لدور القومية كطرح لدى الإمام «رض» ويظهر حرصه على تعميم هذا المدى من خلال خطابه الثوري وتسليط الأضواء على دور الطرح القومي في خطة التجزئة التي أعدتها الدول الكبرى للمنطقة ورموز هذا الطرح في ممارساتها وارتباطاتها بالدوائر الدولية التي ناصبت الاسلام العداء... فخطاب الإمام «رض» يرفض بلا شك أي حل ترقيعي أو وسطي للتعاطي مع هذه القومية، ويعتبرها صيغة من صيغ التجزئة التي صدّرها للساحة الإسلامية الفكر الغربي، والاسلام يرفض أن يكون هنالك أي وجود للقومية في إدارة الحياة الانسانية.. وما يخص الطائفية فهي أخطر كطرح من طروح التجزئة من القومية في فكر الإمام وفي خطابه الثوري، فهو يقول في بيان من بياناته إلى حجاج بيت الله الحرام بتاريخ ٢/ ١١/ ١٤٠٠ هـ يقول رضوان الله عليه ما يلي:

«هناك ما هو أخطر من النعرات القومية وأسوأ منها، وهو خلق الخلافات بين أهل السنة والشيعة ونشر الأكاذيب المثيرة للفتن والعداء بين الأخوة المسلمين في إطار الثورة الإسلامية لا يوجد ـ ولله الحمد ـ أي اختلاف بين الطائفتين. فالجميع يعيشون معاً متآخين متحابين، أهل السنة المنتشرون بكثرة في إيران والقاطنون مع العدد الكبير من علمائهم ومشايخهم في أطراف البلاد واكنافها، متآخون معنا ونحن متآخون ومتساوون معهم وهم يعارضون تلك النغمات المنافقة التي يعزفها بعض الجناة المرتبطون بالصهيونية وأميركا».

ومن نداء للإمام «رض» بتاريخ ٢١ تموز ١٩٨٠ يقول: «إن طرح مسألة تقسيم المسلمين إلى سني وشيعي وحنفي وحنبلي وإخباري لا معنى لها أساساً... إنّ المجتمع يريد أفراده جميعاً خدمة الإسلام والعيش تحت ظلاله غاية الأمر أن الحنفي يعمل بفتاوي علمائه وهكذا الشافعي وثمة مجموعة أخرى هي الشيعة تعمل بفتاوي الإمام الصادق، فهذا لا يبرر وجود الاختلافات

لا ينبغي أن نختلف مع بعضنا أو أن يكون بيننا تناقض».

إن التعدد في الرأي الفقهي طبيعي إذاً في فكر الإمام «رض» ويجب أن لا تتحول هذه التعددية إلى مجال يتغذى عليه الفكر التجزيئي المعادي للأمة.

فلعل من تابع خطابات الإمام الخميني الراحل ـ رضوان الله عليه ـ كان يشخص بسهولة أهمية محور الوحدة الإسلامية في تفكيره وهمومه وطموحاته، ولعلها الطموحات العاكسة للحقيقة القيادية التي كانت تجسدها قيادته، وليست تلك التي تطرح لتشكل شعاراً إستهلاكياً، يرفع وقت الحاجة، ويحرك وقت الضرورة ويوضع جانباً في لحظة الممارسة السياسية المضادة لمفهوم الوحدة.. لا، كانت الوحدة تشكل هدفاً سامياً بالنسبة للإمام «رض»... لأنها هدفٌ سامٍ بالنسبة للاسلام.. لأنها تشكل هدفاً لكتاب الله، وتشكل مفردة مجسدة لمعناه التوحيدي ليس بين المسلمين فقط بل الوحدة بين حفاة بني البشر ومظلوميهم ومضطهديهم ومحبي العدالة الإجتماعية في الأرض... هكذا هي الوحدة في القرآن، وبهذه الصورة التي يراها الإمام «رض» من خلال قوله في وصيته المباركة الشريفة: «نحن نفتخر ويفخر شعبنا المتمسك بالإسلام والقرآن بأننا من أتباع مذهب يهدف إلى إنقاذ القرآن من المقابر، هذا القرآن الذي تدعو حقائقه إلى الوحدة بين المسلمين بل وعموم بني الانسان وتعتبرها أنجع علاج لتنقذ الانسان من القيود المكبلة لرجليه ويديه وقلبه وعقله، والسائقة له إلى الفناء والعدم والرق والعبودية للطواغيت».

ومن خلال هذا النص يريد الإمام «رض» أن يقول: ـ

أولاً: إن الوحدة هدف قرآني كبير، ولا يجوز بأي حال من الأحوال أن يدّعي أحد التزامه بالقرآن الكريم، فيما هو لايسعى جاداً نحو توحيد الشارع الإسلامي وتوحيد الإنسانية المظلومة لمقارعة الظلم والإضطهاد والأستغلال.

ثانياً: يضمِّن الإمام «رض» في سياق هذا النص جملة من المعاني التي بإمكانها أن تنتج معاني أخرى، فالربط بين أنقاذ القرآن من المقابر وبين حقائقه التي تدعو إلى الوحدة، لم يكن ربطاً عفوياً... إنما هو معبر عن أسس الوحدة

المطلوبة، وماهية الوحدة القرآنية... أنها ماهية مقاومة للظلم ورافضة لحالات التلفيق والوفاق المزيف مع الطواغيت.. ماهية اساسها مفهوم الجهاد الذي يمثل محور الحركة لكل رسالات الأنبياء من أجل الوصول إلى أهدافهم السامية.

ثالثاً: يطرح الإمام «رض» في هذا الإطار القرآن كداعية للوحدة وكأساس لها، حيث بقيت مسألة أساس الوحدة تشكل محوراً نقاشياً في الدائرة الفكرية والثقافية الإسلامية، وفي دائرة السعي نحو صيغ هذه الوحدة العملية. في حين أن هذا الأساس وضعه الرسول الأكرم (ص) في لحظات وداعه للحياة من خلال حديث الثقلين: «كتاب الله وعترتي أهل بيتي».

رابعاً: يتأكد طرح الإمام «رض» في التأكيد على القرآن، كمحور توحيدي من خلال قوله أيضاً: «وبلغ الإنحراف درجة أن الحكومات الجائرة والخبثاء من فقهاء البلاط وهم أشد شراً من الطغاة ـ اتخذوا من القرآن وسيلة للظلم وترويج الفساد وتسويغ أعمال الظَّلَمة والمعاندين لإرادة الحق تعالى. وواأسفاه أن القرآن وهو كتاب الهداية لم يعد له دور بسبب الاعداء المتآمرين والجهلة من الأصدقاء. كان الحال كذلك ومازال فاصبح الكتاب الذي ينبغي أن يكون محوراً لتوحيد المسلمين والعالمين ودستوراً لحياتهم أصبح وسيلة للتفرقة وإثارة الخلاف أو عُطِلّ دوره كلياً». «الوصية».

وفي هذا المجال يقول الإمام «رض» في حديث لعشائر خوزستان في ١٨ صفر ١٤٠١ هـ: «إن ما تتطلع اليه الجمهورية الإسلامية هو تطبيق ما جاء به القرآن الكريم وعلى لسان الرسول الأعظم محمد (ص).. وما نريد ان نقوله للشعوب هو: إن الاسلام دين الوحدة والتآخي والمساواة ولا فضل لفئةٍ على فئة أخرى إلاّ بالتقوى والعمل بأحكام الاسلام ونصوصه».

وفي حديث له في عيد الأضحى ـ ١٤٠٠ هـ يقول الإمام «رض»:

«لماذا لا يلتزم المسلمون وحكوماتهم بالاحاديث النبوية الكريمة التي جاء فيها: (المسلمون يد واحدة على من سواهم) لماذا لا يوجد بينهم الا

الخلاف المستمر؟) ومن خلال هذهِ النصوص يتضح تصور الإمام «رض» عن الوحدة وتنظيره لها فهي وحدة يجب أن تقوم على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

خامساً: وأخيراً تبقى الوحدة خياراً ملازماً للسعي لتحقيق طموحات الأمة في صراعها الذي تخوضه مع أعدائها الدوليين، إذ دون هذه الوحدة سوف لن تتحقق هذه الطموحات، ولعل نظرة إلى أحداث التاريخ، تؤكد هذه الحقيقة، فعندما كانت الأُمة موحدة في كيانها، كانت كل محاولات الأعداء للإطاحة بهذا الكيان تتهشم على صخرته الصلداء، أما عندما بدأت المظاهر التوحيدية والتعاضدية للأمة تنهار، إنهارت كل الآمال والطموحات معها. وأصبح بإمكان الغرب الكافر أن يفتش في وسط الأمة عمن يرفع شعار التضامن الإسلامي شكلاً، ويمارس الطائفية بأقسى وأبشع اشكالها مضموناً، يقول الإمام «رض» في هذا الإطار وفي حديث له إلى المشاركين في مؤتمر القدس ٢٧، رمضان ١٤٠٠ هـ يقول «حين تتفرق أمة إلى طائفتين، وعشر طوائف، ومائة طائفة، يعارض بعضها الآخر، وتحكم فيها حكومة ليست منهم، فلا تتوقع مثل هذهِ الأمة النصر... لا بد من العودة إلى تعاليم الإسلام التي أكدت على أن المؤمنين أخوة وامرت بالإعتصام بحبل الله وبعدم التفرق وترك التنازع، ولو استجاب المسلمون لهذهِ الدعوة الإلهية لتخلصوا من القوى الكبرى ومن الحكومات الفاسدة».

لقد أصبح بإمكان أعداء الأمة أن يوجدوا مذاهب جديدة ذات فلسفة طائفية وتفريقية، ولعل المذهب الوهابي هو تجسيد لذلك ومصداق له... المصداق الذي لازال يكلف الأمة الكثير من الالآم، وبالإضافة إلى آلامه التاريخية ومذابحه التي ارتكبها باسم التوحيد.... فهو بالإضافة إلى فلسفته تلك القائمة من الفها حتى يائها على مكافحة «البدع والخرافات» فأنه قائم على التكفير ـ تكفير الآخرين ـ من كل المذاهب الإسلامية الأخرى ـ واهدار دماء المسلمين... انه مذهب لا يقوم على أساس «الدفاع عن الذات» انما هو يؤمن

بالإبادة لكل من لا ينضوي تحت لوائه، ويؤمن بشطب الآخرين ولو بالقوة، ومهما كان الثمن قاسياً.

واليوم وحيث تبدو الحاجة ماسة لوحدة المسلمين لا يمكن لأحد أن يغض النظر عن الأسباب الثابتة والطارئة التي تؤدي إلى تفريق كلمة الأمة الإسلامية، فمثلما أن القرآن الكريم هو محور توحيدي، ومثلما أن الضرورة - ضرورة السعي الجاد نحو الوحدة - تحتم محاكمة تراث المذاهب الإسلامية، أو لنقل تقيمها على أساس إقترابها وإبتعادها من مفاهيم القرآن، مثلما يجب رصد الأسباب الخارجية والداخلية التي تكرس من حالة الإختلاف. والوهابية كمذهب هي أحد أخطر هذه الأسباب التي يتداخل فيها الداخل بالخارج، وتؤدي بالنهاية إلى تعطيل أي جهد توحيدي للأمة مالم تعالج من خلال موقف فكري جماعي يتصدى لها، ولكل القضايا التي تستحق التصدي في حياة الأمة، فالوهابية: «هذا المذهب المعادي للقرآن والقائم أساساً على الخرافات ويسوق الغافلين من الناس بإتجاه القوى الكبرى التي تستغل الإسلام والقرآن الكريم لهدم الإسلام وتعطيل القرآن» كما يقول الإمام الراحل في وصيته.

الدافع الإلهي

إن الثابتة الأخرى في خطاب الإمام كانت ترتبط بالدافع الإلهي لكل حركة ثورية وكل عمل ثوري وحيث يعود لهذا الدافع الفضل الأول والأخير في كل نتيجة أو إنتصار أو ثمرة تجنيها الحركة الثورية وحيث يبرز على الدوام الظل الفكري أو الوعاء الفكري الذي تتحرك في داخله الحركة الثورية من خلال التركيز المتواصل على الدافع الإلهي، ولا يكاد يخلو نص من نصوص الإمام «رض» من ذلك التركيز. أن ما يجب ان يقال هنا هو ان الإمام «رض» عندما وضع هذا الدافع كمحور لحركة حقق انجازات هائلة لا يمكن ان تُحسب في ظل المعادلات التقليدية في القوة والامكانات المادية.. إنما هي كانت نتيجة لتوفيق وتسديد إلهي واضح.

ولذا فأن الثورة تحولت إلى مصداق من مصاديق الآية الكريمة ﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾ وتحولت إلى مصداق من خلال حركتها الثورية لنتائج هذهِ الحركة والانتصارات التي سجلتها للثقة الإيمانية العالية التي كان يبديها الخطاب الثوري للامام «رض»... فهذا الخطاب يقوم على الدوام بالتذكير بأهداف الحركة الشعبية أو جعل هذه الحركة مصانة بأسوار الدافع الإلهي.

يقول الإمام «رض» في خطابٍ إلى أعضاء الهيئات المشاركة في المؤتمر العالمي للنظر في تدخلات امريكا في إيران وذلك في اليوم العشرين من شهر رجب لسنة ١٤٠٠ هـ يقول:

«هل سوى يد غيبية تعمل؟! الا ينتبهون من سباتهم أولئك الذين لا

يهتمون بالمعنويات؟ ألا يؤمنون بهذا الغيب؟ هلا ينتبهون من الذي أسقط «هليكوبترات» كارتر التي أرادت المجيء إلى إيران؟! نحن أسقطناها؟! الحاصب أسقطها كان الحاصب مأموراً من الله والريح مأمورة من قبل الله، إن الريح أبادت قوم عاد، فالريح مأمورة من قبل الله، والرمال كلها مأمورة ليجربوا ثانية، ولكن علينا الاّ يأخذنا الغرور، وأنا أقول لشعب إيران: لا تغتروا فالقوة جميعاً هي قوة الله وعليكم بالإتكال عليه، ذوبوا في تلك القوة العظمى، فما دام الشعب الإيراني قد تقدم بتلك القوة الأولى، القوة المعنوية قد تقدم بـ «الله اكبر» ولازال يحتفظ بهذا فأنتم مؤمنون بتأمين إلهي. لو انتصرت هذه الأيدي التي تتلاعب الآن وتريد ان تجعلكم يائسين وتنحرف بكم من الحالة التي كنتم عليها في أبان الثورة فإن ذلك اليوم يكون يوم يرفع الله رعايته عنكم لا سمح الله، وتسقطون بتلك الحالة. فحافظوا على تلك الحالة التي كانت لكم في أول الحركة».

وفي نفس المناسبة المذكورة كان الإمام «رض» يقول: «إننا نتكل على الله ونؤمن أن لهذا الكون مدبرا. وإن الذين لم ينتبهوا إلى هذهِ الحقيقة سينتهون الآن، إذ كيف استطاع شعب أعزل بصرخات (الله اكبر) لاغير، التغلب على أعلى قوة شيطانية تسندها القوى الكبرى والصغرى... وكيف إستطاع هذا الشعب الضعيف الأعزل من السلاح أن ينتصر على جميع هذه القوى؟

ألم يكن سر إنتصار هذا الشعب هو الرعب الذي ألقاه الله في قلوب هؤلاء الطغاة؟

أليس ذلك هو ذات ماحدث في صدر الاسلام حيث انتصرت فئة قليلة على فئة كثيرة؟..

ألم يحن الوقت للذين لم يهتموا بالمعنويات، ولم يؤمنوا بالغيب أن يستيقظوا من غفوتهم؟

من أسقط الطائرات العمودية لكارتر التي استهدفت الإعتداء على إيران؟

هل نحن أسقطناها؟

إن الرمال جنود الله، وكذلك الرياح هي جنود الله، وقد أبادت الرياح قوم عاد، إن الرياح والرمال جنود الله... وليجربوا».

لم تكن الثورة الأسلامية من لحاظ وصولها إلى نقطة الإنتصار بالصورة التي حصلت امراً عادياً في عالم خاضع إلى نظام سياسي دولي حديدي قاسٍ وخاضع لمجموعة من الضوابط والثوابت، ولعل هذه «اللاعادية» ظهرت بصورة جلية من خلال ردود فعل القوى الدولية الموجدة لهذا النظام، بكل أشكالها القتالية والثقافية والإقتصادية... فهي ردود إنطوت على الكثير من الشعور الثأري والإنتقامي وميزتها بعض علامات الاستثناء في الممارسة الحاقدة المضادة للثورة... ان إنتصار الثورة شكل خروجاً على الحالة المألوفة القائمة دولياً آنذاك فالعالم بكل قواه المستغلة ما استطاع أن يقف بوجه مسار الثورة وهو يقتحم كل سدوده، مع ان الحسابات المادية البحتة ما كانت تتحمل هذا الشكل من أشكال النتائج، كما ان معادلات القوى القائمة بين الشعب الإيراني من جهة واعدائه الدوليين والإقليميين من جهة أخرى، هي الأخرى ترفض نتيجة الإنتصار المذكورة ولكن مع هذا الرفض حصل الإنتصار في بهمن وتأسست بعده دولة «التحدي» السياسي والفكري الأولى بالنسبة للعالم الغربي، وأنطلقت مسيرة الثورة تخوض غمار الحرب الفكرية والثقافية بثقة عالية وبروح جهادية، لتسجل من خلال ذلك علامة فارقة أخرى ترتبط بالديمومة والتواصل وسط سيل من المشاريع التآمرية المضادة التي مورست إزاءها... إذ بعد الإنتصار كان جميع أعداء الثورة يعتقدون بأن الفرص متاحة امامهم لتحويل هذا الإنتصار إلى هزيمة، يمكن أن تقتل الأمل في كل النفوس وتوجد يأسا سوداويا بدلاً منه في الشعور الأسلامي العام... كان هذا التصور قائماً على اساس عريض من الإمكانية المادية الغربية والتفوق النفسي والتكنولوجي والخبرة في حبك المشاريع السياسية والعسكرية والثقافية المضادة لأي خصم لهذا العالم الغربي... وفعلاً لم يحصل خلال هذا القرن أن حصلت حركة مشاريع دولية بنسق وفاقي تفاهمي بين الدول الكبرى ازاء طرف

إقليمي محدود القوى في الحسابات والمعادلات الدولية مثلما حصل حيال الثورة الأسلامية في إيران، وحتى العالم الشيوعي عندما قرر أن ينقلب على موروثه الفكري لم يغفل ولا للحظة واحدة عن مواصلة دوره في الحركة الوفاقية الساعية إلى أمتصاص آثار الصحوة الإسلامية وتوجيه الضربات ـ للمركز ـ إيران ـ بقوة وعنف إستثنائي، . . . الشيوعية التي إنهزمت أمام الغرب سياسياً، رفضت أن يستفيد العالم الاسلامي من آثار هذه الهزيمة وحتى على مستوى استثمار الفرصة. . على أية حال ديمومة الثورة وسط موج التحديات المفروض عليها سجلت استثناءً أو ربما اكبر من هذا المعنى. . . سجلت إعجازاً أو سراً كما يُعبر عنه الإمام الخميني رضوان الله عليه في وصّيته المباركة التي يقول فيها «يقيناً ان سر ديمومة الثورة الإسلامية هو نفس سر إنتصارها والأمة تعلم ماهية هذا السر وأين يكمن والأجيال الآتية ستقرأ في التاريخ ان دعامتي هذا السر تكمنان في الدافع الإلهي والغاية السامية للحكومات الأسلامية والتفاف الشعب في أرجاء البلد بكلمة واحدة حول هذا الدافع وتلك الغاية، التي أوصي كافة الأجيال المعاصرة منها والقادمة أن لو أردتم الإسلام وإقامة إستقرار حكومة الله ولو أردتم أن تقطع أيدي الإستعمار والمستغلين المحلية والأجنبية عن بلدكم فلا تضيعوا هذا الدافع الإلهي الذي أوصى به الله تعالى في قرآنه الكريم».

إذن السر يتمحور بالدرجة الأساس حول «الدافع». . . دافع التحرك. . . فاذا كان هذا الدافع اقتصادياً فهو سيتلاشى من حيث الأثر الصراعي عندما تلبى حاجة الأمة الاقتصادية، وعندما يكون دافع التحرك «امتدادياً» أو توسعياً فسيموت أيضاً في حالتي الهزيمة أو الإنتصار بالنسبة للوصول إلى هذا الدافع.

فالهزيمة واقع مفروض والإنتصار سيشكل الإستجابة العليا للدافع التوسعي، وفي كلا الحالتين سيتلاشى الدافع. ما هو الدافع الذي لا يموت ولا يتلاشى ويشكل مادة الديمومة والتواصل المطلوب لخلود الحركة الثورية حيال الظلم والإستبداد الدولي؟ إنه الدافع الإلهي الذي يسقط الذات والمصلحية والإمتيازات، فالأهداف والدوافع الإلهية هي جزء من فلسفة إيجاد الكون،

وهي بالتالي تختزن كل عناصر الحيوية والأستمرار، وتشكل حالة سمو أخلاقي ووجداني تجردي عن الذاتية الضيقة التي تسعى إلى مجموعة من الأمتيازات من وراء كل حركة صغيرة أو كبيرة، وتحسب الأشياء وفقاً لمنطق حسابي محصور بالربح والخسارة المادية، فيما ان النصر الإلهي يشترط لتحقيقه أسقاط هذا المنطق وأبداله بالمنطق الأيماني بقدرة الغيب على التدخل في اللحظات الحاسمة لصالح من يدافعون عن المبادىء الالهية، فلولا هذا الدافع الذي تجسد في حركة الثورة الأسلامية في إيران قبل وبعد الانتصار، لما استطاعت هذه الثورة أن تقطع كل ما قطعته من اشواط صمودية خلال السنوات الماضية، ولما أستطاعت أن تقف بوجه حركة المخططات الدولية على رغم قسوتها وضخامتها. .

إن ما يوصينا به الإمام هو أن يكون الدافع الالهي محور حركة البلاد الداخلية والخارجية الآن وفي المستقبل، فليس لهذه البلاد من ضمانة كضمانة هذا الدافع عندما يتجسد في نوايا القيادة أو نوايا الجمهور الإيراني وهو يواصل دوره الجهادي ضد اعدائه الدوليين والإقليميين. . . وبدون هذا الدافع ستموت بلا شك أرضية التواصل والديمومة في لحظة من اللحظات الزمنية القادمة. وستفقد الثورة معانيها الربانية العالمية، وسيتحول بهمن ـ شهر الإنتصار ـ إلى ذكرى تقليدية وإلى مناسبة شكلية. ومهما يكن من أمر فإن الإمام كان يخاطب الشعب الإيراني في وصيته المباركة بالقول: «وسواء عرفتم أم لم تعرفوا فأنتم سائرون في درب هو وحده درب جميع الأنبياء (عليهم سلام الله) وهو وحده درب السعادة المطلقة ومن أجله يندفع كافة الأولياء لإحتضان الشهادة، ويرون الموت الأحمر أحلى من العسل».

وهذه الحياة مجردة عن قيمها المعنوية. . إذا كانت مجردة عن الحرية والكرامة ومعاني الإنسانية والأخلاق، التي تشكل معنى الحياة السامية المعنوي ومبرر وجودها، كما أنها تشكل عناصر معناها الأساسية. . وبدونها لاتصبح للحياة قيمة، بل أنها تتحول إلى عبءٍ وآلام ومعاناة ويصبح الهدف الأول والأخير لأولئك السائرين على درب الأنبياء «ع» هو إعادة الحياة إلى معناها

الأصيل. . . يصبح هدفهم هو إيجاد الجو الجهادي بوجه الأسباب والقوى المادية التي تصادر حركة الأخرين وتسلب كرامتهم وتحولهم إلى مجرد دُمى وتوجههم بإتجاه مادي لا ينظر للأشياء إلاّ من خلال المصالح الشخصية والذاتية الضيقة، ولعل الإمام «رض» يقف في مكان أخر من وصيته المباركة على هذا الفهم عندما يقول «وتذكروا مقولة المرحوم مدرس هذا العالم المؤمن التقي السيرة والسريرة حيث قال في مجلس الشورى المحبط آنذاك، إذا كان يجب أن ندمر فلماذا نفعل ذلك بأيدينا؟ وأنا أيضاً وبذكرى هذا الشهيد في سبيل الله أقول لكم أيها الأخوة المؤمنون أن استأصلنا من قبل الأيدي المجرمة الأميركية ـ الروسية، ولقينا الله مخضبين بدم الكرامة، هو خير من أن نعيش مترفين في ظل الجيش الشرقي الأحمر أو الغربي الأسود».

مقياس أفضلية الحياة وأفضلية طريقتها ونظامها ليس الترف المعيشي ولا المستوى الإقتصادي. . إن المقياس هو الكرامة فإذا كان هنالك نظام يعطي الترف الحياتي ولا يعطي الاحساس بالكرامة فعندئذ تتحول الحياة إلى حياة بهيمية فارغة من القيم والمعنى، وإذا كانت هنالك حياة قائمة على الإستقلال والحرية والأرادة. ولكن مع الصعوبات الإقتصادية والمشاكل المعيشية فإن الرضا بها يمثل الإستجابة الفطرية الطبيعية لفلسفة الخلق القائمة على الإمتحان والإختبار، وتحمل البلاء كثمن للفوز الأخروي، أما أولئك الساعون إلى الإمساك بالكرامة والحياة المترفة معاً، وهم غير مستعدين لدفع ثمن هذا الأمساك فأنهم يجافون الواقع. إن أولئك المنتقدين والمرددين بمناسبة وبدون مناسبة لمساوىء الوضع الإقتصادي والمعيشي وهم يرفضون التكيف مع صعوباته ويريدون الاسلام إذا كان يؤمّن لهم ما يطمحون اليه من مستويات معيشية. . . إنهم إنما يقبلون الإسلام بشروط ويسقطون ضريبة تحكيمه في الحياة لاسيما في هذا العصر الدموي الذي يتخندق فيه الجميع ـ جميع القوى الكبرى والقوى الإقليمية المرتبطة بها ـ ضد الإسلام الثوري الناهض، ضد أولئك الذين يرون الموت أحلى من العسل في سبيل إعلاء كلمة الله، ورفض أشكال الحياة المترفة والفارغة من القيم والمعاني والمثل الإنسانية، والإسلام

يرفض بالتأكيد أن يقبل بشروط ، كما أن النظرة اليه يجب أن لا تكون من خلال حقبة زمنية خاصة أخضع فيه الأعداء دولة المسلمين إلى شتى أنواع الحرب الإقتصادية والحصار والمقاطعة، فمثل هذه الحرب كان مفروضاً لها أن تفرز مشاكلها الخاصة، وعليه يكون مفروضاً علينا أن نقيم من داخل هذا الظرف الإستثنائي، لا من خارجه، وأن نرى بعين حيادية وبأفق شمولي. ولا يعني ذلك بالطبع تبرير أي خطوة إقتصادية تقوم بها الدولة، مهما كانت... كما لا يعني كم الافواه، وعدم اثارة المشكلة الإقتصادية في المواقع التي تستحق الإثارة... إن ما هو مطلوب، هو أن نفهم، أن الاسلام نقيض للترف الممارس في أحياء الفقراء ووسط الجائعين، وأن نعي بأن الترف لا يصلح أن يكون مقياساً مطلقاً للحكم على صلاحية الأنظمة وفي كل الظروف، ومطلوب أن ندرك إن عملية الحياة هي صراع مع الذات ومع الغرائز قبل أن تكون صراعاً مع الاخرين.

أهمية الشعوب

عندما نتحدث عن ثابتة الشعوب في خطاب الإمام «رض» الثوري لابد أن نبدأ من الشعب الإيراني الذي مثل المادة الشرية للثورة وحافظها بعد انتصارها وخزان حاجتها الدفاعية البشري والإحتياطي الذي لا ينضب في مد الثورة بكل حاجاتها المادية، لقد حول الشعب الإيراني كل المقولات التي تنطوي على شيء من المبالغة الثورية إلى حقيقة من خلال دوره الأساس في الثورة والدفاع عنها. وتحول الدور إلى مصداق لما كان يردده الإمام في عبارات خطابه الثوري قبل أن تصل الثورة إلى لحظة الإنتصار، من أن الشعوب قادرة على تحدي إرادة الكبار وما يفرضونه من نظام سياسي ظالم. فبدون الحركة الشعبية لايمكن لأي تغيير أن يحصل من وجهة نظر الإمام «رض» خصوصاً وان الأنظمة السياسية التي تتحكم بالساحة الإسلامية لم يسجل تاريخها ولو لمرة واحدة إنها إستجابت لنداء الحق، أو إجتازت صحوة ضمير، لكي تقف، إلى جانب الشعوب في تحقيق أهدافها الإستقلالية إذاً فعبء التغيير ومسؤوليته يقعان على هذه الشعوب حيث يقول الإمام «رض» في ندائه ليوم القدس العالمي بتاريخ ١/ ٨/ ١٩٨١ م يقول ما يلي:

«لقد رأى العالم بأسره كيف استطاع الشعب الإيراني ان يقهر قوى الزمان المتجبرة ويقف في وجه عملاء الداخل والخارج حتى أنه وصل وبسرعة البرق بهذه الثورة الإسلامية العظيمة إلى أهدافها. واستطاع قطع أيدي الجناة عن بلده العزيز بافشال كل المؤامرات الأميركية وبسحق كل خطط الجماعات اليمينية واليسارية الواحدة بعد الأخرى بقلب ملؤه الإيمان والعقيدة».

ويضيف الإمام «رض»: «يجب أن يكون هذا عبرة للدول الإسلامية

وللمستضعفين في العالم بأن يعملوا لينالوا قدرة الإسلام. وأن لا يخشوا من عربدات الشرق والغرب وأعوانهم وحثالاتهم».

كما أن الإمام «رض» اعتبر الشعوب على الدوام هي الميزان أو المقياس الأعلى للنزاهة والثورية، فهو يقول في حديث له بمناسبة عيد الأضحى المبارك ١٤٠٠ هـ، يقول:

«لأنه مالم ننعزل ونمتنع عن مد يدنا إلى الدول الكبرى والقوى الأخرى لا نستطيع ادارة امورنا بأنفسنا أو الوقوف على اقدامنا يجب ان ننزوي حتى ننال استقلالنا وحريتنا، إن هذا الإنزواء لا أهمية له، لنا، ونحن لا نهاب الإنزواء الإقتصادي والسياسي والإجتماعي لأن الميزان لدينا هو الشعوب، وان الشعوب تساندنا، فلو استمعتم إلى الإذاعات للاحظتم بأن جميع الشعوب في العالم أعلنت عن دعمها لنا واستعدادها لخوض الحرب ضد النظام البعثي العراقي الغاشم وفي جانبنا كي ينقذونا من هذه المعضلة، على حد تعبيرهم».

إن الإمام الخميني «رض» في خطابه الثوري ما كان يتحرك على محور دعوة تلك الشعوب إلى القيام بمسؤولياتها الدينية لتغيير الواقع السياسي المأساوي الذي يلف الساحة الإسلامية فحسب... إنما هو تحرك ومنذ لحظة الإنتصار إلى إبقاء الشعوب حاضرة دائماً في مسار الثورة أو انها مادة هذه الثورة والصانعة الأساسية لأطرها ورموزها القانونية القيادية ذلك من خلال المؤسسة التي حرص الإمام كثيراً على الشروع في تشييد البلاد عليها وفي كل مجالات الحياة.

فالإمام «رض» لم يسمح بعد ان وصلت الثورة إلى نقطة الإنتصار في بهمن، لم يسمح بتأخير العمل على إرساء أسس الأنظمة الجديدة التشريعية والتنفيذية والقضائية، وتحديد دستور البلاد وإنشاء كافة المؤسسات المسؤولة عن حماية هذا الدستور والقانون الإسلامي، والذي سجلته الثورة الإسلامية في إيران في هذا المجال هو السبق في العمل بإتجاه التنظير المؤسساتي، القانوني الضابط لحركة الثورة على الرغم من وجود أسباب موجهة لتأخير هذا العمل المؤسساتي فأوضاع البلاد الثورية ما كانت تسمح بتلك الخطوات التأسيسية

السريعة التي حصلت في بداية الثورة إلاّ أن الإمام «رض» أمر على أن يتجاوز هذه الأسباب ويعلن فوراً عن كل ما يرتبط بالعمل التأسيسي، وربما أن إصرار الإمام «رض» هذا كان يعود لسببين اثنين: السبب الأول داخلي، والسبب الثاني خارجي، فعلى صعيد السبب الأول كان الإمام «رض» يعتقد بأن أوضاع البلاد الثورية كانت بحاجة إلى تشكيل مؤسساتي ينظم الحركة الثورية بسرعة، ويحول دون إستغلال القوى الخارجية العدوة وعملائها في الداخل، لهذه الأوضاع والعمل على تمرير بعض الحركات التآمرية، لاسيما وإن الجو الثوري السائد آنذاك يسمح بالإستغلال السلبي، كما إن إفتقاد التجربة القيادية لدى الكادر الثوري ربما يولد لوناً من ألوان التضارب في الإجتهادات القيادية، ومن ثم يتحول البلد إلى ساحة للتعدد السلبي للآراء وربما يتحول ذلك بدوره إلى تناحر وتطاحن ذاتي.

فلكي لا يحصل كل ذلك، كان لابد من حركة فورية حاسمة مبادرة إلى التأسيس، تأسيس ما يحتاج قرار البلاد اليه من مؤسسات دستورية وسياسية وعسكرية واقتصادية وثورية تمتص الجو الثوري في جوانبه السلبية وتدفع بالجوانب الإيجابية لهذه الثورية إلى مجالاتها المطلوبة وتلبي الحاجة الطبيعية للثورة ولميول ومبادىء قادتها الإسلامية... لقد بادر الإمام «رض» إلى ركائزه التأسيسية الأولى بإصرار وهو يدرك أكثر من غيره الحاجة إليها كما أنه القادر الوحيد على الحسم فيها في ظل الجو القيادي التعددي في القناعات الذي ساد الأجواء في أيام ما بعد الثورة الإسلامية في إيران.

هذا هو السبب الداخلي أما السبب الخارجي الذي أعدم الحاجة إلى التأني في إعلان خطط التأسيس من وجهة نظر الإمام... ربما كان يتلخص بقتل الذرائع التي ترافق الثورات الأخرى، أو حالات التبدل السائدة في الأنظمة السياسية فغالباً ما تبقى الوعود بتأسيس الأطر والمؤسسات القانونية والتشريعية تردد لسنين طويلة دون أن يتحقق شيء منها، فيما تمارس الدكتاتورية كبديل لهذه الوعود وفي ظل إنتاج متواصل للذرائع. لقد أراد الإمام (رضوان الله عليه) أن يقدم النموذج الحي لما يجب أن تكون عليه

الثورات. . أراد أن يعطي المقياس ويوضح إن أي سبب لا يمكن أن يكون كافياً لتعطيل العمل المؤسساتي العاكس فعلاً لإرادة الشعب، والممثل لقناعته، فليس هنالك ما هو أعقد من ظروف الثورة الإسلامية في إيران في أيامها الأولى، إلاّ أن هذا التعقيد لم يسمح له الإمام «رض» أن يتحول إلى سبب من أسباب تعطيل العمل المؤسساتي.

فالثورة ما كانت لتأخذ مصداقيتها وتتحول إلى قيمة واقعية لولا هذا العمل. . . ولم يلتفت الإمام «رض» بطبيعة الحال إلى المؤسسة السياسية والدستورية في مهمتها على صعيد الرقابة فقط، لا بل ان المؤسسة كطريقة عمل دفاعية وإجتماعية وإقتصادية أخذت مأخذاً كبيراً من إهتمامات الإمام وتحولت إلى هم من همومه، ولا يكاد يكون هنالك مجال واحد قد استثناه الإمام وهو يرسي العمل المؤسساتي للبلاد، ويحاول ان يوجد نظاماً إسلامياً قائماً على المؤسسة أكثر مما هو قائم على أي شيء آخر، إذ تبقى بلا شك المؤسسة أداة من أدوات الحفاظ على الثورة وإبعادها عن الوقوع في فخ الدكتاتورية، حيث أن هنالك كثيراً من الثورات التي قامت بجهود شعبية بحتة ووقعت فيما بعد بأنظمة الدكتاتورية والدموية، وتلاشت ثوريتها وسط دماء هذه الدكتاتورية الداخلية. . . وهنالك كثير من الثورات لم تتحول بعد الانتصار إلى مشروع واضح في اطره وقواعده المؤسساتية، والإمام «رض» كان واعياً لهذا اللون من الأمراض التي تقع فيها الثورات، كما إنه كان حريصا على ترجمة ما يمليه واجبه الشرعي في تثبيت أسس النظام الإسلامي، بلا فواصل ولا مجاملات وبدون انتظار.

وقد يبدو للوهلة الاولى أن التعدد المؤسساتي في المجالين السياسي والدستوري بما يفرضه من مهمات رقابة وصيانة وتقنين سيؤدي إلى نوع من أنواع التعقيد في إدارة البلاد، أو إلى لون من ألوان اللامركزية السلبية في إتخاذ قراره، أو إلى تصادم في المهام والصلاحيات أو تداخل في المسؤوليات. . . لكن لم نجد من خلال تجربة السنوات الاحدى عشرة الماضية من عمر الثورة، لم نجد أن الثورة قد وقعت في أزمة تعدد المؤسسة السياسية بما يؤثر على قرار

البلاد، أو يشل إمكانية إتخاذه في الوقت المناسب. . . بالطبع لم نقطع هنا بأنه لم تحصل أية مشاكل بين مجلس الشورى الإسلامي مثلاً من جهة وقائد من القادة التنفيذين من جهة اخرى. . . فهذه المشاكل قد تحصل. . . إلاّ انها تعبر في كل الاحوال عن ظاهرة تعدد إيجابية للأراء، مادامت لم تعرقل أي قرار سياسي خارجي، ومادامت تشكل عملية حوار أو نقاش أو تدارس ذاتي لقضايا البلاد الداخلية والخارجية من أجل الوصول إلى الحالة الافضل لإدارته.

. . . نقول لقد انتظمت كلمة البلاد السياسية الخارجية طيلة احدى عشرة سنة من الثورة، بإستثناء شهور ما بعد هذه الثورة التي كانت تشكل الزمن التأسيسي المطلوب، حيث كانت وسائل الاعلام الخارجية العدوة تستطيع ان تدعي بأن هنالك تعدداً في الآراء السياسية، وحيث كان وضع البلاد الاستثنائي وغياب التجربة ووجود من هو على استعداد للإساءة إلى سمعة الثورة من أجل مصالحه الذاتية والشخصية. . . كانت كل هذه الاسباب مجتمعة تحول دون بلورة حالة سياسية خارجية مستقرة. . . إنها فترة شهور قليلة وسرعان ما انتظمت حركة البلاد السياسية بما يعكس عملاً مؤسساتياً دقيقاً واضحاً في تعدد الصلاحيات والمسؤوليات. . .

إنطلقت الثورة لتواصل مسيرتها الثورية على أساس قرار يتمتع بغطاء مؤسساتي واضح، وليشكل هذا الغطاء بكل مفرداته الضمانة. . . ضمانة الثورة من الانحراف والتحريف بحيث لا تهتز هذه الثورة حتى وهي تتعرض إلى المؤامرة من رئيس جمهوريتها في وقت من الاوقات، كما انها كانت ثابتة حتى حينما ذهب رئيسها شهيداً بحراب المنافقين الذين أرادوا اغتيال الثورة، فنجحوا في اغتيال بعض قادتها، ولكنهم لم ينجحوا في اغتيال مؤسسات هؤلاء القادة. بقي احد مجالس الثورة الإسلامية يمارس دوره بثقة عالية حتى في اللحظة التي راح فيها أكثر من سبعين قائداً من كادره القيادي شهداء عبر عمل دموي آخر فالشعب عندما يضع المؤسسة التي تمثله سياسياً عبر التصويت، والشعب الذي يخوض العملية الثورية بلا انقطاع، أو ملل يتحول إلى خزان قيادي، وبإمكانه أن يزوّد الاطار المؤسساتي بما يحتاج اليه لملء الفراغ الناجم

كما بأمكانه أن يقف بقوة معبراً عن ذاته كلما حاول الاعداء الاطاحة به.. إذاً تحولت المؤسسة إلى ضمانة قادرة على الاطاحة بكل قيادي يقع ضحية للاغراء الخارجي، ويخون مبادىء الثورة أو يمارس الانحراف ويغدر بالشعب الذي أوصله للقيادة، أو يصبح مجالاً لنوازع دكتاتورية طارئة، فيما إن هذا القيادي مهما فعل لايستطيع أن يوقع بهذه المؤسسة.. لقد كان الإمام حريصاً وفي غاية الحرص على إيجاد علاقة واضحة بين القيادة والشعب عبر المؤسسة السياسية ومؤسسات الرقابة والصيانة، فهذه المؤسسات تشكل حلقة الوصل التمثيلية بين الطرفين.

وفي هذا الاطار كان الإمام «رض» يقول في كلمة له أمام أهالي أردبيل ورشت في ٢٦/ ٢/ ٥٩هـ.ش: «إن الشعب هو الذي ينتخب رئيس الجمهورية بآرائه ويدلي بأصواته للجمهورية الإسلامية، ويعين الحكومة عن طريق آرائه المتمثلة في المجلس.... وليس كما كان في عهد الطاغوت حيث كانت الامور كلها بيد شخص واحد...»

وفي خطاب له أمام اساتذة الجامعات وعلماء الدين والمسؤولين، بمناسبة حلول عيد الأضحى المبارك ١٠/ذي الحجة/ ١٤٠٥ هـ. ق، كان الإمام «رض» يقول:

«نحن قطعنا حتى الآن والحمد لله خطوات فعالة كثيرة، حينما تقارنون قليلا بين العهود السابقة وبين أوضاعنا الراهنة، تستطيعون أن تفهموا الفوارق، على سبيل المثال يتذكر كثير منكم بل اكثركم ما جرى خلال الاستفتاء فيما يسمى بالثورة البيضاء، وما اثاروه من ضجيج وما مارسوه من ضغوط، وحيل وألاعيب، ومع ذلك فلم يستطيعوا أن يدّعوا اشتراك اكثر من ستة ملايين «في الاستفتاء» وثقوا ان العدد لم يكن بهذا القدر.

مع كل تلك الضغوط، وكل ذلك الطغيان الحاكم وكل تلك الدعايات لم يستطيعوا ان يجمعوا عدداً من الناس ليمكنهم إدعاء إشتراك عشرة ملايين، لم يجرأوا على هذه الكذبة وعلى «هذا القدر من» المبالغة، أنتم الآن في بلد يعاني أبناء شعبه ألوان الضغوط من جميع الأطراف، تمطر عليهم المقاطعات

الإنتخابية والدعايات «المضللة» من كل جانب، «ومع ذلك» يتجه اكثر من أربعة عشر مليوناً «إلى صناديق الإقتراع» ولو قورن هذا الرقم «بعدد الناخبين» في أي بلد آخر لاتضح الفرق بيننا وبين الآخرين، ولاتضح مدى ما حدث من تحول في إيران» . . .

إن هذه المؤسسات وعمليات الإنتخاب كما كانت ضمانة من الإنحراف من جهة فإنها ضمانة الدستور من جهة ثانية، ولما يمليه الفكر الإسلامي في الحكم عبر العمل الجماعي المشترك من جهة ثالثة، ودلالة على قوة الإسلام في نظام الحكم من جهة رابعة، فكثيرة هي الأنظمة التي تدّعي تطبيق الإسلام وربما من داخل مؤسسات شكلية، لكن نموذج الثورة الإسلامية في إيران بشكله المؤسساتي السياسي والدستوري أوضح الإدعاء من الواقع وفرز بين المؤسسة التي تمثل أصالة الإسلام والمؤسسة التي تمرر خيانة الحكم.

لقد كان الإمام «رض» يؤكد على أصالة هذه المؤسسات وأصالة إنتمائها الإسلامي في كلمة له مع علماء تركمان صحرا في ٥/٥/٥٩ هـ، ش إذ أشار بأن على مجلس صيانة الدستور أن يدقق في مهامه لئلا تصدر عنه كلمة واحدة تخالف الإسلام، إذ المطلوب هو الإسلام وجمهوريته الفتية.

إن المؤسسات التي أصر الإمام رضوان الله عليه على تحصين البلاد بها منذ الأيام الأولى للثورة لم يكن لها دور حفاظي سريع على الثورة من الإنحرافات المحتملة لبعض القيادات فحسب كما لم يكن درسها المتعلق بسد الطريق أمام الدكتاتورية يقتصر على تخليص الداخل من ويلات هذه الدكتاتورية التي كان يعاني منها ايام الشاه، لاسيما وأن الأعذار جاهزة على الدوام لحرف مبادىء الثورة من قبل بعض القوى النفعية وجرها بإتجاه الدكتاتورية. . إن درسها مرتبط أيضاً بالطريقة التي تسير فيها الحياة الإنسانية في العالم العربي والإسلامي المحيط بإيران وفي العالمين الغربي والشرقي حيث تمتد نماذج هذين العالمين ما بين أقسى درجات الدكتاتورية الدموية وأقصى درجات العمل المؤسساتي اللا مربوط برباط أخلاقي أو وازع ديني أو حدود قانونية للحرية بما يؤدي إلى صيانة المجتمعات الإنسانية من الرذيلة والإنحطاط. . إن ثورة إيران

الإسلامية جاءت لتبدأ تطبيقاتها المؤسساتية وتعرض نموذجها الوسط وتضع لبنات الهيكل العام لنظام الحكم في الإسلام بما يقتضيه من ضمانات لأبقاء دور الشعب فاعلاً في هذا النظام بحيث لايمكن الإلتفاف عليه أو مصادرته بل يجب عليه أن يكون حاضراً على الدوام لملء المؤسسة السياسية بالكادر القيادي الذي يمثل فعلاً طموح الشعب وفق الحدود الشرعية والضوابط الإسلامية وردع الهامش الشعبي الذي يريد أن يطلق الحرية إلى مالا يرضي الشريعة وإلى ما يؤدي إلى فساد المجتمع فهذا الهامش المنحرف يجب أن يردع بروادع قانونية ومؤسساتية ليظهر نموذج الحرية الإسلامي بلا شوائب، بل أنه ينسجم مع فطرة الإنسان الميالة إلى العدالة الإجتماعية والقضاء على الشذوذ الأخلاقي بخلاف الحرية الرأسمالية التي تطلق العنان لهذا الشذوذ الذي ينعكس فيما بعد على شكل أمراض اخلاقية وجنسية مهددة لسلامة المجتمع.

وفي هذا الإطار يقول الإمام «رض» في كلمة مع أفراد القوة البحرية في ١٥/٤/٥٩ هـ ـ ش ما يلي: «إن الحريات التي تضمنها الحكومات المادية للناس هي ليست كتلك التي تضمنها الحكومات المعنوية وخاصة الإسلام.

فالحكومات الدنيوية تريد أن لا يخالف أحد النظام ولكنها لاتعير اهتماماً لما يقوم به احد في منزله.. إن نوع الحكومة الإسلامية يختلف مع سائر الحكومات في التنظيمات والقوات المسلحة الإسلامية تختلف مع القوات غير الإسلامية..».

وفي كلمة له في مدرسة الفيضية في ٢/٦/٥٨ هـ ـ ش يتساءل الإمام «رض» قائلاً «ما هو نوع الحرية التي يريدها هؤلاء الذين يطالبون بالحرية للشباب ويسهبون في التحدث عنها؟

إنهم يريدون أن يكون شبابنا أحراراً بفتح مراكز الفساد والمغامرة وشرب الخمر وتناول المخدرات.. إن هذا النوع من الحرية قد تم فرضه من قبل الغرب.. نحن نريد أن نخرج شبابنا من مراكز اللهو والذهاب بهم إلى سوح الجهاد، نحن نريد إنقاذهم من الفساد..

إن هذه الحرية التي يطالب بها هؤلاء السادة إنما هي مفروضة من قبل أولي القوة وأما الكتّاب فهم غافلون أو أنهم متغافلون . . » .

هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن النموذج الإسلامي بدأ وكأنه النموذج الوحيد وسط بحر من الإرهاب الرسمي والأنظمة الدكتاتورية . . نموذج عرض الإسلام كما هو في احترامه لإرادة وحرية الإنسان وليس كما هو مجسد في بعض الأشكال الإدعائية في المنطقة التي يقتصر إدعاؤها على الشعار ، في حين هي لم تجرؤ حتى الآن على تأسيس مؤسسة إسلامية سياسية واحدة ، وتكتفي بالقول بأن القرآن هو دستورها ولذا فلا حاجة إذن للدستور ! ! .

في السعودية هناك إدعاء إسلامي لكنه لم يرقَ إلى مستوى المؤسسة المطلوبة ، ولم يحظ بأي شكل من أشكال التمثيل الشعبي ولا توجد هنالك قناة مؤسساتية لهذا التمثيل ، في وقت جاء فيه النموذج الإسلامي في إيران ليعكس الإسلام خلافا لشكله الادعائي المجسد في السعودية . . . نموذج قام منذ ايامه الأولى على المؤسسة وعلى حرية الانسان وعلى وضوح العلاقة التمثيلية بين القيادة والشعب .

فخلال سنوات الثورة الإسلامية الماضية أثبت الشعب الايراني المسلم للعالم بأنه مدرك ادراكا سليما لما يعنيه حضوره في قضايا البلاد والقرارات والمجالات التي ترتبط بمصير الثورة ، إذ أنه خاض جميع الدورات الانتخابية وأدلى بصوته عن سابق إصرار بأنه والقيادة يشكلان حالة واحدة ، وهي الأولى أو لنقل أنها من نوادر تجارب التاريخ ، فغالباً ما ، تعاني الثورات العالمية من مشاكل كبيرة ، في قضية تمثيل القيادة للشعب ، أو غالباً ما يحصل خلل في استيعاب الشعوب للتحديات التي تواجهها الثورات ، وطبيعة المشاكل الاقتصادية وغير الاقتصادية التي تفرضها ، وليس من قبيل المبالغة الكلام بأن الثورة الإسلامية في إيران واجهت من المشاكل والمؤامرات الخارجية مالم تواجهه ثورة اخرى ، وكان واحداً من أهداف هذه المؤامرة هو دق «اسفين» خلافي بين قيادة الثورة وبين الشعب الايراني ، إلاّ إن كل صور الأختبار أو كل مجالات تقييم أو رصد العلاقة بين الشعب والقيادة اكدت فشل هذه

المؤامرات، ولعل المجال الإنتخابي وما أبرزه من صور لهذه العلاقة، كان الاكثر تعبيراً عن هذه الحقيقة، والأبلغ معنى ودلالة في إطارها، كما ان آخر مصداق حي لها جاء عبر الانتخابات لرئاسة الجمهورية، وليس مجال الاثارة في هذه النتيجة تمثلها بإختيار واحد من تلاميذ خط الإمام القريبين إليه فحسب... بل انها جاءت كمصداق قريب لوصية من وصايا الإمام الراحل ـ رضوان الله عليه ـ المهمة، حيث أنه أكد كثيراً على ضرورة حضور الشعب في كل الدورات الانتخابية، وحتى أنه حذّر من مخاطر التهاون في هذا الأمر من خلال القول: «وأوصي الشعب النبيل أن يكون له حضوره في جميع الانتخابات سواء في الانتخابات الرئاسية أو إنتخابات مجلس الشورى الإسلامي أو إنتخابات مجلس الخبراء المكلف بتعيين مجلس القيادة، وأن يكون إنتخابه في أي منها قائما على ضوابط معتبرة، فعلى سبيل المثال لو تهاون افراد الشعب في إنتخاب أعضاء مجلس الخبراء بتعيين مجلس القيادة أو القائد ولم يستند هذا الإنتخاب إلى المعايير الشرعية والدستور فقد تلحق بالإسلام والبلد أضرار فادحة لا يمكن تلافيها وعندها يكون الجميع مسؤولين عن ذلك بين يدي الله سبحانه وتعالى» ويضيف الإمام «رض» في وصيته قائلاً: «ونفس الأمر يصدق على عدم المشاركة فيها من قبل أبناء الشعب بدءاً بالمراجع وكبار العلماء ومروراً بالتجار والكسبة وانتهاءً بالفلاحين والعمال والموظفين».

اكثر أبناء الشعب امتثلوا لهذه الوصية. وسجلوا حضوراً رائعاً في الانتخابات الرئاسية الاخيرة ودللوا مرة أخرى على أمانتهم لفكر الإمام وتوجيهاته.

أما ما هي المخاطر التي يحذر منها الإمام «رض» فيما لو حصل فتور في التوجه إلى الانتخابات؟ فنجملها في ما يلي:

لاشك أن المخاطر كبيرة وتتمحور حول وعي الأمة وملاحقتها لأحداث الساحة وسياسة البلاد وطبيعة القيادة التي تديرها، ففي حال مارست الأمة حضورها في قضايا البلاد الانتخابية والسياسية. كان حضورها يعني تشكيلاً

لعملية الوعي لديها، وهذا الوعي هو الذي سيمثل الضمانة من السقوط والإنحراف وإنفلات زمام الامور، وأشد ما يخشاه الأعداء هو أن تكون الأمة واعية لمبادئها وعلى دراية وإطلاع في مختلف قضاياها، فعندها تكون عملية تمرير المخططات عسيرة ان لم تكن مستحيلة، وستضيق دائرة أساليب الاعداء الخداعية، وبعبارة أخرى، فإن الإمام «رض» يضع هنا سياسة التوعية ـ توعية الشعوب ـ كمضاد لسياسة التجهيل وربط هذه الشعوب بالمظاهر والشكليات والإغراءات وسياسة التوعية المطلوبة لا تحصل كما هو معلوم بأسلوب الطفرات، إنما نتائجها تأتي كمحصلة لمجموعة من العوامل والجهود التثقيفية وأساليب التعاطي مع الاحداث، وإذا كان الإمام «رض» قد أوصى المؤسسات الإعلامية والثقافية في البلاد لكي تمارس واجبها على أحسن وجه من أجل تحقيق هدف التوعية الجماعية، فإنه كذلك يطرح من ناحية أخرى الأساليب المكملة للوصول نحو هذا الهدف، أساليب شد الأمة إلى قضاياها ومسائلها، لاسيما مسألة الانتخابات إذ أن الدور الاعلامي والتثقيفي النظري لايكفي وحده كضمانة لاستقلال البلاد على المدى البعيد إذا لم يكن مقروناً بالممارسة، فممارسة أبناء الشعب لدورهم في تحديد سياسة البلاد ونوعية القيادة الإسلامية والشعب الذي يتعود ممارسة الحرية وفق قوانينها وضوابطها الشرعية لفترات زمنية طويلة ليس سهلاً بعد ذلك أن يخضع إلى أنظمة حكم إرهابية ودكتاتورية.

ومن هنا تتضح أبعاد المخاطر التي يحذر منها الإمام «رض» في حال حصول فتور أو لامبالاة في إقبال الشعب على الأنتخابات الرئاسية أو غير الرئاسية، إذ أن هذه اللامبالاة ستسقط الجانب العملي من عملية تشكيل وعي الأمة وعندها سيكون يسيراً على الاعداء، الدوليين الكبار، أن يفكروا في إخضاع الشعب من جديد إلى انظمة حكم دكتاتورية وإرهابية، وتجارب الثورات في هذا المجال عديدة، حيث تظهر كيف تتحرك قيادات الثورة تدريجياً في بعض الحالات نحو الإندماج في المعادلات الدولية وحيث يتم تمويت هذا الجانب العملي من خلال عدم التركيز المتعمد على حضور

الشعوب في الإنتخابات وقتل دورها في إدارة شؤون البلاد السياسية وغير السياسية. ولعل أقرب مثال إلى الذاكرة هنا هو ثورة المليون شهيد، أي الثورة الجزائرية، وكيف إنتهت في نهاية المطاف إلى لون من ألوان التدجين، وكيف إنتهى نظام الحكم فيها إلى نمط لا يختلف كثيراً عن أنماط أنظمة العالم العربي والإسلامي التي جاءت بإنقلابات عسكرية إلى السلطة.

لقد بقي الإمام الخميني «رض» يركز من خلال أقواله وأحاديثه على دور الشعب في المؤسسة السياسية للبلاد كما بدا ذلك جليا مرة أخرى في وصيته المباركة التي دعا فيها الشعب إلى أن يكون حاضرا على الدوام في عمليات الانتخاب، لاسيما إنتخاب أعضاء مجلس الشورى الإسلامي. فهو يقول في هذه الوصية: «أني أُوصي أبناء الشعب في العصر الراهن وفي المستقبل بأن ينتخبوا بإرادة راسخة وإنطلاقاً من إلترامهم بأحكام الإسلام، وحرصهم على مصالح البلد، أن ينتخبوا في كل دورة إنتخابية نواباً مؤمنين بالإسلام وبالجمهورية الإسلامية. وغالبا ما يكون هؤلاء من الطبقة المتوسطة في المجتمع ومن المحرومين.. نواباً، غير منحرفين عن الصراط المستقيم ولا متحيزين إلى الغرب أو الشرق، نواباً ليست لهم ميول للتيارات الفكرية المنحرفة، متعلمين، مطلعين على قضايا العصر، عارفين بالسياسة الإسلامية».

هكذا إذن يبدو من خلال هذا النص أن الذي يشغل إهتمام الإمام رضوان الله عليه ليس المؤسسة كإسم أو كعنوان. فهي بهذا الشكل كانت موجودة في النظام (الشاهنشاهي) السابق، وفي الكثير من الأنظمة الحاكمة الحالية... إنما ما يشغله هو المحتوى الإيماني والمبدئي لكادر المؤسسة والمصدر الدائم الرافد لهذا المحتوى. فعندما يكون الشعب حاضراً من خلال العملية الانتخابية فأن هذا الحضور يكون ضمانة لسلامة الكادر القيادي النيابي وغير النيابي... إذاً ليس المهم أن تكون هناك مؤسسة فقط.. إنما المهم أيضاً أن يكون هناك وضوح في علاقة المؤسسة بالشعب وأن يكون هناك حضور إنتخابي شعبي فاعل على الدوام يعطي المؤسسة السياسية مهمتها في صيانة الثورة من أنماط الحكم الاستبدادية. وأن يكون هناك وضوح في المادة الفكرية والقانونية التي

تملأ هذه المؤسسة وتحدد صلاحياتها ولذلك يوصينا الإمام «رض» بإلحاح في الحضور في أية عملية إنتخابية.

وحتى الآن لم يكتمل مجال العمل المؤسساتي لدى الإمام «رض» ولم يغط بعد بما فيه الكفاية. إذ لم يقتصر إهتمام القائد الراحل على المؤسسات السياسية والقيادية والدستورية التي تطرقنا لها، والدفاعية والثقافية التي سنتطرق لها خارج سياق هذا الموضوع وفي اماكن اخرى من البحث. لابل ان هناك لونا من التأسيس الخدماتي والاقتصادي والاجتماعي المرتبط بالدور الشعبي وإيجاد المؤسسة الخارجة على الطابع التقليدي في هذا المجال.

وإعطائها الطابع الثوري والطابع الجماهيري حتى على التعدد الوظيفي في بعض الأحيان.

ففي الجانب الاقتصادي مثلا يمكن أن نقف على نقطتين هما: ـ

١ ـ إن الإمام «رض» كان قد تحرك من خلال ملء المؤسسة الاقتصادية للبلاد بكل فروعها بمحتوى النظرية الاقتصادية الإسلامية وتوجيهها بما يخدم النظام الاقتصادي الإسلامي العام.

٢ ـ إيجاد جزء مؤسساتي جديد يتوزع على عدد من المجالات الحياتية المهمة ويؤدي مهام خدماتية واقتصادية كبيرة، كما يؤدي غرضاً اساسياً من أغراض الإمام «رض» وهو يمارس عمله المؤسساتي المطلوب... وهو الغرض المرتبط بإيجاد مؤسسة يكون فيها الوجود الشعبي واضحاً وطاغياً أو يكون دورهما الخدماتي للشعب هو الطاغي... إنها المؤسسة الثورية التي تقوم في جزء من فلسفتها التكوينية على الجهود الشعبية وتعطي في كل دورها الخدماتي لهذا الشعب... وهذا ما ينطبق مثلاً على مؤسسة جهاد البناء التي قامت بالجهد الإعماري الأكبر للقرى المهملة أيام «الشاه» الذي كان يمارس سياسة الإهتمام الشكلي ببعض مراكز المدن. فيما أن الثورة الإسلامية وقائدها الإمام الخميني «رض» كان يحرص على خدمة الفقراء والمحرومين والحفاة وأصحاب الأكواخ... كان يحرص الإمام «رض» على إنعاش القرية وتوجيه

حركة الإعمار بإتجاهها وتهيئة الجوانب الخدماتية الصحية وتحسين طرق المواصلات لها... وعلى أساس هذه القناعة وجدت مؤسسة الجهاد، كمؤسسة ثورية يدرك كل من ينخرط بها سلفاً من كادر البلاد الوظيفي... يدرك إنما هو يؤدي مهمة ثورية إسلامية على حساب جزء من الامتيازات الطبيعية التي تعتبر حقا طبيعياً للموظف في مؤسسات البلاد الأخرى.

إن كادر مؤسسة الجهاد وفق هذه الرؤية هو كادر خاص... وأكثر إستعداداً للعطاء... وأكثر نكراناً للذات لمصلحة الفقراء والمناطق المحرومة، ولقد اثبت هذا الكادر خلال سنوات الثورة الأحدى عشرة الماضية، اثبت بالفعل تمرده على الذات، وأثبت أنه يمثل مؤسسة ثورية أوجدت لتوفير مستوى معاشي وخدماتي أفضل للطبقة المحرومة من أبناء البلاد...

هؤلاء الذين حرمهم النظام السابق من أبسط حقوقهم وجدوا أنفسهم في ظل الثورة على رغم المصاعب الاقتصادية التي وضعت في طريقها يشمون عطرها ويحتفلون بمكاسبها عبر المشاريع التطويرية لقراهم المتعبة المهملة... بالطبع لم يقتصر عمل مؤسسة جهاد البناء على الجانب التطويري المذكور للقرى المحرومة... إنما هي ساهمت مساهمات فعالة واساسية في الدفاع عن البلاد، ولعبت دوراً أساسياً في تسهيل مهمات البلاد القتالية في الحرب التي فُرِضَتْ على الجمهورية الإسلامية... وبإختصار فإن هذه المؤسسة نجحت نجاحاً كبيراً في فلسفة ربط حركة البلاد الاقتصادية بالجهد الشعبي... وبالتالي إنظمّت هذه المؤسسة إلى دائرة المؤسسات السياسية والدفاعية والثقافية التي كان الإمام «رض» نظَّر لأن يكون الوجود الشعبي أساسياً في الجزء التأسيسي الجديد منها، أو في محتوى الجزء المؤسس وقامت الثورة بتفريغه من محتوياته المنحرفة... لقد كان الإمام «رض» يسعى إلى إقتصاد يعطي الفقراء إمتيازات خاصة، فهو يقول في ندائه إلى حجاج بيت الله الحرام غرة ذي الحجة ١٤٠٥ هـ. ق. «يجب توجيه الاقتصاد وجهة سليمة بعيدة عن التبعية ولصالح الجميع ولرفاه جميع الناس مع الإهتمام بأمور الفقراء والضعفاء».

ولم تكن بالطبع مؤسسة جهاد البناء سوى مثل للمؤسسة الاقتصادية

الخدماتية ذات الطابع الثوري التي كانت ثمرة من جهود الإمام التنظيرية المباشرة أو غير المباشرة في المجال المؤسساتي، فمؤسسة الشهيد مثلا هي الأخرى يمكن أن تدرج في إطار هذا الجهد أو يمكن أن نقرأ من خلالها رؤية تركيز الإمام على الدور الشعبي سواء على صعيد حضوره في عجلة الدولة أو على صعيد مسؤولية هذه الدولة في تهيئة الجانب الخدماتي لكادر الثورة ومادتها البشرية الاساسية، فمؤسسة الشهيد كمؤسسة خدماتية لهذه المادة البشرية هي تعبير أو تجسيد لأهداف الثورة في حماية الشعب والقيادة.

على أية حال: أخيراً نقف على هذا النص الجامع لمجموعة من ثوابت الخطاب الثوري التي تطرقنا لها وهو نص جاء في نداء للإمام «رض» إلى حجاج بيت الله الحرام في ١٧/ ١٤٠٠ هـ يقول النص:

«أيها المسلمون المؤمنون بحقيقة الإسلام، إنهضوا ووحدوا صفوفكم تحت راية التوحيد وفي ظل تعاليم الإسلام، واقطعوا أيدي القوى الكبرى الخائنة عن بلدانكم وثرواتكم الوفيرة وأعيدوا مجد الإسلام وتجنبوا الإختلافات والأهواء النفسية، فإنكم تملكون كل شيء. واعتمدوا على الثقافة الإسلامية، وحاربوا الغرب والتغرب، وقفوا على اقدامكم، وأحملوا على المثقفين الموالين للغرب والشرق، وجددوا هويتكم.

وأعلموا أن المثقفين الذين باعوا أنفسهم للأجنبي أذاقوا شعبهم ووطنهم الأمرين.

ومالم تتحدوا وتتمسكوا بدقة بالإسلام الصحيح، فسيحل بكم ما حل بكم حتى الآن. إننا في عصر، ينبغي أن تضيء الشعوب الطريق فيه لمثقفيها، وأن تنقذهم من الانهيار والضعف أمام الشرق والغرب، فاليوم يوم حركة الشعوب، وهي التي ينبغي أن توجه من كان يوجهها من قبل، إعلموا إن قدرتكم الروحية ستتغلب على جميع الطواغيت، وتستطيعون بعددكم البالغ مليار إنسان، وبثرواتكم الطائلة غير المحدودة، أن تحطموا جميع القوى... انصروا الله كي ينصركم.

أيها الجموع الغفيرة من المسلمين، إنتفضوا وحطموا أعداء الانسانية، فإن اتجهتم إلى الله تعالى، والتزمتم بالتعاليم السماوية، فالله تعالى وجنده العظام معكم».

«إن يوم القدس يوم إسلامي، ويوم لتعبئة عامة للمسلمين واني لآمل أن يكون مقدمة لتشكيل حزب المستضعفين في كل أرجاء الدنيا، وآمل أن يشكل حزب بإسم حزب المستضعفين في العالم يشارك فيه جميع المستضعفين ليعملوا على حل مشاكلهم. ويتحدوا للقيام بمواجهة المستكبرين والمستعمرين اللصوص الشرقيين والغربيين، ويخرجوا من ربقة ظلمهم، ويحققوا وعد الإسلام ونداءه بإقامة حكومة المستضعفين ويرثوا الأرض.. لقد كان المستضعفون متفرقين ومتشتتين فلم يستطيعوا فعل أي شيء، أما اليوم وبعد ان لبوا نداء الإسلام فقد أعطو صورة عن إتحادهم في البلاد الإسلامية»...

يضيف الإمام رضوان الله عليه قائلا: «ويجب أن تتكامل هذه الصورة وتجد الوحدة أنصارا من كل فئات الناس لتحقيق حزب المستضعفين الذي هو حزب الله الموافق لإرادة الله تبارك وتعالى في وراثة المستضعفين للأرض... هذا الحزب عليه أن يعمل على حل المشاكل التي تطرأ على اية أمة وذلك بالإتحاد والإرادة القوية».

جاء هذا الكلام للإمام «رض» في خطاب، القاه بتاريخ ١٩/٨/١٩٧٩ م. وهو كلام واضح في أهدافه وطموحاته التأسيسية، وواضح فيما يصبو اليه من إطار مؤسساتي يجمع الحركة الخارجية للقوى المناهضة للدول الكبرى ويربطها بمركز إنطلاق الثورة.. فهذه الثورة أوجدت جوا عالميا واسعا من الوعي بجوانب الاستغلال التي يقوم عليها النظام السياسي الدولي..

والثورة بنظافتها واعتمادها على إمكاناتها الذاتية أكدت حقيقة إمكانية الوقوف بوجه الدول الكبرى... والثورة فتحت آفاقا جديدة أمام التيار المناهض لحالة الظلم الدولية، ولذا فأن الإمام «رض» كان يعتقد واعتقاده هو الأصوب والأسلم بأنه لابد من إطار مؤسساتي ينظم حركة المستضعفين ويحل

مشاكل هذه الحركة ويدفع بها نحو مستويات أرقى من وحدة الجهد بإتجاه القوى الدولية الكبرى التي تحوك المؤامرات تلو المؤامرات للاطاحة بالمد الثوري.

لقد كان الإمام «رض» يسعى إلى تحويل البلاد إلى دولة ثورية... دولة قائمة على مؤسسات متكاملة وذات محتوى ايماني ومبدئي يعكس المبادىء الثورية، ولا يمكن ان يفرز الا خطابا ثوريا يلبي حاجة البعد العالمي للثورة... انها إذاً الدولة الثورية القائمة على المؤسسة الثورية كأجراء استقراري عادم لحالة الفوضى في إتخاذ القرار السياسي وغير السياسي للبلد من جهة اخرى. ويشكل التراكم النصي النظري والتنظيري لأفكارها.

هكذا كانت المؤسسة التي حرص الإمام «رض» على إرسائها. فالمؤسسة كإطار أو وعاء للجهد الجماعي المشترك ليست مهمة بحد ذاتها، إذ أن الحركة الانسانية تقوم بأسرها على صيغ عمل مشتركة وكل الانظمة في العالم تتحرك في أطر وطرق عمل جماعية، ان الإمام «رض» كان يحرص على ايجاد مؤسسة ثورية مسؤولة عن تنظيم وتوجيه الجهد الاجتماعي وغير الاجتماعي داخل وفي حدود مفاهيم الثورة الإسلامية ومادة هذه الثورة المتمثلة بالشعوب... ففي هذه الحالة فقط يمكن أن تكون المؤسسة فاعلة في تحويل الثورة إلى مشروع عمل عالمي لا ينتهي باهتماماته الاقليمية والقطرية. انما يمتد مع الامتداد الأرضي لوجود الإسلام، ويمتد إلى عالم الاستضعاف، وإلى عالم تحديد الجهد الاستكباري وتحطيم أسس الظلم والاضطهاد في الكون، ولا يمكن بطبيعة الحال لمثل هذه المؤسسة أن تحصل إذا لم تكن قائمة على أرضية تمثيلية صلبة لمادة الثورة الإسلامية البشرية ـ عبر قانون الانتخاب الحر ـ كأداة املاها المستوى التعقيدي لأساليب التزوير التي تلجأ اليها الانظمة السياسية الساعية إلى الحصول على غطاء مؤسساتي لها.

إن عبارة مؤسس الجمهورية الإسلامية عندما تطلق على الإمام «رض» فهي تعني:

١ ـ تحطيم المؤسسة التي كانت تعكس إرادة النظام السابق الانحرافية.

٢ ـ الانطلاق في بناء قواعد وأسس جديدة للنظام الإسلامي من خلال تطهير مؤسسة كانت قائمة فعلاً، وتفريغها من الاسلوب والمحتوى الانحرافي، ومن ثم شحنها بالمفاهيم والاساليب الثورية، أو بناء بمفاهيم وأساليب جديدة للمؤسسة في اسمها ومجالها ومهامها الوظيفية.

٣ ـ تحديد الأدوات والشروط الدستورية الضامنة لحركة المؤسسة الإسلامية بكل أشكالها وبما يؤدي بها إلى تحقيق طموح الثورة أو إبقاء أرضية الخطاب الثوري للبلد قائمة مادامت الثورة لم تصل بعد إلى أهدافها الانقاذية البعيدة للعالم الإسلامي.

إن عبارة مؤسس الجمهورية الاسلامية عندما تطلق على الإمام «رض» فهي تختصر بالنقاط الثلاثة المذكورة، أما ممارسة الامام في هذا الاطار فهي تتعدد في الوانها واشكالها بما يمكنه من الحاجة إلى الوصول إلى هدف الثورة من المؤسسة، ولقد انعكس هذا التعدد الشكلي في المجال السياسي والتعييني والتحديدي لمهام القيادة وانعكس كذلك في المجال الدفاعي وفي المجالات الثقافية والاجتماعية ومن خلال ما تقدم في إطار ثابتة الشعوب في خطاب الإمام «رض» ودور المؤسسة المحوري فيها يمكن القول:

١ ـ الشعوب يجب أن تكون محور الحركة الثورية والمبادرة إلى الفعل التمردي على الحالة الانحرافية وفق مقتضيات النص الخطابي للامام «رض».

٢ ـ الشعوب يجب أن تكون حاضرة في أحداث الساحة المختلفة من خلال العملية الانتخابية.

٣ ـ سياسة التوعية كمضاد لسياسة التجهيل هي من ثوابت أرضية رؤيا الامام للتعاطي مع الشعوب.

٤ ـ المؤسسة بكل اشكالها هي الممر أو القناة الرابطة على أية حال.

يمكن ملاحظة الثوابت التالية في سياق النص المذكور: ـ

١ ـ ثابتة التحريك.

٢ ـ ثابتة مقاومة الدول الكبرى.

٣ ـ ثابتة الوحدة الاسلامية.

٤ ـ «الاسلام الرسمي» والاسلام الاصيل.

٥ ـ الشعوب.

٦ ـ الدافع الإلهي.

٧ ـ ثابتة الوضوح.

وفي نموذج جامع آخر ومن نداء للإمام «رض» للحجاج في ذي الحجة ١٤٠٥ هـ. ق نقرأ ما يلي:

«الوضع المأساوي الموجود في البلدان الاسلامية وسائر البلدان المظلومة وليد هذه المؤامرات المشتركة لأعداء المسلمين والمظلومين. والآن إذ تجتمعون بأمر الله ونداء رسوله في مركز الرسالة الإسلامية البنّاءة، وفي هذه المكان العظيم، من كل شعب ومذهب، فكّروا في علاج لهذا الداء المهلك والسرطان القتّال، واعلموا أن العلاج الأساسي إنما يتم في ظل وحدة جميع المسلمين والإجماع التام على قطع يد القوى الكبرى من البلدان الإسلامية، وتجسيد شعائر المواقف الكريمة والمشاهد المشرفة في بلدانكم. والخطوة الأولى تتمثل في إزالة اليأس الذي عمل الشرق والغرب وعملاؤهما على غرسه في قلوب المسلمين ونفوسهم، وجعلوا المسلمين يصدقون بعدم إمكان استمرار حياتهم دون الارتباط بقوة كبرى، وإيران أثبتت حكومة وشعباً في هذه الثورة العظمى تفاهة هذا الفهم وخواءه.

ومع أن القوى الكبرى لجأت إلى انواع الحيل والمؤامرات من أجل إطفاء الشعلة المستعرة في هذا البلد الرامية إلى إحراق آمال الشرق والغرب، فإنّها لم تفلح. وإيران الاسلام اليوم ببركة الايمان القويّ والالتزام بالاسلام والتغيير الكبير المشهود بين الفئات المختلفة قد قطعت يد الشرق والغرب والطفيليات المنحرفة، ولم تسمح لأية قدرة أن يكون لها ادنى تدخل في البلد الإسلامي

إيران، وهذه حجة قاطعة للمسلمين ومظلومي العالم تثبت عدم إمكان التطاول على حق الشعوب أو مخالفتها إنْ أبت الشعوب ذلك، وأن الامة التي تأبى الذل وتختار الشهادة لا يمكن أن تندحر. ولا سبيل أمام الشعوب المظلومة في العالم غير هذه السبيل. وحكومات الشعوب الاسلامية أيضا ـ إن وحدّت خطاها وطريقها مع الشعوب المحرومة ـ فستنجو من هذه التبعية الذليلة التي يُرجَّح عليها الموت ألف مرة، وسترفل بأثواب العزة والقيم الاسلامية».

ان وقفة دقيقة على هذا النص تظهر انه يتشكل من الثوابت التالية: ـ

١ ـ ثابتة «الثبات»

٢ ـ ثابتة مقاومة التخويف.

٣ ـ الوحدة الإسلامية.

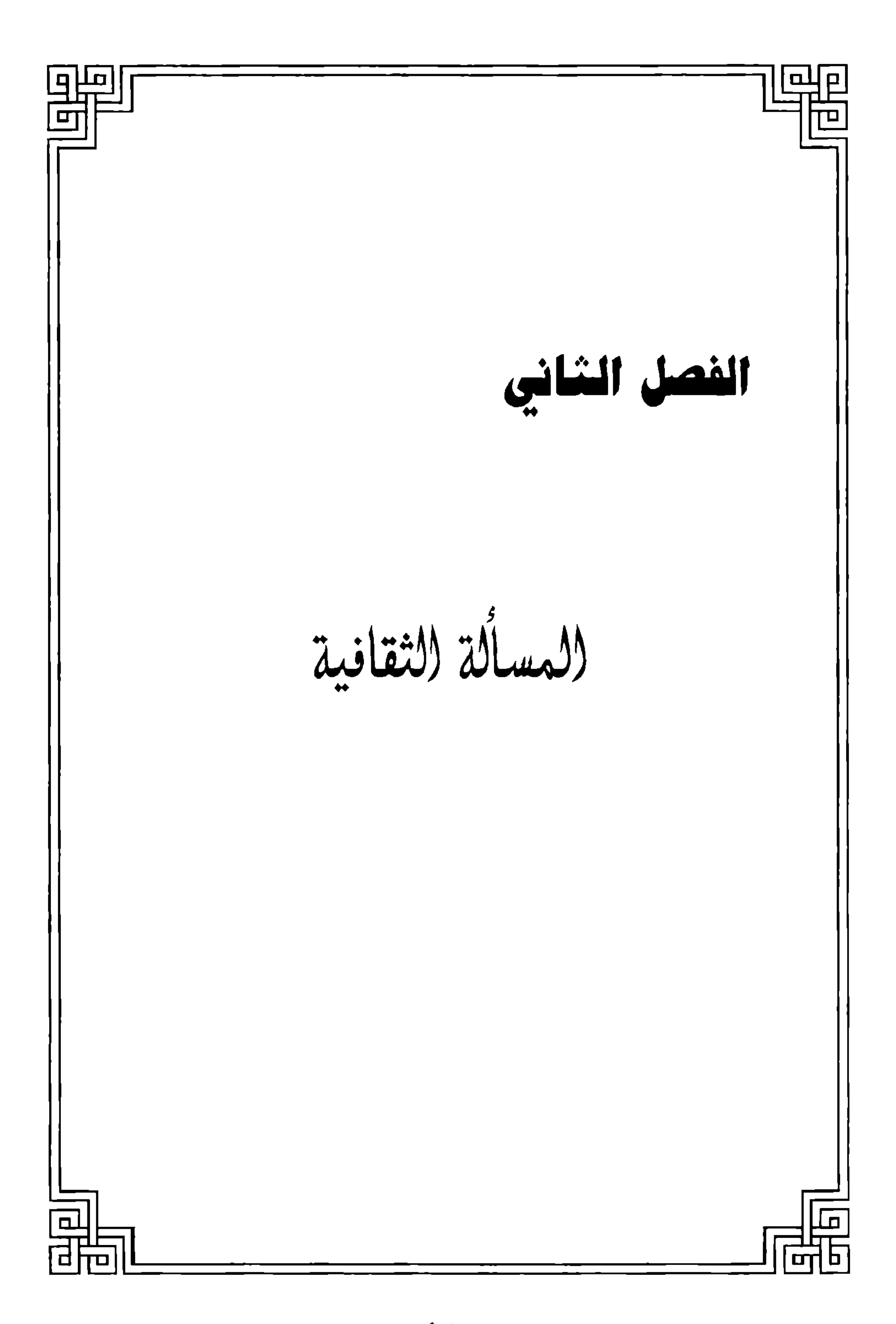
٤ ـ ثابتة التحريك.

٥ ـ الشعوب.

٦ ـ مقاومة الدول الكبرى.

٧ ـ الوضوح.

٨ ـ الدافع الإلهي.



الفصل الثاني

المسألة الثقافية

المؤسسة الثقافية

نحاول هنا أن نقف على الجانب الثقافي الاكثر حساسية من كل الجوانب الأخرى وباتساع مفردة الثقافة من الناحية اللغوية وتداخلها مع كل مجالات الحياة لابد من القول بأن المحور التربوي والتعليمي والحوزوي ببرامجه ومناهجه يعد المكون الاساسي لذاتنا الثقافية، وهو المحور الذي حظي بإهتمام استثنائي لدى الإمام الخميني (رضوان الله تعالى عليه)، مثلما كانت المؤسسة الدفاعية هي الأداة الاضطهادية والقمعية للشعب، كانت المؤسسة التعليمية والتربوية تمثل أداة التخريب الفكرية والثقافية في الوسط الاسلامي، ومثلما استوعب الإمام «رض» خطر الاداة العدوة الأولى استوعب خطر الاداة الثانية بصورة اكبر، وابدى ازاءها حساسية شديدة وعمل على فضح مخططات النظام السابق في هذا الإطار، وما تقوم به مؤسساته الثقافية من ادوار ترويجية للثقافة الغربية، وما تؤديه المناهج التربوية من تشويه لتاريخ وعقيدة الأمة الإسلامية ومن إساءة لعلماء الدين. . . لقد إتجه خطاب الإمام التنديدي الفاضح لسياسة الشاه التربوية إلى طلاب الجامعات وإلى الأساتذة.

الجامعـة:

لقد شكلت الجامعات المحور الأساسي لإهتمام الإمام «رض» بالتعليم كمؤسسات يجب أن تقوم على كادر تعليمي نظيف وغير مرتبط بالدوائر الكبرى، وعلى مناهج تعليمية تنسجم مع أهداف الثورة وتحقق الذات الثقافية، بعد غياب طويل، حتى ولو استغرق تبديل هذه المناهج وقتاً طويلاً فماذا ترجو الأمة من جامعة تروج مفاهيم الغرب، سوى الإساءة إلى هذه الأمة بتراثها وثقافتها

وتاريخها وفكرها، ما عسى أن تفعل مثل هكذا جامعة سوى إيقاع الأمة في قبضة الدول الكبرى، من هنا فإن الإمام الخميني راح يردد أمام وزير خارجية تركيا في حزيران ١٩٧٩ م، ها هو الإمام يقول، إنه «خلال السنوات الخمسين من الحكم الجائر في إيران كانت الجامعات موجودة واساتذة الجامعة موجودين، فما الذي عملته الجامعة وما الذي عمله الأساتذة سوى انهم اوقعونا في قبضة القوى الكبرى... إنها لمأساة أن تقع سبل العلم بيد افراد بعيدين عن الإلتزام وعن التفكير بأمور بلدهم... إنها لمأساة أن تكون سبل العلم في قبضة من ليس له خلق اسلامي ولا التزام».

أمام من يردد الإمام «رض» هذا الكلام؟. أمام وزير خارجية تركيا... الدولة ذات الخصوصية في التاريخ الاسلامي.. وذات الخصوصية في الخروج على الذات الفكرية والثقافية للاسلام... وذات الخصوصية في نقل المفاهيم الغربية عبر المؤسسة الجامعية والتعليمية إلى الأمة الإسلامية... إنه ليس كلاماً عادياً هذا الذي تقدم على لسان الإمام «رض»... إنه صرخة إحتجاج على تشويه المؤسسة التعليمية ليس في إيران.. إنما في خارج إيران... انه لون من ألوان النشاط للإمام «رض» بإتجاه إرساء المؤسسة الجامعية الفاعلة النابذة لقيم الأخرين والمكرسة لقيم الإسلام و: «الجامعات بمقدورها أن تغمر العالم بالنور ـ أن قرنت التعليم بالخلق الإنساني وبمسايرة الفطرة الإنسانية، وأن إنفصل العلم والتخصيص عن الأخلاق والتهذيب والوعي والإلتزام فسيؤدي إلى هذا الذي جره المفكرون والمتخصصون والجامعيون حتى الآن من مصائب على هذا العالم» كما يقول ذلك الإمام «رض» بمناسبة يوم وحدة الجامعيين وعلماء الدين في ١٠ صفر/ ١٤٠١ هـ .

فهذا الكلام يرسم ولو بصورة عامة المنهج الذي يجب أن يسود في المؤسسة التربوية والتعليمية، المنهج المراعي للعلم والأخلاق إذ أن تجريد هذه المؤسسة من الأخلاق سيحولها إلى مؤسسة مخربة وسيحول رموزها وأساتذتها إلى أدوات تبعية تجر الأمة إلى الشرق والغرب كما يقول أمامنا في نفس المناسبة المذكورة.

يقول الإمام «رض»: «هؤلاء الذين تخرجوا من الجامعات، واحتلوا مناصب في الوزارات هم الذين جرونا إلى شراك الشرق والغرب وجعلونا تابعين لها. نحن إذ نطالب باصلاح الجامعة. والتعليم، لا نرفض وجود الجامعة بل نريد جامعة تخدم البلد و الأمة. . . إن جامعة تخدم امريكا أولى لها أن تزول» إن هذا التركيز المكثف من قبل الإمام «رض» على إستقلالية الجامعة والمنهج الإسلامي الذي يجب أن يسودها، والكادر الاسلامي الذي يجب أن يديرها يشكل أحد أهم محورين قام عليهما جُهد الإمام في إطار التعاطي مع المسألة الثقافية، وما تشكله المؤسسات الجامعية والتعليمية من محور رئيسي في دائرتها، فالمسالة الثقافية هي بدرجة من الخطورة بحيث يقول الإمام «رض» بصددها في حديث له في ٥ جمادي الثاني ـ ١٤٠٠ هـ: «نحن لا نخْشى المحاصرة الإقتصادية، نحن لا نخْشى الغزو العسكري، خوفنا من التبعية الثقافية، خوفنا من الجامعة الاستعمارية. نحن نخاف من جامعة تربّي شبابا بشكل تجعلهم في خدمة الغرب، نحن نخاف من جامعة تربّي شبابنا بشكل تجعلهم في خدمة الشيوعية».

ومن هنا يصبح واضحاً لماذا يعطي الإمام الخميني ـ «قدس الله سره الشريف» اهمية إستثنائية إلى المراكز العلمية والتربوية والجامعات في وصيته المباركة؟ فهو يقول في وصيته: «قضية المراكز التعليمية والتربوية من دور الحضانة إلى الجامعات هي من القضايا المصيرية المهمة التي كررت الحديث عنها مراراً لأهميتها الإستثنائية».

وهذه العبارة لاشك أنها تلقي الاضواء على دقة تشخيص الإمام لمحاور الصراع الخطيرة واسسه واسباب الإنتصار فيه، فالمجال التعليمي والتربوي يمكن أن يشكل احد محاور الصراع الأساسية في هذا الإطار، فبأختراقه اخترقت حصانة الأمة الإسلامية، وبصيانته ستضمن الأمة اصالة فكرها وثقافتها، فهذا المجال يبقى جزءاً أساسيا من العقل المفكر للأمة كما يقول الإمام، كما إنه يشكل عصب المجتمع وخلاصة طاقته الفكرية والإبداعية، والمحرك الذي يصنع موقع الأمة الصراعي والحضاري في العالم، ونظراً لأهميته كانت الجهود الغربية

الإستعمارية قد أنصبت عليه لتحدث تغييراً في كل مجالاته: في مناهج التعليم والتربية، وفي الجهاز التعليمي التربوي، وفي طريقة الحياة الجامعية، فعلى صعيد المنهج والمادة التدريسية، عرفت القوى الكافرة كيف توصل مناهجها إلى كل مدارس العالم الإسلامي وجامعاتهِ، لتدريس ابناء المسلمين تأريخاً مزوراً منحرفاً، مفرغاً من كل عناصره الثورية والإيجابية والتحريرية، تاريخاً سلبياً في رموزه ووقائعه ونسقه، وفي الجانب الثقافي والفكري، فأن منهج التدريس ونوع المادة المدرسة وضعا على أساس ان كل منجزات العلم كانت افرازاً للفكر الغربي، وكل الإكتشافات والتطور الحياتي والصناعات الكبرى كانت نتيجة من نتائج هذه الثقافة، وهذا الفكر الغربي، وبالتالي فإن ابناء المسلمين، يتخرجون من مدارسهم وجامعاتهم وهم خاضعون لعقدة التغريب، ويحسون بالصغر أمام العالم الغربي، ويحاولون الإقتداء به واللهاث وراءه، بعد أن أشبعوا بالمفاهيم الإنحرافية، والتاريخ المنحرف والفكر المنحرف.

وتتعاضد في إيصال الأمور إلى هذا الحد مع مفاهيم التدريس والمادة المدرسة، الاداة التدريسية، الأساتذة الذين يكون لهم الدور الأكبر في صياغة شخصية ونفسية الطالب وأرضية الاعتقاد لديه و تكوينه الثقافي والمعتقدي، كما أن العنصر الثالث هنا، هو طريقة الحياة المدرسية والجامعية القائمة على الإنحلال والتمييع وإختفاء الجانب الأخلاقي والمعنوي لدى الطالب. والاختلاط المروج للرذيلة.

والآن قطعت الثورة الاسلامية في أيران شوطاً كبيراً في تطهير المؤسسات التعليمية، وارساء الأسس الإسلامية في بناء المؤسسات التربوية وتهيئة الكادر التدريسي الملتزم بثقافته وفكره الإسلاميين، ولا شك بان ذلك تطلب جهوداً كبرى بذلت خلال السنوات الأحدى عشرة من عمر الثورة، ويقول الإمام «رض» في هذا الإطار في نداءٍ له إلى حجاج بيت الله الحرام غرة ذي الحجة ١٤٠٥ هـ، ق يقول: «انتم اليوم تغلبتم في الناحية الثقافية على الثقافات النتنة، الشرقية والغربية، وعلى الثقافة «الشاهنشاهية» المنحطة التي دفعت بشبابنا الأعزاء أفواجاً إلى الفساد، وسخرت جامعاتنا لخدمة الغرب ولخدمة الشرق

أحياناً، وأنتم اليوم قد سحقتم تحت أقدامكم الثقافات التي كانت قد جعلت من شعبنا شعباً تابعاً مستهلكاً راضخاً للمتجبرين، وكانت قد نشرت فيه الفحشاء والفساد والإدمان بشكل متزايد، حتى أوشك أن يبتعد عن الاخلاق والإنسانية.

(أنتم) أحللتم بدل ذلك الشرف الإنساني والتقوى والشهامة والشجاعة والصبر والمقاومة والمروءة والتعاون في البر والتقوى والإهتمام بمصالح الشعب والوطن. وانتم الآن تتقدمون فخورين لنشر الثقافة الالهية».

وبالتأكيد يبقى هذا الإنجاز بحاجة إلى عين راصدة ساهرة لأوضاع المؤسسات التعليمية وبحاجة إلى جهود اضافية تكمل المسيرة وتضع ضمانات ديمومتها وتقطع الأيدي المنحرفة وتحول دون عودتها ثانية اليها. فالجانب التربوي يبقى اكثر من كل الجوانب الأخرى استهدافاً من القوى الكبرى لأنه كان «المعمل» الذي ينتج نماذج ورموز الساسة الذين يتسلمون زمام امور البلد. وكان المجال الذي يترعرع فيه أولئك الذين ترشحهم هذه القوى للإمساك بناصية الأمور، فاذا ما أقفلت هذا المجال بوجه القوى المنحرفة، وأعددت الكادر التدريسي الملتزم بمبادىء الإسلام تكون قد اغلقت أهم نافذة للغزو الفكري والثقافي الإستعماري وضمنت إستقلال البلد الفكري ومستقبله السياسي، فالسياسة هي بالتالي نتاج الأفكار والتعبير عنها بأساليب مختلفة، ولا يمكن القضاء على التبعية السياسية مالم يُقضى على التبعية الفكرية والثقافية.

إن تاريخ الجامعات ليس في إيران فحسب، بل في عموم العالم الاسلامي، يحكي قصصاً عديدة عن دورها ـ أي الجامعات ـ في تحديد سياسات هذا العالم، وعن التدخل الخطير الذي أوجدته الدول الكبرى فيهما على اساس خطورة هذا التدخل وابعاده وآثاره. ومن هنا يوصينا الإمام الخميني «قدس الله سره الشريف» بصورة ملحة وبطريقة استثنائية يوصينا ويكرر الوصية أن أحرسوا المؤسسات التربوية بدءاً من دور الحضانة وانتهاءً بالجامعات والمعاهد العليا، ففي حراستها ضمان مستقبل الأمة، وقدرتها على إدارة الصراع واستقلاليتها السياسية، والإطمئنان إلى حركة الفكر الإسلامي الأصيل، وفضلاً عن هذا و ذاك فإن صيانة الجامعة وتحصين المجال التربوي بصورة عامة،

يشكلان الضمانة المستقبلية للإكتفاء الذاتي، فهذا الاكتفاء لايمكن أن يتحقق إلاّ بإرساء الأسس التي تصنع جانب الإبداع والإبتكار وهو الجانب الذي تقوم فلسفته بالأساس على الثقة بالنفس، والإعتماد على الذات، فالقوة النفسية والإطمئنان إلى الذات هما شرطا الإبداع العلمي والفكري، ولقد كرست سنوات الثورة الإسلامية المنصرمة، هذه الحقيقة في اكثر من مجال من مجالات الحياة واستطاع الخبراء الإسلاميون أن ينقلوا البلاد نقلة كبرى بإتجاه الاكتفاء الذاتي لاسيما في المجالات التصنيعية، ومن هنا يتضح كيف تفعل الجامعة دورها في السياسة والاقتصاد، ويتضح لماذا يكرر الإمام الخميني ـ قدس الله سره الشريف ـ ويؤكد هذا التأكيد بأن ضمانة الجامعة هي ضمانة البلاد وإهمالها هو ضياع للأمة في متاهات التبعية للتيارات الفكرية المنحرفة.

ويتضح ايضاً لماذا يقول الإمام «رض» في وصيته: «أن الجامعات كانت مصدر القسم الرئيسي من الضربات القاصمة التي وجهت إلى ايران والأسلام خلال العقود الخمسة المنصرمة فما كان لوطننا أن تبتلعه انجلترة وبعدها امريكا وروسيا لو كانت الجامعات وسائر مراكز التربية والتعليم تدار وفق مناهج إسلامية ووطنية وتسير بإتجاه مصالح البلد في تربية الأطفال والأحداث والشباب، ولو كانت تلك المراكز تدار وفق هذه المناهج لما كان ممكنا قط أن تفرض على الشعب المحروم المنهوب، الإتفاقيات المهلكة للحرث والنسل ولا أن تطأ أقدام المستشارين الأجانب أرض أيران».

الحوزة العلمية:

أما المحور الثاني في هذه الدائرة، فهو المحور الحوزوي الذي عانى ما عانى من ممارسة أضطهادية على يد الأنظمة التابعة، واستهدف من خلال خطط الدول الكبرى، وتحول إلى هم من هموم باذلي الجهود الثقافية المعادية للإسلام ومراكز الإشعاع الثقافي فيه.

ولا تكتمل رؤية جهد الإمام في إطار المسألة الثقافية مالم نقف على الطريقة التي تعاطى بها مع المحور الحوزوي...

ونقول بهذا الصدد: إنه بقدر ماكان المحور الاول مستهدفاً من خلال المناهج الغربية الساعية إلى سحق الذات الإسلامية الفكرية والثقافية، فإن الثاني كان مستهدفاً من خلال الانظمة التي تضع القيود على الحركة الثقافية التي تحصل على هذا المحور وتحاصر هذهِ الحركة ورموزها وتواجهها بحرب دعائية ضارية وتحاول أن تتعاطى معها بنفس خاص عازل بينها وبين الجامعة التي تشكل عماد المحور التعليمي المذكور.

حتى إن الإمام رضوان الله عليه بإعتباره رمزاً من رموز الحوزة العلمية الكبار كان يقول بأن هنالك مؤامرة لإيجاد فواصل بين الجامعة والحوزة، وبأن هنالك ظروفاً وهمية يُراد من ورائها تمرير الجهد الثقافي المعادي وتعطيل الحركة الثقافية الإسلامية وإلى هذا النص الذي يسلط الضوء على جزء من تلك الصورة، يقول الامام «رض» في لقائه باساتذة الجامعات وعلماء الدين والمسؤولين بمناسبة عيد الأضحى المبارك ١٠/ ذي الحجة/ ١٤٠٥ هـ . ق يقول:

«نعقد اليوم مقارنة بين الوضع السابق والراهن على بعض الأصعدة، وهذه المقارنة ينبغي أن تبدأ من هذا المجلس، إنَّه من بركات هذه الجمهورية أن يجتمع في مجلس واحد أولئك الذين ما كان بالامكان اجتماعهم في العهود المبادة في هذه المجالس، تعلمون جميعاً أنه في السابق ما كان بين علماء الاسلام وحوزة قم العلمية وعلماء طهران وسفراء البلدان الصديقة واساتذة الجامعات ومسؤولي الدولة إجتماع كهذا تتآلف فيه القلوب ويتم تدارس المتطلبات وسبل العمل. كانوا قد بثوا الاختلافات داخل البلاد، بحيث كان عالم الدين يخشى ان يذهب إلى الجامعة ويقول ما يريد، وهكذا كان الجامعي يخشى ان يذهب إلى رحاب المدارس العلمية «الدينية» ويطرح مسائله».

وفي نص آخر رابط بين الجامعة والحوزة يقول الامام «رض» في نداء له إلى حجاج بيت الله الحرام ١ ذي الحجة ١٤٠٦ هـ . ق:

«فيا أيتها الحوزات العلمية والمحافل الدراسية الجامعية! انهضي وانقذي القرآن من شر الجاهلين المتنسكين والعلماء المتهتكين الذين يهتكون حرمة

القرآن عن عمد وجهل. وأقول عن جد لا عن مجاملة، اني آسف على ما فات من عمري من خطأ وجهل، وانكم يا أبناء الاسلام الغيارى في الحوزات والجامعات ابعثوا في الحوزات والجامعات يقظة تدفعها إلى الاهتمام بشؤون القرآن وأبعاده المختلفة الكثيرة. إجعلوا تدريس القرآن نصب اعينكم في جميع أبعاده، كي لا تندموا وتأسفوا لا سمح الله على ما فات من شبابكم حين يهجم عليكم ضعف الشيب في آخر العمر، مثل كاتب هذه السطور».

وفي نص آخر يبلور طبيعة الموقف بين الحوزة والنظام «الشاهنشاهي» السابق، يقول الامام «رض»: «لقد علم هؤلاء جيداً أن نفوذ علماء الدين يحول دون وقوع البلد في أسر بريطانيا تارةً، وفي أسر امريكا تارةً اخرى، نفوذ علماء الدين يحول دون وقوع اقتصاد ايران بيد اسرائيل.. لو كان لعلماء الدين نفوذ لصفعوا هذه الحكومة على وجهها ولصفعوا هذا المجلس «مجلس النواب الصوري» على وجهه ولطردوا نوابه.. لو كان لعلماء الدين نفوذ ما سمحوا لعميل امريكي ان يعبث كيف شاء ولطردوه من ايران».

لقد جاء هذا النص في كلمة للامام «رض» القاها في ٣٠ جمادي الثاني ١٣٨٤ هـ.

ولأن علماء الدين ـ رواد الحوزة العلمية ـ فإنهم حوصروا من قبل النظام «الشاهنشاهي» والانظمة التابعة الأخرى وقوبلوا بسياسة عازلة لدورهم الثقافي والفكري.. فمارس الإمام «رض» الذي ادرك أبعاد هذهِ السياسة بعد الثورة الإسلامية في ايران جهوداً رابطة للحوزة وللجامعة كمؤسسة ثقافية وتربوية أخرى وركز على إسقاط كل الفروقات التي وضعت بين الاثنتين وعمل على ايجاد جو تكاملي لعمل المؤسستين... حتى أن جهود الامام «رض» أدت في النهاية إلى اعلان اسبوع للعلاقة بين الجامعة والحوزة ولا تخفى بالتأكيد دلالات هذا الإعلان التكاملية والإهتمامية، فالامام «رض» كان يسعى إلى دمج الطاقة الثقافية الإسلامية دمجاً لا يؤدي إلى قتل الحاجة التخصصية وأنما يؤدي إلى جعل الوازع الاخلاقي هو المحور الذي يدور حوله العلم الانساني بشتى مجالاته.

كما أن الإمام «رض» يسعى إلى إنتاج المؤسسة الثقافية التي تعكس

المفاهيم الإسلامية الأصيلة وتقف بوجه المفاهيم المنحرفة كمفاهيم فصل الدين عن السياسة أو فصل الدين عن العلم، وإذا كانت جسور العلاقة بما تؤديه من مهام تكاملية بين الجامعة والحوزة كمؤسستين تملأ الجزء الاكبر من المساحة الثقافية. . . إذا كانت هذهِ الجسور التي أرساها الإمام ـ قدس الله نفسه الزكية ـ تعكس وبعمق مدى إهتمامه بهذا الجانب المؤسساتي الثقافي، فلقد كانت هنالك الوان اخرى من الارشاد أو التنظير أو التوجيه التي يمارسها الإمام «رض» قد تكمل الصورة وتوضح ملاحقته أيضاً للأداة الثقافية كالاعلام مثلاً وما يقوم به من دور مصيري على صعيد المسألة الثقافية وبإختصار يمكن القول أن اهتمامات الامام «رض» توزعت على كل المجالات التي يمكن أن يعطيها المعنى اللغوي لمفردة الثقافة، ولكن في الدائرة الأضيق كان مهتماً بالمحورين اللذين تقدما وهما محور الجامعة ومحور الحوزة العلمية وما تعرضتا لهما من أشكال اساءة تهدف إلى سلخهما عن اصالتهما الإسلامية.

على أية حال تبقى الحوزة العلمية هي المدرسة التاريخية الصائنة لعلوم الفكر الإسلامي والمؤسسة التي قامت بدور دفاعي رائد عن هذا الفكر في لحظات «التحدي» الفكري، وساهمت مساهمة فعالة في الحفاظ على التراث الإسلامي، والوقوف بوجه محاولات طمس هذا التراث وتحريفه، كما لا يمكن أن يُنكر الدور الحوزوي في ترجمة الجهاد الإسلامي إلى واقع حياتي في وسط الأمة من خلال قيادات قادت العمل الجهادي ضد مظاهر الفردية والإستبداد والظلم في فترات متفاوتة، وكان آخر هذه القيادات واكثرها وعياً للمهمة الجهادية في الفكر الإسلامي، هي قيادة الإمام الخميني ـ قدس الله نفسه الزكية ـ هذه القيادة التي اعادت إلى الإسلام مجده وأسست له كياناً سياسياً جديداً، بعد أن مزقت الدول الكبرى العدوة آخر كيان إسلامي سياسي له وحاولت جاهدة أن تنهي طرح الدولة الإسلامية وأن تضع البدائل لصنع الدولة مكانها. . . بدائل الدولة القومية والدولة القطرية والدولة «المطعمة»، إن قيادة الإمام الخميني «رض» هي تجسيد لما يمكن أن تنتجه الحوزة العلمية من رجال وتجسيد لدورها في مقارعة المفاهيم المنحرفة تلك.

يقول الإمام «رض» في اهمية الحوزة ودورها الدفاعي عن الأسلام بتاريخ ١١/آذار/١٩٨٩ م ما يلي: «لاشك أن الحوزات العلمية والعلماء المبدئيين كانوا على مدى تاريخ الإسلام والتشيع قاعدة الإسلام الحصينة في مواجهة الهجمات والإنحرافات. لقد سعى علماء الاسلام العظام جاهدين طوال حياتهم من أجل ترويج قضايا الحلال والحرام والإلهية دون تدخل ولا تصرف ولولا أولئك الاعزة من الفقهاء لما علم أي علوم محرفة كانت ستقدم لعامة الناس تحت غطاء انها علوم القرآن والاسلام وعلوم أهل بيت النبوة عليهم السلام، فلم تكن يسيرة مهمة جمع وحفظ العلوم القرآنية وآثار الرسول الأعظم واحاديثه وسنة المعصومين وسيرتهم. ولم تكن يسيرة مهمة تدوين وتنظيم وتنقيح وتحقيق تلك العلوم، فقد انجزت بامكانات ضئيلة للغاية وانجزت في ظل حكم السلاطين والظلمة الذين جندوا كافة إمكاناتهم لمحو آثار ومعالم الرسالة الحقة. نعم لم تكن تلك المهمة يسيرة، ولكنا ولله الحمد نشهد اليوم ثمار الجهود المضنية لاولئك الفقهاء الأعزة نشهدها متجلية في الكتب والمصنفات المباركة أمثال الكتب الأربعة والمصنفات الاخرى للمتقدمين والمتأخرين في الفقه والفلسفة والرياضيات والنجوم وعلوم الأصول والكلام والحديث والرجال والتفسير والعرفان واللغة وسائر العلوم الأخرى، ومالم نسمي كل تلك الجهود والمشاق جهاداً في سبيل الله فأي تسمية يمكن أن نطلق عليها، الحديث عن بعد الخدمات العلمية للحوزات الدينية طويل لايسعه هذا المختصر».

ومن هنا كان الإمام «رض» يؤكد على الدوام بضرورة الحفاظ على الحوزة العلمية وتدعيمها، وكان يوصي بضرورة تماسكها وإخضاعها إلى النظام الذي يساهم في صيانتها، فالحوزة بلا نظام تبقى مجالاً مفتوحاً للاعداء لكي ينفذوا من خلاله، ويقوموا باكثر من دور خطير.. يقومون بتحريف المفاهيم الفقهية أو إثارة الخلاف والشقاق والتناحر بين علمائها أو في أوساط الطلبة.. يمكنهم أن يمارسوا تزييف مبادىء الإسلام عبر التظاهر باحترام هذه المبادىء، ويمكنهم أن يصوروا الإسلام على انه مجموعة فتاوى أو أحكام تقليدية.. وهي كلمة السر التي بقيت الأجيال تتناقلها من جيل إلى جيل.

وهذه الأخطار هي ليست إحتمالية في المستقبل.. إنما تجربة الحوزة العلمية عانت منها ووجدت في بعض الأحيان جهدها الجماعي مربوطاً بهذه الأخطار، مربوطاً بمفاهيم عزل الدين عن السياسة... مربوطاً بآراء «القدسية» المزيفة التي تدعي خصوصية العلاقة مع الله سبحانه وتعالى.

وما يخص التظاهر بالقدسية يقول الامام في ١١/آذار/١٩٨٩ م «وماهو بالضئيل خطر تحجر الحمقى من المتظاهرين بالقدسية في الحوزات العلمية فلا يغفل الأعزاء طلبة العلوم الدينية ولا للحظة عن هذهِ الأفاعي ذات الظاهر الحسن والمضلل فهؤلاء مروّجو إسلام أميركا وأعداء رسول الله. ألا ينبغي أن يحفظ اتحاد الطلبة الأعزاء في مواجهة أفاعٍ كهذه؟!».

هذا في حين أن الوسط الإجتماعي الإسلامي يمكن أن يتأثر في جزء منه بأساليب التزييف والتحريف تلك، مما يضاعف من حالة الخطر ويضيف اليها خطر ان رجل الدين الذي يجب أن يكون مجسداً للقيم والمعاني الإسلامية، وإذا به يمرر مفاهيم غريبة على الرسالة. إن تنظيم شؤون الحوزة العلمية يمكن أن يضع حداً لظاهرة الإندساس في الوسط الحوزوي المفتوح، وأن يتحول إلى حزام واقٍ يصون هذه المؤسسة، ولذا بقيت فكرة التنظيم هي الأخرى مستهدفة، لكي لا تأخذ مجالاتها التطبيقية في الحوزات العلمية، ففي هذا المجال يقول الإمام «رض» في خطاب له لعلماء الدين (كيهان العربي العدد ١٦٠٦) «مهما يكن الحال فإن زبدة الموضوع هي حول، ما الذي يجب عملُه لمنع تكرار تلك الحوادث المؤلمة والوصول إلى درجة الإطمئنان من تحقق القضاء الكامل على تسلل الأجانب في الحوزاتُ الدينية، فما الذي يجب عمله؟ الأمر صعب ولاشك... ولكن لا مناص يجب فعل شيء... إن الواجب الشرعي والالهي الاول هو حفظ الوحدة والتلاحم بين الثوريين من علماء الإسلام وطلبة علومه، وبغياب ذلك فأمامهم ليلة مظلمة وقلق امواج وأعاصير عاتية».

وكما يسلط إمامنا الراحل «رض» الضوء على ذلك حيث يقول في وصيته المباركة:

«ونعلم أن للقوى الكبرى الناهبة احتياطياً في المجتمعات من أفراد، بعناوين شتى من الوطنيين والمثقفين الزائفين المتلبسين بزي العلماء الذين لو سنحت لهم الفرصة لكانوا أشد خطراً واضراراً، وأمثال هؤلاء يعيشون بين الشعب متحملين بصبر مشقة الإستمرار ثلاثين أو أربعين سنة في التظاهر بسلوك إسلامي وقدسية وقومية فارسية ووطنية واقنعة أخرى لتنفيذ مهمتهم في الوقت المناسب، وقد شاهد ابناء شعبنا العزيز في الفترة القصيرة التي تلت انتصار الثورة الإسلامية نماذج كمجاهدي خلق وفدائيي خلق والشيوعيين وغيرهم ويجب على الجميع أن يحيطوا بيقظة هذا القسم من المؤامرة ويتأكد هذا الواجب اكثر من الجميع على الحوزات العلمية، وتقع مسؤولية تطهير وتنظيم هذه الحوزات على الأساتذة الموقرين والأفاضل ذوي السابقة الحسنة بتأييد من مراجع كل عصر، ولعل مقولة أن نظم الحوزة في عدم نظمها من الإيحاءات المشؤومة لنفس المتآمرين ومخططي المؤامرة». إنه إيحاء مشؤوم، هذا الذي تعكسه مقولة عدم تنظيم الحوزات العلمية.. إيحاء تآمري يسعى إلى إبقاء هذه المؤسسة أسيرة للفوضى وسهلة على اساليب الإختراق والإندساس، ويهدف إلى ابقائها كمجال خصب لتمرير المفاهيم الشاذة وإلاّ فكيف يكون التنظيم للحوزة أمراً «عبثيا» في حين أن سنة الكون والحياة تقوم على أساس هذا التنظيم؟

وكيف يتحول مفعول هذا التنظيم إلى مفعول سلبي يعكس ايجابيته الطبيعية المعتادة؟ إن ما يخشاه أولئك المنادون بعدم تنظيم الحوزات العلمية هو أن يتحول هذا التنظيم إلى أداة ضبط وتماسك وصيانة وبالتالي أداة تطوير تساهم في دفع العطاء الحوزوي إلى الإمام، وما يخشونه هو أن تصبح مهمة التطهير مهمة سهلة التنفيذ في ظل النظام. تطهير هذه المؤسسة من الرموز المنحرفة والمخربة والهدامة والمشاغبة، ومهما يكن من أمر يبقى تركيز الإمام «رض» على الجانب الأخلاقي في المنهاج الحوزوي قائماً بإلحاح فهو يقول في خطاب له مع أساتذة الجامعات وعلماء الدين والمسؤولين بمناسبة حلول عيد الأضحى المبارك ١٠/ ذي الحجة/ ١٤٠٥ هـ ـ ق يقول: «وعلى الحوزات العلمية أن تهتم بالجهاد

والأخلاق، وأن يكون لها درس أخلاق، لا درس واحد ولا إثنان، أن يكون لها عشرة دروس، عشرون درساً.

إذا أردتم أن يكون مستقبل بلدكم مشرقاً، فاهتموا بتربية أولئك الذين ينخرطون حديثاً في الحوزات. وحيثما يدرسون، ربوا الأفراد تربية تجعلهم يهاجرون من هذا العالم وينشدون ما وراء هذه الدنيا، ليكونوا روحانيين.. أي ليرموا بأبصارهم إلى الطبيعة لتكن الخطوات منذ بدايتها نحو ذلك العالم».

من خلال ما تقدم يمكن أن نقف على ما يلي: ـ

أولاً: أن الإمام «رض» بذل جهوداً كبرى من أجل تطهير الجامعة من الكوادر والمناهج المنحرفة التي تمثل الثقافة الغربية والشرقية.

ثانياً: وتطّرق لجامعة قائمة على مناهج جديدة ممثلة للثقافة الإسلامية الأصيلة.

ثالثاً: إن الإمام «رض» بذل جهوداً تحذيرية كبيرة من الخط «العلماني» المتظاهر بالقدسية في الوسط الحوزوي.

رابعاً: وطالب بحوزة قائمة على التنظيم اولاً، وعلى إدخال دروس الأخلاق في منهجها الدراسي ثانياً.

خامساً: إن الإمام حرص على تأسيس علاقة خاصة بين الحوزة والجامعة واعتبر أن هذه العلاقة هي ضمانة البعد التكاملي للحركة الثقافية الإسلامية.

سادساً: إن عمل الإمام الثقافي إتصف بنوع من الشمولية في تخريب الجهد الثقافي المعادي وفي إيجاد البدائل الثقافية التي تمثل أصالة الإسلام وبما تتطلبه هذهِ البدائل من تنّظير شمل المنهج الثقافي والأداة الثقافية والوسط الثقافي.

التبعية والتغريب:

كان الامام الخميني ـ قدس الله نفسه الزكية ـ كثير التركيز على المحور التعليمي والتدريسي والتربوي في احاديثه وخطاباته ودروسه.. حتى ليشعر المرء

ان الإمام «رض» يتعاطى مع هذا المحور بحساسية واضحة ويحاول أن يكرر الفكرة أو التوجيه في داخله اكثر من مرة، وان يطيل الحديث به اكثر من المعتاد، وأن يطرح المفهوم المرتبط به بأكثر من صيغة، وكأن كل هذا التركيز والنفس الطويل والتكرار والاصرار على ملاحقة جزئيات المحور المذكور. . . كأن كل ذلك الوان لمطاردة التبعية الفكرية واستيعاب عميق لأثار هذه التبعية الفكرية في كل مرافق الحياة. . . استيعابٌ لمخاطرها وتأكيدٌ على ضرورة ملاحقتها ومتابعتها، ولأنّ المحور التعليمي والتربوي هو الأقرب إلى هذا المجال الفكري فلقد اعطي اهتماماً استثنائياً في رؤية الإمام التي تركز على الذات الفكرية الإسلامية وكأنها سر المواجهة التاريخي والآني بين العالم الأسلامي والغرب، ففي كل مراحل ومحطات واحداث هذه المواجهة كان هنالك مسلسل من المحاولات الغربية الساعية إلى تغيير صياغة عقل الأمة واعادة تشكليل تفكيرها واسقاط ثوابت التمسك بالأصالة في العقل الأسلامي الجماعي. . . لقد اختزن التاريخ الصراعي للعالم الأسلامي الشواهد الحية العاكسة لهذا الهدف الغربي. . وفي الساحة الإسلامية الآن العديد من الأمثلة على مخلفات هذه التبعية الفكرية برموزها ومؤسساتها ومشاريعها وبحالة الضياع التي وصل اليها العالم الأسلامي في ظل نماذج أنظمة الحكم التابعة والمنتمية إلى مدرسة الغرب الفكرية. . . كان الامام «رض» يقول في كلمة له أمام موظفي مدرسة الشهيد مطهري بتاريخ ١٠/ ١٢/ ٥٩ هـ / ش مايلي: «لو وجدت اتجاهات وميول شرقية أو غربية بين معلمينا، فأن بلادنا ستميل اما إلى الشرق أو الغرب وسوف تكون خالية من محتوى الجمهورية الإسلامية التي شعارها: لا شرقية ولا غربية. . . إن ما يردده بعض الأفراد حول عدم العمل بمثل هذهِ التهذيبات وأن أي معلم يجب أن يربي الأطفال والشباب كيفما يريد، هو الانحراف بعينه أو مخالفة لمبادىء الدين الإسلامي».

وفي كلمة للإمام «رض» مع طلبة دار المعلمين في شيراز وأصفهان واراك يقول: «اذا كان المعلم أو المعلمون لا سمح الله على غير طريقة الحق، وعلى غير الصراط الالهي المستقيم فأن الأعوجاج الموجود في المعلم سوف ينتقل إلى

نفوس شبابنا ويسوقهم نحو الانحراف إما إلى الشرق أو إلى الغرب... ان الجمهورية الإسلامية هي بحاجة إلى تربية وتزكية النفوس، حيث ان جميع طبقات الشعب وجميع الشعوب هي بحاجة إلى التربية والتزكية، وبحاجة إلى التعاليم والتوجيهات التي جاءت بواسطة الانبياء... ان مجرد القول بأنه جمهوريتنا هي إسلامية لا تكفي... ان جمهوريتنا ستكون إسلامية عندما تسودها الحكومة الالهية ويكون المسؤولون فيها بعيدين عن الاهواء النفسية والمطامع الشخصية إذ ان كل شيء يعود إلى الله...» لقد كان الامام «رض» سيفاً مسلطاً على هذه التبعية وكان نداً لها في كل حركة وسكنة واجراء وخطوة في حياته المباركة... وهو عندما ودع الحياة لم يغفل أن يعطي مسألة التبعية الفكرية أهمية خاصة في وصيته، أو يمكن القول أن هذه الوصية كانت تدور في معظم أجزائها على محور هذه المسألة المصيرية والحساسة، ففصل الدين عن السياسة هو نتاج من نتاجات التبعية الفكرية وثقافة الإستهلاك هي لون نتاجي آخر من الوانها، ومحور التركيز على بعض السلوكيات الاجتماعية الدخيلة على المجتمع الإسلامي هو شكل من اشكال ملاحقة التبعية الفكرية.

ان محاور وصية الإمام «رض» كانت تشكل أساليب ملاحقة ضارية لفكرة التغريب وتعبر عن وعي لمخاطر هذا التغريب قلما اجتمع في مجموعة عناصر متكاملة ومتناسقة لدى قائد، ولا فرق هنا بين مصطلح التغريب والتبعية بما يثيراه من معنى فلقد بقي الغرب ولازال ـ يمثل التحدي الأبرز أمام المسلمين ومن هنا فقد حاول الامام «رض» أن ينمي من خلال سلوكه القيادي ثقافة العودة إلى الذات الإسلامية على كل أصعدة التحدي المطروحة.

فهو كان يقول في حديث له في عيد الفطر المبارك ١٤٠٠ هـ يقول «أنتم المثقفون تريدون أن لا نعود إلى تربية كانت سائدة قبل ١٤٠٠ عام انكم تخشون أن يعود شبابنا إلى تربية إستطاعت أن تطيح بعروش الأمبراطوريات تريدون أن تجروا شبابنا نحو التربية الغربية... إنكم يا ادعياء (الثقافة) و (الحرية) تريدون حرية كل شيء بما في ذلك حرية الفحشاء، تريدون أن تدفعوا شبابنا نحو الفساد ونحن نريد أن نخرج شبابنا من المواخير وندفعهم إلى ساحات كفاح نريد أن

نحّرر شبابنا من الفساد هذه الحرية التي تطالبون بها أيها السادة هي الحرية التي أملاها عليكم الطواغيت».

ويقول في حديث له مع الجماهير في ١١ تموز ١٩٧٩ م: «علينا أن نصنع من إيران بلداً مستقلاً سياسياً وعسكرياً وثقافياً واقتصادياً ومتحرراً من الاتكاء على امريكا والاتحاد السوفيتي وبريطانيا هذه القوى الطامعة الدولية... وعلينا أن نعلن هويتنا الاصيلة للعالم... ومن المؤسف أن بعض «المثقفين» لا يستطيعون أن يتحرروا من تبعيتهم للشرق أو الغرب... ونأمل أن يعود هؤلاء الموتورون على الأمة الى رشدهم في ظل التغيير الثقافي الاسلامي القائم، وان يستعيدوا اصالتهم...».

لقد أراد الامام أن يواصل معركته مع هذا التغريب بدءاً من افرازاته على صعيد النظرية الفكرية التي تقف بوجه الفكر الاسلامي وتسعى الى الاطاحة به، مروراً بالدوائر الإقتصادية والإجتماعية المفرزة من هذا الجهد الفكري المعادي للإسلام وما تطلبه من بدائل أو مستلزمات تمسك بقوة بالنظام الإقتصادي والإجتماعي الإسلامي، وانتهاء بأبسط المظاهر التي يمر عليها «مفكرون» مرور الكرام.. مظاهر بسيطة قد تتمثل بالسلع الاستهلاكية ومسائل الزينة النسائية لكنها تعبير عن معنى الصراع النفسي وما يعكسه من انشداد «اسلامي» الى الاشكال السلعية والحياتية للحضارة الغربية... الامام ـ قدس الله نفسه الزكية ـ اراد ان يقضي على هذا الانشداد «الواعي وغير الواعي» وان يؤسس الارضية النفسية الإسلامية التي بإمكانها ان تقاوم ومن ثم تنتصر في الصراع على مستوى النظرية الفكرية وعلى مستوى الفكر الاقتصادي والسياسي وعلى مستوى الافراز المظهري وما سيعلق به من معانٍ تبعية من جهة، وسعّي الى تحطيم «الهالة» أو الموقع المتقدم للغرب في الذهنية الاسلامية العامة من جهة ثانية، وبعبارة اخرى اراد ان ينسف اسس هذا الموقع في العقل الاسلامي الجماعي وان يدع الغرب يقف على ركائزه الذاتية ويحرمه فرص جعل الأمة الإسلامية على انها جزء من هذا البناء «الركائزي»...

ولم يقف جهد الامام «رض» عند هذا الحد في مقاومة التبعية الفكرية

للغرب إنما هو سعى الى التأسيس ـ كما قلنا ـ تأسيس الأرضية النفسية الكفيلة بمقاومة هذه التبعية واسقاطها. واخيراً اذا كان لنا أن نقف على نص من نصوص الوصية الزاخرة بدلالات مقاومة التغريب فلنقف على النص التالي: «أي خطط خبيثة واسعة كانت تعد خلال القرن الأخير ونصفه الثاني خصوصاً استخدام هذه الوسائل سواء للدعاية ضد الإسلام وضد علمائه العاملين أو للدعاية لمصلحة المستعمرين ـ الغربيين والشرقيين ـ كما أستخدمت لأيجاد سوق لبضائعهم لاسيما الكمالية وبضائع الزينة بكافة الأشكال تبدأ بالتقليد في طراز المباني وزينتها وتستمر تقليداً في انواع المشروبات والملابس وطرزها وآل الأمر أن أصبح فخراً عظيماً خاصا للنساء الثريات أو المتوسطات الثراء التفرنج في كافة شؤون الحياة سلوكاً وقولاً ولباساً وفي آداب وتقاليد المعاشرة وطريقة الحديث واستخدام المفردات الغربية في الأحاديث والكتابات حتى كان محالاً فهمها على غالبية الناس وعسيراً حتى على أمثال هذا الطراز من المتفرنجين».

وقبل ذلك كان الامام «رض» وفي نداء الى حجاج بيت الله الحرام غرة ذي الحجة ١٤٠٥ هـ . ق يقول: ـ «اسواق البلدان الاسلامية أصبحت مركز تنافس بضائع الغرب والشرق وتتجه إليها سيول البضائع الكمالية المبتذلة واللعب والإستهلاكيات. . . وجعلوا من الشعوب مستهلكين بحيث ظنوا أنهم غير قادرين على الحياة بدون هذه البضائع الأمريكية والأروبية واليابانية وغيرها».

صيحة التمدن:

النظرة التحليلية لحالة الأمة الاسلامية بقيت لعقود طويلة نظرة قاصرة ترصد بعض مظاهر الضعف والتمزق دون سواها وتقرأ بعض مظاهر الإختراق دون غيرها وتكتفي في بعض الحالات بالخطوط العريضة للصراع أو في النقاط الأساسية والبارزة منه، وكل هذا الإلتباس في القراءة والتحليل كان قائماً على الخلط بين الأصالة وصيحات التمدن التي كان ولا زال يطلقها المتغربون والمتشرقون، أو أولئك المتأثرون بهم. فبعض المفكرين في اوساط الأمة ما كانوا يريدون أن يبلوروا الحدود الفاصلة بين التمدن في معناه السليم وبين محاولات استغلاله من قبل القوى الكبرى لإبقاء مظاهر التبعية في الأمة، وذلك

خوفاً من أن يتهم الاسلام بالرجعية والتخلف وعدم معايشة التطور الإنساني وهنالك تيار آخر يسعى الى التوفيق أو الى التعايش مع مصطلح التمدن بقصدٍ أو دون قصد بوضوح في الرؤيا أو عدم وضوح بخلل في التفكير وخطأ القراءة أو بدون ذلك الخلل، فيما كان هنالك فريق ثالث يحاول أن يكون لا مبالياً في هذا الإطار، فلا يجهد نفسه في ملاحقة اهداف صيحة التمدن والتعاطي المكثف بها ومن كان يملك الوضوح في الوقوف على هذه الأهداف ويحيط بها ويستوعبها ويحدد مداها، ويرفعها داخليا، فهو لم يصل على صعيد التحديد والشمولية الى ما وصلت اليه تجربة الامام الخميني ـ قدس الله سره الشريف ـ فالاسلام لدى الإمام «رض» كأصالة، هو أصالة في الفكرة وفي أسسها وفي افرازاتها وبنائها الفوقي، هو أصالة الأمور الحياتية والإجتماعية عامة، وفي المأكل والملبس وطريقة التحدث وفن الخطاب وأسلوب الكتابة هو اصالة حتى في «منطقة الفراغ» التي يعود ملؤها الى الإنسان ورؤيته وللظرف الذي يحدد طريقة املائها، ولذا فأن المظاهر الدخيلة على هذه المجالات، هي مظاهر تستحق الرصد والملاحقة والمتابعة، وهي جزء من المجموع الثقافي الخارجي الذي غزا الأمة الإسلامية، فكانت له مجالات بارزة، ومجالات أقل بروزاً حاولت القوة الكافرة أن تربطها بصيحة التمدن، وأن تمرر من خلال هذه القيم بعض مظاهر التبعية التي لها دور كبير في أبعاد الأمة عن ذاتها وأصالتها وثقتها بنفسها وتعطيل اراداتها تعطيلاً مفتعلا كما يسميه الإمام الراحل الى الملكوت الأعلى فلو كان عنصر الشمولية في رؤية المظاهر الغربية على الأمة هو الأساس، لما حصل هذا التعطيل اذ انه كان ولا زال يمثل افرازاً لعدم الثقة بالنفس الأتي من المظاهر المذكورة والتي يوصيناالامام «رض» بضرورة الالتفات اليها بالعبارات التالية: «فعلى سبيل المثال يتلقون بإعجاب أي كتاب أو مقالة أو خطبة تضم عدداً من المصطلحات الإفرنجية، دون الألتفات الى المستوى، ويصفون الكاتب والخطيب بأنه عالم ومثقف واع، وكلما نراه في حياتنا من المهد الى اللحد إنما يكون مستحسناً ومن مصاديق التمدن والتقدم، اذا ما الصقت به مفردة غربية أو شرقية، وأما اذا كان يحمل شيئاً من مصطلحاتنا فهو منبوذ وبال ورجعي وأطفالنا يفتخرون إذا كانوا يحملون أسماء غربية، وإلاّ فيشعرون بالضعف والتخلف وينبغي أن تطلق أسماء

أجنبية على الشوارع والأزقة والمحال التجارية والشركات والصيدليات والمكتبات، وكذا على الأقمشة وسائر البضائع الأخرى حتى وإن كان إنتاجها محلياً يجب أن تطلق عليها أسماء أجنبية كي تحظى برضا الناس واقبالهم عليها، فأصبح التغريب الكامل في العلاقات الإجتماعية والمعاشرة وجميع شؤون الحياة سبباً للتفاخر والتعالي ودليلاً على التمدن والتقدم».

ويقول الامام «رض» في حديث له بتاريخ ٣٠/ شوال ١٤٠٠ هـ مايلي:

«كل تيارات ـ التغرب ـ هي انغماس في الظلمات وكل اولئك الذين اتخذوا من الغرب والأجانب قبلة لهم ضلوا في الظلمات وأضحوا أولياؤهم الطاغوت شعوب الشرق اتجهت نحو الغرب بفعل الدعايات التي بثها الطواغيت وعملاؤهم في الداخل. وأضحى الغرب قبلة آمالهم وانهزموا داخلياً، ونسوا أنفسهم ومفاخرهم... وأضحت العادة أن يضعوا على كل شيء إسماً غربياً وأن يهتموا بالكتب المليئة بالمصطلحات الغربية».

إن اسم الشارع وأسم الطفل أو غيرهما من الأمور، هي شكلية من حيث الظاهر ولا «تحتاج» الى أن تحتل هذا القدر من وصية الامام «رض» واهتماماته، إلاّ أن الرؤيا العميقة لتاريخ الصراع ومداخلاته ومظاهره توضح ان هذه «الشكليات» هي التي قامت بالدور الأكبر في إحباط ثقة الأمة بنفسها، وقتلت ملكة الإبداع لديها، وجعلت منها تابعاً في كل شيء حياتي، وأبقت الأمة سوقاً استهلاكية رخيصة للقوى الكبرى، كما أنها ساهمت في تنحية معالجات وتنظيرات الفكر الإسلامي لهذه المجالات الإجتماعية، فالإسلام يرسم لنا من خلال نصوصه الفكرية وغير الفكرية اختيار اسماء أبنائنا، والإسلام يحدد لنا الاطار العام في أفضلية اختيار أية مفردة من مفردات الحياة الإجتماعية، وهذا التحديد هو الذي يشكل بالنهاية خصائص المجتمع الإسلامي ومن ثم درجة تحكيم الفكر الإسلامي في هذا المجتمع، والأمر هنا لا علاقة له بالتمدن والتقدم فالتمدن والتقدم من المصطلحات المبتكرة التي أريد لها أن تمرر مظاهر التبعية للغرب والشرق، وأريد لها أن تحطم الهيكل العام لخصائص المجتمع الإسلامي، وأن تدمر كل مظاهر الإسلام الأصيل، إذ أنه تدمير لثقة الأمة بفكرها

وتاريخها وتراثها وثقافتها وتعطيل لأساسيات التشريع الإسلامي.

ان عقلية الإمام «رض»، تضع لنا من خلال الوصية المباركة «شرطاً» ثابتا لقراءة الصراع مع القوى الكبرى، هو شرط الشمولية في النظرة لهذا الصراع، ونبذ القراءة المجزأة له وتسليط الأضواء على أن الصيغ التوفيقية والتعايشية مع صيحة التمدن هي صيغ بالية قائمة أما على الجهل وأما على أهداف خبيثة هي جزء من مخطط ابقاء الأمة في حالة تبعية، ومن هنا فأن تكوين حالة الأمة من حيث مدى تحكيم الإسلام فيها لا يقاس من خلال المواقف القتالية والعسكرية فقط ولا عبر الموقف السياسي والدبلوماسي ولا من خلال حركة الإسلام على مسرح الحياة العالمية فحسب. . بل أنه يقاس عبر تطهير الداخل الإسلامي أولاً من مظاهر التبعية والتغريب والتشريق، واخضاع هذا الداخل الى احكام الإسلام وتشريعاته أو الى خصائصه المفرزة من المادة الفكرية الإسلامية، كأطر وكدوائر يدخل الظرف في ملئها ويدخل اجتهاد الإنسان المسلم في توظيفها لما يحقق للأمة ثقتها بنفسها ولما ينمي لديها روح الإبداع والابتكار والعمل الصاعد الى مراقي العلوم.

الأصالة الإسلامية:

كثيرة هي الأصوات الفكرية والسياسية الواعية وغير الواعية التي راحت تفتش عن ذاتها الفكرية وسط التجارب والأنظمة السياسية القائمة باحثة عن طريق توافقي وتعايشي معها، وساعية الى اعفاء نفسها من مسؤولية تأسيس النظام الإسلامي من جديد، بما يتطلبه هذا التأسيس من حاجات تنظيرية تواكب تطور الحياة وتجيب على الإشكالات العفوية والخبيثة التي تشكك بقدرة الإسلام على تلبية هذه الحاجات.

فمي هذه الأصوات ما انطلق من الجانب «الإيجابي» من الإشتراكية كفكرة اقتصادية تجسد «الطموح الإسلامي» في انقاذ عالم الفقراء من عالم المستغلين واعتبر هذا الجانب كافياً لأن نقبل الإشتراكية كفكر بديل عن الفكر الإسلامي أو نتعايش معها بدون عقد أو حساسيات أو ان نرضى بها عنواناً لذاتنا وطموحنا.

فيما أن الإشتراكية التي نشهد اليوم صور انهيارها فكريا كانت فلسفتها الكلية لا تقوم على المجالات الكافية لتنمية عنصر الإبداع والإنطلاق نحو بناء الحياة بصورة سليمة. وكان رموز هذه الإشتراكية يركزون على الجانب «الشعبي» فيها كشعار لترويج الفكرة ولا يهمهم بعد ذلك أن يطرحوا فكرة الإشتراكية بصورة كلية أو مجزأة. . . المهم أن تكسب هذه الأشتراكية انصارا لها لتعدهم اعداداً اشتراكيا من داخلها. . . كان هنالك في الساحة الإسلامية من يتجاهل المحتوى الترابطي لفكرة الأشتراكية. . . ويحاول أن يفصل اجزاء هذه الفكرة ويمارس انتقاء الأجزاء التي تنسجم أو تلبي حاجة أسلامية معينة، ثم لا يفكر بأبعد من ذلك، لا يفكر بأرضية الإحساس التبعي الذي أفرز هذا اللون من الوان التفكير. . . لا يفكر بالشخصية الإسلامية والذات والأصالة والهوية والإنتماء الفكري الواضح بنظرياته ومدارسه ومناهجه. . . وكأن الأزمة التي تعيشها الأمة هي أزمة تعالج بهكذا أساليب تعايشية. . . أساليب أريد لها أن تكون جزءاً من الثقافة البديلة للأمة الإسلامية. . . الثقافة الإندماجية مع النظام السياسي العالمي القائم بمدارسه الفكرية والثقافة المنقطعة عن التاريخ البعيد والقريب للصراع، وعن المصادر الفكرية للأمة ومن ثم تحكيم هذه المصادر بصورة مستقلة وحرة. . .

ولا ينطبق بالطبع هذا على أولئك الذين نادوا بالإشتراكية والعمل من داخلها أو من خلالها أو معها. . . لا بل أن هنالك فريقاً آخر لازال يردد أمكانية العمل مع الرأسمالية بحجة ان هذه الرأسمالية تقترب فكرياً من الاسلام وليس كالشيوعية التي لا تؤمن بالله والتي ترفع لواء الالحاد، وبحجة أن النظام الرأسمالي أثبت «قدرة» هائلة في ادارة الحياة الأوربية نحو التطور والرقي والتصنيع والأكتشاف. . . وبحجة ان هذا النظام لا يقتل العناصر الإبداعية الذاتية الكفيلة بإيجاد هذا التطور والتي صادرتها الفكرة الاشتراكية، والآن وحيث ينهار العالم الإشتراكي فكرياً يحاول البعض ان يوظف هذا الإنهيار كمصداق من مصاديق النجاح الراسمالي وكسبب من أسباب «التوافق» الإسلامي مع الرأسمالية. فيما ان هذه المحاولات باتت فارغة من عناصر التأثير بعد كل ما

احدثته الثورة الإسلامية في إيران ونموذجها الحاكم الذي جسد أصالة الإسلام، وعالج الأزمة التي كانت قائمة من جذورها، وطرح الحل المتمثل بالعودة الى الأصالة الإسلامية التي يرسمها البناء الأيدلوجي الخاص بالإسلام الذي مثلما يقول الإمام في وصيته المباركة انه: «لا يؤيد الرأسمالية الظالمة الجشعة التي تحرم الجماهير المضطهدة المظلومة بل يرفضها رفضاً قاطعاً ويعتبرها نقيض العدالة الاجتماعية كما ورد في الكتاب والسنة» ويقول الإمام «رض» و: «ليس الاسلام نظاماً كالنظام الشيوعي والماركسية اللينينية التي ترفض الملكية الفردية وتتبنى الملكية العامة مع فارق كبير اليوم عما كانت عليه في المراحل القديمة ـ حسب نظريتها ـ في اشاعة المرأة وإباحة السحاق واللواط وهو نوع ماحق من الدكتاتورية والإستبداد، بل الاسلام نظام وسط يعترف بالملكية ويحترمها ويضع حدوداً لظهورها ولو عمل به حقاً لدارت عجلات الاقتصاد بصورة سليمة تضمن العدالة الإجتماعية اللازم توافرها في نظام سليم».

ويقول الامام «رض» قبل ذلك في حديث له بمناسبة حلول السنة الهجرية الشمسية ٣٣ مارس ١٩٨٠ «اننا نعادي الشيوعية العالمية بقدر مناهضتنا القوية للمستعمرين الغربيين بزعامة أمريكا والصهيونية وإسرائيل. اصدقائي الأعزاء: اعلموا أن خطر الشيوعية ليس بأقل من خطر امريكا... لأن كلتا القوتين المتجبرتين متأهبتان للقضاء على الشعوب المستضعفة...».

الاسلام إذاً فكر وسطي له خصوصياته واجواؤه التاريخية وخليته في الصراع الذي خاضه.. فكر أريد له أن يصادر من خلال الثقافات البديلة التي غزت العالم الاسلامي بعد انهيار دولته المركزية ـ الدولة العثمانية ـ فهذه الدولة وعلى رغم الاخطاء القيادية التي وقعت فيها فأنها كانت تمثل الكيانية السياسية للاسلام والرمز الوحدوي الدولتي له، وبعد انهيار هذا الرمز عبر مؤامرة دولية معقدة الأبعاد طرحت القوى الكبرى صيغاً ثقافية بديلة تهدف الى التعايش مع الواقع القائم وتحول الطموح ـ أي الطموح الإسلامي ـ بإتجاه هذا الواقع الثقافي الترقيعي أو التعايشي مع الافكار القائمة. ان المؤامرة الدولية كانت تهدف الى سلخ الذات والهوية الإسلامية ودفع المسلمين الى التخلي عن عنوانهم الإسلامي

واعطائهم مواقع هامشية تابعة لإرادات خارجية. ولقد استسلم تيار فكري عريض الى اهداف هذه المؤامرة وتحولوا عفواً وقصدا الى ادوات لتنفيذ هذه المؤامرة، فيما ان الامام ـ رضوان الله عليه ـ جاء ليصرخ بوجه الجميع صرخة الاسلام الحقة.. الصرخة الرافضة لكل الأشكال التعايشية مع الطروح الفكرية الغربية والشرقية، جاء ليقدم الدليل بأن الإسلام قادر ذاتياً على قيادة الحياة ويملك من الإمكانية الفكرية ما يجعله البديل العادل لقيادة الإنسان نحو الخير والجمال والإنصاف، والقادر على بناء الإنسانية بعيداً عن معاني الظلم والإستغلال والإجحاف وبما يضمن التصدي لها وملاحقتها وملاحقة رموزها جاء الإمام ليقول في نداءٍ له إلى حجاج بيت الله الحرام ٢/ ١١/ ١٤٠٠ هـ:

«كيف يعجز الإسلام اليوم عن إدارة البلدان وهو قد حكم نصف المعمورة خلال قرون متطاولة وأطاح بعروش الكفر والظلم خلال أقل من نصف قرن شعبنا اليوم على أتم الإستعداد والنشاط والمساهمة في إدارة البلاد واستتباب النظام فيها.

أعداء الإسلام غافلون أو متغافلون عن قدرة الإسلام على هدم قواعد الظلم، وإقامة صرح إدارة البلاد على أسس العدالة. أعداء الإسلام بل كثير من أحبائِه أيضاً يجهلون قدرة الإسلام الإدارية ومبادئه السياسية والإجتماعية».

النموذج الإيراني بكل مااختزنه من شواهد على هذه الحقيقة وبكل ما انطوى عليه من دروس في التعبئة والعطاء المعنوي ونكران الذات والطوعية الدفاعية.. هذا النموذج هو المصداق الحي على قدرة الإسلام الفكرية والسياسية.

الإستقلال:

«وصيتي لمسلمي العالم ومستضعفيه كافة هي: يجب أن لا تقعدوا بانتظار أن يهبكم الحرية والإستقلال حكام بلدانكم والمتصدون للأمور فيها أو تهبكم ذلك القوى الأجنبية».

ماذا يعني الإمام «رض» بكلمة الإستقلال هنا؟ فالإستقلال بمعناه الشكلي

والظاهري متحقق لكل البلدان الإسلامية والعربية والدول الصغرى في العالم استقلال الجغرافية موجود بحدوده الكثيرة في نقاط المنطقة والعالم.

إن الإستقلال الذي يعنيه الإمام الخميني «رض» لا علاقة له بالجغرافيا كما أن الجغرافيا منفردة لا تعطي الإستقلال، ولا هي العامل الأوحد لبنائه، إن الإستقلال الواقعي يرتبط بالإرادة المستقلة وبالقرار السياسي المستقل عن الكتل الدولية الناهبة لثروات العالم الفقير والمعدم، واستقلال الإرادة يبقى الأساس في بناء الأمم والحضارات، ويبقى شرط الإكتفاء الذاتي، ويبقى شرط التطور والتقدم والرقي التكنولوجي والتصنيعي، فبدون امتلاك الإرادة القوية، لا يمكن لأي بلد أن يدعي القدرة الحقيقية على بناء نفسه بما ينسجم ويتماشى مع سرعة العصر التطورية.

بدون الإرادة المستقلة في إتخاذ القرار السياسي والإقتصادي، ستبقى الدول الصغرى أسيرة لمعادلات وأنظمة النظام العالمي الظالم السياسي والإقتصادي، وهذه ليست مفاهيم انشائية، بل هي قد حولتها تجربة الثورة الإسلامية في إيران الى وقائع حية تتحرك على الأرض، ففصول المواجهة بكل ما أنطوت عليه من ضغط دولي وحرب نفسية ضارية وتشويه إعلامي وخطط عسكرية عدوانية خلال السنوات الماضية، كانت تعكس هذا المعنى لإستقلال الإرادة، فإيران لم تمارس العدوان ضد أحد عندما قادتها الثورة، وهي حتى عندما كانت تمارس الحرب الدفاعية كانت تؤكد بأنها ليست بحاجة إلى الأرض إنما هي تسعى للدفاع عن حقوقها.

إيران كانت ضحية الحرب وضحية الضغط الإقتصادي والسياسي والدبلوماسي الدولي، لأنها قالت أنها تسعى إلى اتخاذ قرارها السياسي بإرادتها وحريتها وبعيداً عن تدخلات ورغبات القوى الكبرى وبالمقابل أظهرت هذه الحرب في لحظة من لحظاتها زيف الإستقلال الشكلي الذي يقام على عنصر الجغرافيا لوحده بحيث ان دولاً تملك هذا الإستقلال الشكلي لم تتردد عن دعوة الأساطيل الأجنبية للدفاع عنها وأن تحول أراضيها إلى قواعد عسكرية لأميركا

وأوروبا الغربية، وبحيث تدافع عن هذا الوجود العسكري على أراضيها بدون خجل ولا محاذير.

من هنا يتضح إن النظام الدولي محكوم إلى معايير هي في الواقع لا وجود فيها للأستقلال الحقيقي، بل نظام قائم على الشكليات وعلى لون من ألوان التنظيم القادرة على أحكام السيطرة على الدول الصغرى، دون أن تؤدي إلى ابتزاز شعوبها عبر المسميات أو المفردات الإحتلالية المباشرة أو اشكال الوجود العسكري المباشر التي كانت قائمة في بدايات هذا القرن، ولا يمكن لأحد هنا أن يلغي بعض هوامش الحركة في اتخاذ القرار من قبل الحكومات الصغيرة. إلا أن هامش الحركة شيء والتحكم بالحركة شيء آخر.

إن ما هو قائم بالفعل منذ عشرات السنين أي منذ أن حصلت الدول الصغرى على استقلالها الحدودي الشكلي يعكس معنى عدم القدرة على بناء النظام الإقتصادي والسياسي البعيد عن التبعية للغرب.

فالإستقلال لا يمكن أن يتحقق مع أي شكل من أشكال الوجود الغربي ويقول الإمام «رض» في هذا الإطار في كلمة له مع طلبة جامعة مفيدي في ٦/٨/٥٨ هـ ـ ش يقول:

«إنكم لن تحققوا الإستقلال مادام الغرب متواجداً هنا... وإذا لم يذهب المتفرنجون من هذهِ البلاد أو يتم إصلاحهم فأنكم لن تصلوا إلى الإستقلال».

هذا هو معنى الإستقلال... أنه معنى يتلخص بمقاومة التغريب مقاومة ضارية لا هوادة فيها ولا تعني فيه الجغرافيا شيئاً. وفي عدم استيعاب هذا المعنى يكمن سر تخلف دول العالم الإسلامي والدول الأخرى المقهورة في العالم. وللقضاء على هذا التخلف، لا يوجد هنالك من طريق، سوى طريق التحرك الذاتي، واعتماد المسلمين على أنفسهم ومواجهة الإرهاب والقهر والظلم بصورة مباشرة.

فالبقاء على الوضع الحالي لا يمكن أن يؤدي إلا إلى مزيد من مظاهر التبعية، وإمكانية صحوة الحكومات القائمة في العالم الإسلامي هي إمكانية شبه

مستحيلة، إن لم تكن مستحيلة تماماً، كما ان الدول الكبرى لا يمكن أن تسلم بحق الشعوب طواعية، إذ أن مثل هذا الفرض، مخالف للمنطق الطبيعي في فهم الأمور. لم يبق من طريق إذاً، سوى طريق التعبئة الذاتية التي هي وحدها تفرز من خلال العمل الجهادي المتواصل، القيادات التي تقود الأمة في جهادها ضد أعدائها الدوليين.

الإعتماد على الذات أثبت في إيران أنه معطاء بلا حدود، وأثبت في لبنان التي لا تملك الإمكانات الإيرانية إنه خيار ممكن وواقعي وقادر على الصمود، وأثبت في فلسطين المحتلة إنه الأكفأ في استنزاف العدو الصهيوني. . . وإرباكه و «تدويخ» حلفائه الإقليمين، كما أن الحركة الذاتية خلقت واقعاً أفضل للإسلاميين في أماكن عديدة من العالم الإسلامي، وبقدر زخم هذه الحركة حصل التحسن في البعد العام الذي يتنفس فيه الإسلاميون.

تنفس الإسلاميون في الجزائر بفضل كلمة قالوها في وقت من الأوقات حيث اختفت فيه الحرية إلى حد كبير. إن كل حركة ذاتية بأتجاه التمرد على القيود الإرهابية حتى ولو كانت محدودة فإن لها ثماراً ونتائج طيبة، أما الخضوع إلى الإرهاب ومنطق البطش فغالباً ما يولد قيوداً إرهابية أسوأ وربما يدفع بأي نظام دكتاتوري إلى حد التفكير بأساليب الإبادة متحيناً الفرص وباحثاً عن مجالات ممارسة هذه الأساليب.

انطلاقاً من هذا الواقع الذي تعيشه الآن أكثر من ساحة إسلامية يحدد لنا الإمام رضوان الله عليه الطريق وهو طريق المبادرة التمردية على الظلم والمبادرة إلى تسجيل المواقف حتى ولو تطلبت ثمناً باهظاً إذ لا يمكن لأمة أن تنال كرامتها دون أن تدفع ثمن ذلك.

الإعلام:

الفكر الإسلامي خزان للقيم والمثل والضوابط الإنسانية كما أنه فكر العدالة الإجتماعية التي لم تثبت التجارب التاريخية والآنية بأن فكراً آخر استطاع أن يجسدها مثلما جسدها الإسلام في فترات مختلفة من تاريخ الأمة الإسلامية

والعالم، وهذه الحقيقة تتكرس في عالم اليوم أيضاً الذي يشهد انهيار آخر مدرسة «فكرية» وآخر بناء أيدلوجي يعطي تصوراً عن فلسفة الحياة والإنسان وهو البناء الأيدلوجي الشيوعي، فيما الإسلام يؤكد قدرة هائلة على التجاوب مع الإنسانية وطوارئها الإجتماعية والإقتصادية، بخلاف ما أعتقد وأشاع البعض من أن الأفكار الإسلامية أصبحت «بالية» وقديمة وغير جديرة بمواكبة التطور الفكري والإقتصادي الذي تشهده الإنسانية.. لقد أوضحت تجربة الثورة الإسلامية في إيران ان الفكر الإسلامي قادر على رفد الحياة بكل ما تحتاج اليه من أساليب تعبوية وصراعية، كما أنه يترك مساحة عريضة للجانب المستجد في الحياة... مساحة تملأ بالمعالجات الفقهية المستنبطة من قبل القيادة الإسلامية.

إن قوة الإسلام الفكرية وما تختزنه من إنسجام مع الفطرة الإنسانية السليمة في طموحها هي التي دفعت بالإمام ـ قدس الله نفسه الزكية ـ لأن يبدي ثقة عالية جداً بقدرة الإسلام التأثيرية على الشارع الإسلامي والعالمي برمته، ولكن أين هي الأزمة في تشخيص الإمام «رض»؟ ولماذا إذن تراجع العالم الإسلامي إلى ما يعيشه الآن من واقع تقسيمي وتراجعي؟ لنقف أولاً على هذا النص من وصية الإمام «رض» المباركة ونرى فيما بعد أين تكمن هذه الأزمة في جزء مهم من أجزائها يقول الإمام «رض» في وصيته «إن مسؤولية التبليغ لا تنحصر بوزارة الإرشاد، بل هي واجب كل العلماء والخطباء والكتاب والأدباء والفنانين وعلى وزارة الخارجية أن تعمل على أن يكون للسفارات اصدارات تبين للعالمين الوجه المشرق للإسلام فلو بان هذا الوجه وخرق حجب أعداء الإسلام وأشكال سوء الفهم لدى الأصدقاء وظهر بذلك الجمال الجميل الذي دعا له بكل الأبعاد القرآن والسنة فيشد الإسلام العالم إليه وترتفع رايته خفاقة في أرجائه. أي مصيبة أشد وأكثر إيلاماً من ان المسلمين وعندهم جوهرة لا نظير لها منذ بداية العالم إلى نهايته لم يستطيعوا عرضها وهي الجوهرة الثمينة التي يتوجه إليها كل إنسان بفطرته السليمة؟ والأمر من ذلك أن المسلمين أنفسهم غافلون عنها وجاهلون بها وأحياناً فارون منها».

إن الأزمة تكمن في التبليغ وأساليبه.. إنها تقع في الدائرة الإعلامية

وتتحول إلى مسؤولية أساسية فيها أولاً، وتمتد إلى الدوائر الإعلامية الفاعلة الأخرى ثانياً وإلى كل إنسان مسلم يبلغ من خلال سلوكه أو لسانه أو قلمه، وحتى الآن لم يثبت الإسلاميون أنهم قد نجحوا في أساليب العرض التي يعتمدونها لأسس الفكرة الإسلامية التي يؤمنون بها. . . إنهم أجادوا التفاني من أجل هذه الفكرة. . لكنهم لم يجيدوا حتى الآن إظهار الوجه الإنساني والجمالي والحضاري للفكرة الإسلامية، ولذا فإن تراجع العالم الإسلامي يعود في جزء منه إلى هذه الأزمة، ولو كان الإسلاميون يعطون اهتماماً أكبر للإعلام ودوره وبما أصبح يمثله من محور لعجلة الحياة كما يقول الإمام «رض»، لما كان حال العالم الإسلامي كما هو عليه الآن، فالإنسان بفطرته «سلمي» مع الحق والعدالة والقيم والأخلاق، والإنسان يتأثر فطرياً بأسلوب الإقناع والاقتناع، وبالتالي فإنه إذا ما واجه أساليب عرض حاذقة لفلسفة الحق والعدالة التي يقوم عليها الفكر الإسلامي فإنه لا يمكن أن يبقى «حيادياً».

أما عالم اليوم الإستغلالي والأضطهادي فهو عالم عصابات ومستغلين ونفعيين. . . إنه عالم لا يصلح أن يكون مقياساً لتجاوب الإنسان مع الحق أو عدم تجاوبه، كما أن أكثر الشرائع البشرية وقعت ضحية لأساليب الدعاية الخبيثة لهذه العصابات، وضحية لمشاريعها الإفسادية ولأنماط خاصة من الحياة الإستهلاكية التي تُخبىء القيم في ظلها وراء جدران من سموم البرامج والخطط التربوية والتعليمية التي تسهر عليها هذه العصابات من أجل أن تمسخ الأجيال البشرية وتنشئها على الفساد والإنحلال.

وفي حديث للإمام «رض» في هذا الإطار لأعضاء مؤتمر دراسة جرائم امريكا في إيران (٣ ـ ٥) حزيران ١٩٨٠ م يقول:

«جميع أجهزة الإعلام الأجنبية تخدم القوى الكبرى. إننا لا نستطيع إيصال نداء هٰذا الشعب المظلوم إلى العالم.

إننا لا نملك وسائل ذلك. كل صحف العالم تكتب ضدنا محطات الإذاعة والتلفزيون تذيع الأكاذيب ضدنا وقد وصفوا إيران في الخارج بالغابة يعيش فيها جماعة متوحشة تفتك بالناس وتقطع أثداء النساء وتفعل كذا. . وكذا. . . كيف

يمكن أن نوصل صوت هذه الأمة المظلومة إلى العالم؟ . . ومن يوصل ذلك إلى العالم؟ . . كلهم في خدمة الأقوياء . . . لِنرَ الآن أنتم أيها السيدات والسادة الذين جئتم واستقصيتم الحقائق هنا، هل تستطيعون، وهل تملكون القدرة على إيصال صوت إيران إلى العالم؟ وهل تستطيعون أن تقولوا الحقيقة؟ . . . نحن لا نريد منكم أن تدعمونا، فقط قولوا الحقيقة، قولوا لشعوبكم الحقيقة فقط» .

كان الإعلام ولازال يقوم بدور خطير جداً في إدارة الحياة العامة وتحديد المواقف الكبرى في الأزمات والقضايا المصيرية، كما أنه تحول إلى عنصر من عناصر التربية الإجتماعية والتثقيف والتطوير، وفي العالم الإسلامي أثبتت السنوات الأخيرة بأن الإعلام لم يقم بدوره لا على الصعيد الإجتماعي ولا على الصعيد التربوي ولا على الصعيد السياسي، حيث بقي هذا الإعلام خاضعاً لمجموعة من الشكليات «التقيمية» المصطنعة، سواء ما تعلق منها بالمصطلح الأجنبي أو بالمصدر أو بنوع المادة التي يتعاطاها هذا الإعلام، والأخطر من الشكليات المذكورة كان يتلخص بدور الإعلام، الذي عكسته تجربة السنوات الماضية، فيمكن القول ان هذه التجربة وظفت الإعلام توظيفاً سيئاً، فحولت دوره من دور بانٍ ومربٍ للأمة إلى دور مادح للسلطة السياسية ومبرر لأخطائها، ومدافع عنها بلا شروط، وباحث عن تخريج الخيانات والأخطاء الكبرى والسياسات الفاسدة والمنحرفة ومفتش عن الأطر المؤولة والمفسرة بطريقة لا شرعية، ولعل النماذج هنا تبدو لا تنتهي، وهي نماذج شمولية تكاد تغطي كل العالم الإسلامي بكل نقاطه الجغرافية. . . حتى تلك النقاط التي ترفع شعار الحرية والديمقراطية، اذ انها ديمقراطية محدودة تسمح بممارسة النقد وفق ضوابط محددة سلفاً، ومن يتجاوز الخط الأحمر، يذهب إلى السجون الحمراء الدامية.

إن الإعلام غير الإسلامي تحول إلى سوُق رخيصة للحاقدين والمنتفعين والضعفاء والذين يسيل لعابهم للمال بغزارة، ولأولئك المغرضين الذين يدّعون حرمة المهنة وقدسية العمل لكنهم لا يترددون في اللجوء إلى أكثر الأساليب نِفاقاً والتواء وزيغاً، عندما يكتبون تشعر إن خلف كل حرف من حُروفهم هنالك دولار

«نفطي» يصرخ ويشرح السبب ويوضح المهمة. . كان هذا الإعلام مروجاً للقادسية المشؤومة التي راح ضحيتها مئات الالآف من أبناء الأمة، وكان مبرراً لقرارات الإعتراف بشرعية الوجود الصهيوني وبالقرار «٢٤٢». كان مدافعاً عن السياسة النفطية المنحرفة التي مارستها السلطات السعودية ولازالت تمارسها.

كان الإعلام العربي والإسلامي الرسمي قد مارس مهمة امتصاص القمم الخيانية والقرارات الخيانية والتحالفات الخطيرة. كان مدافعاً عن مجيء الأساطيل الكبرى إلى مياه المنطقة. كان متعاطفاً مع مجزرة مكة الرهيبة التي حصلت في عام ١٤٠٧ هـ والتي راح ضحيتها الآف الأبرياء من ضيوف الرحمٰن شهداء وجرحى ومدافعاً عنها. كان الإعلام بجزئه الأكبر يسهل مهام السياسة الدولية التآمرية على المنطقة، وكان ولازال يقف بضراوة محارباً حركات التحرر والقوى الإسلامية المدافعة عن المثل والقيم والأصالة والمطالبة بالإستقلال عن مفاهيم الغرب والشرق السياسية والفكرية، مستنفراً كل ما في خزين اللغة من مفردات اتهامية ووصفية سلبية، كالإرهاب والتطرف والتعصب، والقوى الظلامية وما إلى ذلك من مفردات وصفية. ولقد كانت أساليب وأنماط تمرير هذا التحريف الخطير للقضايا تعتمد على فن الإثارة وعلى اللجوء إلى المصطلحات الغربية وعلى قضايا الإخراج والعرض الإعلامي، بعدما مهدت أرضية الإنسجام معها وتقبلها في العقل الجماعي العام، إلى الدرجة التي تحولت فيها هذه الأنماط إلى مقياس للكفاءة أو تقييم أي عمل إعلامي، بعيداً عن ماهيته وجوهره ومحتواه، فيما أن المقياس الأول والأخير يجب أن يتعلق بقول الحق وجوهر وقيمة المادة الإعلامية، والمبدأ الأساس فيه هو الإقتراب من الأصالة ومن الثقافة الإسلامية، والإبتعاد عن المظاهر الثقافية الغربية التي تركت بصماتها على كل مجالات الحياة الإسلامية.

إنطلاقاً من هذا الدور الخطير وأنماط الممارسة المزورة والمنحرفة للإعلام كان الإمام «رض» يوصينا أولا بتحشيد كل الأساليب الفاعلة في نشر كلمة الإسلام الحقة، والترويج للمبادىء الإلهية لاسيما وأن هذه المبادىء تحمل عناصر الإقناع الطبيعية التابعة من صفات الحق والصدق فيها. . . إن الإمام،

يتكلم هنا بلسان الواثق من أن جمال القيم والمبادىء الإسلامية الحقة هي ضمانة التصديق والتفاعل معها من قبل الإنسان لاسيما إذا كان هذا الإنسان نظيفاً بفطرته وغير ملوث بآفات الإنحراف العصرية. فليس من مبادىء أخرى قادرة على مخاطبة هذه الفطرة مثلما تستطيع المبادىء الإسلامية القائمة على فلسفة العدالة والتوحيد والحق والنابذة لكل أساليب الزيف والتضليل والإلتواء وتزوير الأفكار والقيم التي تلجأ إليها المدارس الإعلامية المادية الإلحادية والهادفة إلى تخريب الإنسان فكرياً وأخلاقياً، ولقد تمكنت بالفعل هذه المدارس من تحقيق أهدافها التخريبية طوال العقود الماضية، وحيث كان الإعلام الإسلامي الأصيل غائباً عن مسرح الأحداث بفعل مؤامرة فصل الدين عن السياسة.

إن الإمام «رض» مثلما يلقي الضوء في وصيته المباركة على هذا الجانب التخريبي من خلال القول: «الإذاعة المسموعة والمرئية والصحافة ودور السينما والمسارح من الوسائل المؤثرة في تدمير وتحذير الشعوب وخاصة جيل الشباب»، فإنه في مكان آخر من هذه الوصية يوصينا بأن نكون يقظين من الوقوع في فخ شعار الحرية، بحيث نكون ضحية لهذا الشعار في ممارسة الخلط فيما هو عصري لكنه إفراز لنمط الحرية الغربية ذات الآثار الإفسادية المدمرة. وبينما هو يجسد الحرية فعلاً في حدودها وضوابطها الشرعية. إن ما حصل من صور ترجمة لشعار الحرية الغربي في العالم الإسلامي هو إنعكاس لتلك الأهداف الإفسادية المروجة للممارسات الشاذة وتقييد لإبداء الآراء في قضايا العالم الإسلامي المهمة والقرارات السياسية المصيرية، فأي كلمة اعتراضية أو توضيحية يواجهها حكام المنطقة بذريعة «الحفاظ على الأمن القطري أو الأقليمي» للبلاد، في حين أن هذه البلاد لا تهتز عندما تكون عرضة لمؤامرات التغريب والتخريب الأخلاقي والفكري!!

فالمطلوب إذاً كما يراه الإمام «رض» هو ممارسة العمل الإعلامي وفق ضوابطه القرآنية، وأن «يتصدى بحزم لما يخالف الشرع ولما يعرقل مسيرة الشعب والبلد الإسلامي ولما يتنافى وكرامة الجمهورية الإسلامية». «الوصية».

المطلوب هو بلورة نظرية إعلامية قرآنية أصيلة واضحة في مقاييس التقييم

وعناصر التشريع ومدعمة بأساليب طرح شرعية . كما إنها نظرية تقوم على أدوات متعددة وشاملة . . . وفي جانب من جوانبها فهي تقوم على ما تقوم عليه النظرية التعبوية في عنصر الطوعية الذاتية . . . انطلاقاً من تحريك الإحساس بالمسؤولية الشرعية الملقاة على عاتق كل إنسان مسلم في الدفاع عن الإسلام، إذ يقول الإمام «رض» في إطار تحريك هذهِ المسؤولية في حديث له بمناسبة الهجرة النبوية الشريفة ١٤٠٠ هـ يقول «أرجو من السادة الذين حضروا إلى ايران لمشاهدة نموذج من جرائم الشاه المخلوع في (بهشت الزهراء) حيث القبور المضرجة لشهداء الإسلام المدفونين بدمائهم ورأوا عن كثب مشهداً صغيراً من المشاهد الكبرى لجنايات أمريكا والشاه المخلوع . . . أن يكونوا حملة صرخة شعبنا المظلوم في إيران لكل العالمين ويحبطوا الدعايات التي تنتشر بتمويل سخي من أمريكا والصهيونية ضدنا، ليكونوا قد أدّوا واجبهم تجاه الإنسانية» .

ويقول الإمام «رض» في نداءٍ له بمناسبة حلول عيد الأضحى المبارك ٢/ ذي الحجة ١٤٠٢ هـ ـ ق يقول: «يجب على علماء الدين المحترمين والكتاب والخطباء الملتزمين أن يبادروا حينما تحين الفرصة المناسبة أمام المسلمين إلى مواجهة الدعايات السمومة لوسائل الإعلام التابعة لأمريكا واسرائيل العاملة على بث الشائعات والأكاذيب ضد الإسلام والجمهورية الإسلامية في ايران، وأن يدافعوا عن الإسلام والثورة الإسلامية ويظهروا الوجه الحقيقي لهذهِ الثورة أمام العالم، وأن يحيطوا شعوب العالم علماً بتلك الإنجازات الإسلامية التي حققها الشعب الإيراني الملتزم بجهاده المتواصل، بالرغم من كل ما يعانيه من مشاكل وعقبات يضعها أعداء الإسلام في طريقه، في الداخل والخارج . وأن يعملوا على توعية المسلمين، ويكشفوا النقاب عن التهم التي تبثها الأبواق الإعلامية المعادية، ويفضحوا مؤامرات أمريكا وأتباعها ويطلعوا العالم على الهجوم الذي شنه جيش صدام العفلقي على الجمهورية الإسلامية في إيران بأمر من أمريكا وبمساندة الدول التابعة لها» .

ويقول في نداءٍ إلى حجاج بيت الله الحرام ١/ ذي الحجة ١٤٠٦ هـ . ق .

«مسؤوليتكم ثقيلة جداً وحركاتكم في حضور الله ومراقبة أولياء الله

وملائكته، وهي إضافة إلى ذلك أمام أنظار الالآف من حجاج البلدان الإسلامية وحجاج مختلف بقاع العالم. . ومن الممكن أن يكون قسم من هؤلاء قد تأثر بما تشيعه وسائل الإعلام المعادية للإسلام وإيران، فهذه الأبواق تبذل جهدها صباح مساء لبث الأكاذيب حول الإسلام والشعب الإيراني وحول المسؤولين العاملين في هذا البلد المظلوم، وتعكس عن الشعب الثائر لهذا البلد صورة غير واقعية. ولعل هذه الإشاعات أثرت في بعض المسلمين أو جعلتهم في حالة مبهمة وهكذا فإن شعبنا العزيز والمعوقين والشهداء الأحياء وذويهم، وهم ليسوا بقليلين في القوافل، يراقبون أعمالكم. ها أنتم أمام هذا العبء الكبير والأمانة الإلهية والتكليف الإسلامي والوجداني والفطري».

ويقول الإمام «رض» بتاريخ ١٣/ ٢/ ١٩٨٢ م في خطاب له مع مجموعة ضيوف خارجيين:

«أيها السادة الكرام الذين شرفتمونا من بلاد مختلفة لقد سمعتم بمظلومية هذا الشعب وإنني لآمل في أن توصلوا مظلوميته هذه إلى العالم وأن تفهموا شعوبكم أن هذا البلد ليس كما يصورهُ الإعلام الأمريكي والصهيوني واصفا إياه بأنه بلد متوحش».

وفي نص آخر وأخير له بتاريخ ١٤/ ٦/ ١٩٨٢ م وفي خطاب له في ممثلي حركات التحرر يقول (رض):

حب الشهادة هو من أجل القرآن الكريم، ليكن ضيوفنا الأعزاء الذين وفدوا إلى هنا حملة رسالة إيران إلى شعوب العالم لا تستكينوا ولا تجلسوا ليعمل عملاء أمريكا ضدكم. . . إنهم يفكرون بشهواتهم فقط».

تدور هذه النصوص في إطار الطوعية الذاتية لتبلور خطاً من خطوط النظرية الإعلامية، يضاف إلى الخط الذي يتمثل بالجهاز الإعلامي الإرشادي كوزارة تخصصية في هذا المجال ويُضاف إلى الدائرة الأكثر شمولية المتمثل بجهاز الدولة الإسلامية برمتها كمسؤولة عن تهيئة الجهد الإعلامي المطلوب.

إن الإمام رضوان الله عليه بقدر ما يؤكد هنا على ضرورة الإهتمام بالإعلام

ويعطيه أهمية خارج حدود الدائرة التخصصية. ويعتبر أن هنالك وزارات أخرى في البلاد لا تقل مسؤوليتها في المجال الإعلامي عن مسؤولية وزارة الإعلام. . . بقدر ما يؤكد الإمام «رض» على ذلك فإنه يحذر من ناحية أخرى من أساليب الدعاية المعادية والعمل الإعلامي الإعلامي الذي تقف وراءه شبكات تخطيط دولية، وهو في نفس الوقت يركز على دور هذه الشبكات في المجال التربوي والتعليمي، فالخطط العدوة متداخلة إعلامياً وتربوياً ودعائياً وفقط من ينظر إلى الأمور بمنظار شمولي هو من يدرك ماهية هذا التداخل وأبعاده، ويدرك الأهداف العدوة النهائية من ورائه. . . ومن هنا تبدو أيضاً أهمية عنصر الشمولية في العمل الإعلامي الإسلامي، فالإعلام الإسلامي يجب أن يواكب ويرصد ويلاحق بدقة الحركة الإعلامية والدعائية العدوة وأن يغطيها بأحكام، حتى يستطيع بالنهاية أن يبرز الوجه الحقيقي للإسلام وحتى يستطيع أن يوظف القدرة التأثيرية التي يتميز بها الفكر الإسلامي.

كما إنه يجب أن يسيطر على الأدوات الإعلامية بقوة حيث يقول الإمام «رض» في هذا الإطار «وإنني أعلنها صراحة لكل من له يد في الإذاعة المسموعة والمرئية والصحافة وحتى لأولئك الذين يرددون أقاويل الآخرين، أعلنها صراحة إنني مادمت حياً لن أسمح بوقوع الحكم بأيدي الليبراليين. وما دمت موجوداً فلن أسمح للمنافقين بتدمير إسلام هذه الجماهير التي لا ملجأ لها. . وما دمت موجوداً فلن أعدل عن مبدأ اللاشرقية واللاغربية ومادمت موجوداً فسأقطع أيدي اميركا وروسيا عن كافة المجالات». (كيهان العربي العدد ١٦٠٦).

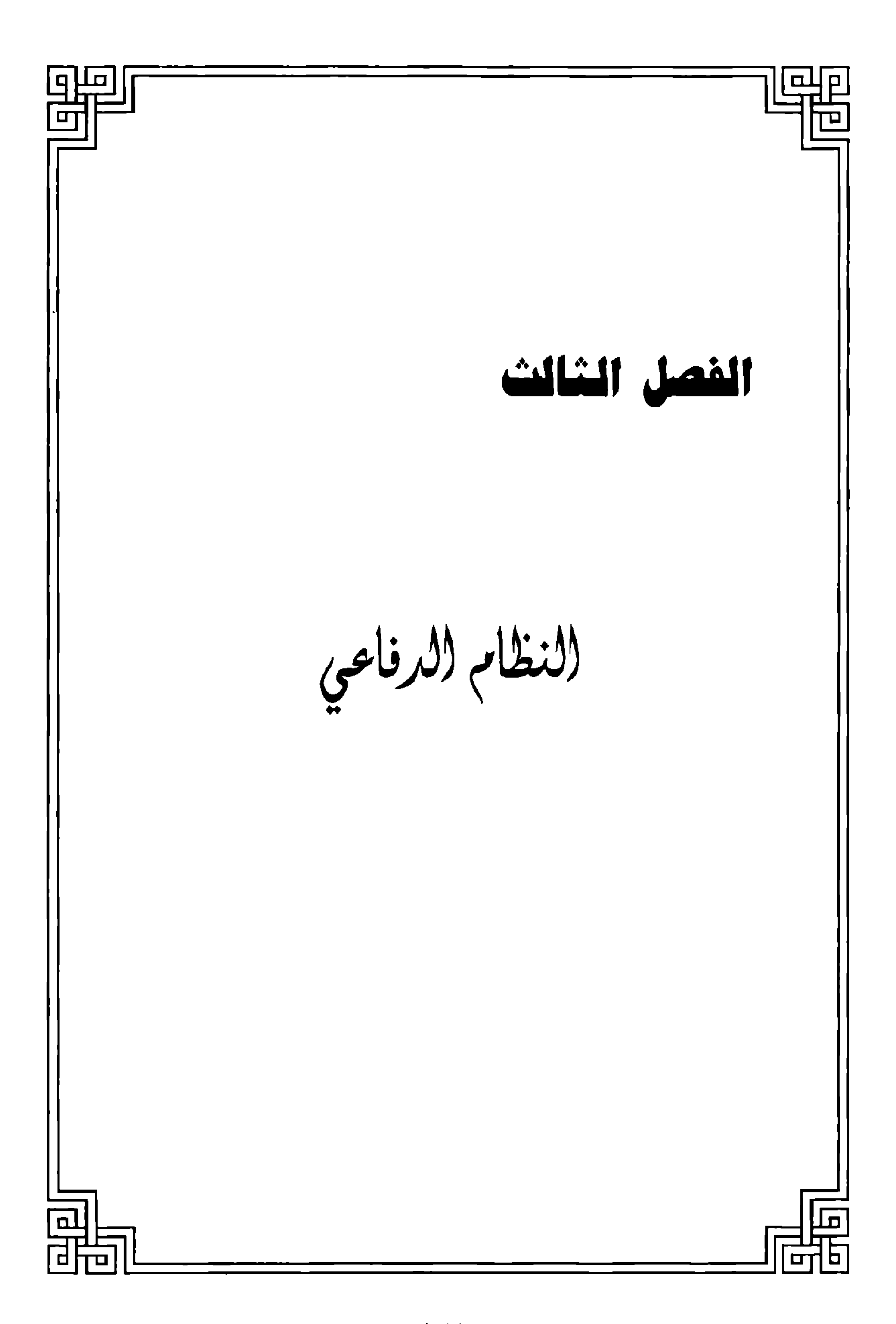
من خلال ما تقدم يتضح أن رؤى الإمام «رض» الإعلامية تتلخص بالتالي:

أولاً: ـ عنصر الطوعية ـ الذاتية التي تشكل محور الجهد الإعلامي ومحور النظرية الإعلامية في جانبها العسير، إن لم يكن المستحيل على التأثير الخارجي (التشويش، الحظر على الصحف).

ثانياً: ـ توسيع دائرة المسؤولية الإعلامية على كل مرافق وأجهزة الدولة الإسلامية حتى وإن بدت وزارة الإرشاد تمثل المحور.

ثالثاً: ـ عنصر الشمولية بما يُغطي كل جهد أو حركة إعلامية أو دعائية خارجية من قبل أعداء الثورة.

رابعاً: ـ تهيئة وضبط الأدوات والأجهزة الإعلامية.



الفصل الثالث

النظام الدفاعي

المؤسسة العسكرية

نقف هنا على رؤية الإمام «رض» حول دور المؤسسة العسكرية ليس في إيران أيام الشاه المقبور فحسب وإنما في مجمل المنطقة الإسلامية، إذ ليس أمر يحتاج إلى توضيح أن نقول بأن دور الجيوش والمؤسسات العسكرية في البلدان العربية والإسلامية لم يكرس لما هو مفروض للقضايا الدفاعية البحتة. والحؤول دون تعرض الدول إلى اعتداءات خارجية، لقد استخدمت المؤسسة العسكرية ولازالت تستخدم في سحق حركات التمرد الشعبية على الأنظمة، وتحولت إلى أدوات تنفذ إرادة السلطات الدكتاتورية، ووضعت حواجز بينها وبين أبناء الشعب، وربما أعطيت في بعض الأحيان امتيازات خاصة لكي تقوم بمهامها على أحسن وجه، وأخضعت إلى قوانين استثنائية صارمة وحُرم عليها العمل السياسي، ووضعت لها محاكم خاصة، وأقفلت كمجال أساسي في الولاء والإنتماء للسلطة الحاكمة، وبإختصار لقد أسيء استخدامها إلى درجات خطيرة وخطيرة جداً.

كان الإمام «رض» يستوعب هذا المعنى ويستوعب أن الجُهد الدولي المعادي للإسلام أخذ يركّز على هذه المؤسسة بغية إبقائها مخترقة على الدوام... فلقد حرصت الدول الكبرى على تربية الكادر الأعلى العسكري في الدول الإسلامية تربية غربية أو شرقية وحرصت أن تجعل من المؤسسة العسكرية مجالاً لتمرير أخطر المهام الدولية والتحولات المصيرية في أوقاتها المطلوبة، وكان الإمام «رض» يحذر من هذا التوجه التربوي كما إنه كان يقول في أحد لقاءاتهِ بخريجي الكلية العسكرية بتاريخ ١٣٥٩/١١/٢٤ هـ. ش. كان يقول لهم «أنتم الذين تتلقون العلوم في المدارس العسكرية عليكم أن تنتبهوا إلى هذه

المسألة، وهي أن دراساتكم يجب أن تكون من أجل خدمة الشعب واستقلاله و حريته وصيانة حدود وثغور البلاد. . إن هدفكم يجب أن لا يكون الوصول إلى القيادة على حساب الشعب، فهذه هي من صفات الدكتاتورية حيث أن الدكتاتوريين يريدون الوصول إلى السلطة بأي ثمن كان، ولو كان في ذلك القضاء على الشعب أو الجيش».

يحاول الإمام «رض» من خلال هذا النص ومن خلال عشرات النصوص الأخرى أن يضع يده على الداء الخطير الذي تتعرض له المؤسسة العسكرية. . . فهو يسعى إلى إخراج هذهِ المؤسسة من التبعية التربوية للغرب. . . وحتى قبل أن تصل الثورة إلى نقطة الإنتصار. . . كان الإمام «رض» يحاول تحطيم هيكل الخصوصية المعطاة للجيوش على حساب دورها الدفاعي عن ثغور البلاد، كما إنه كان يسعى إلى تحسيس القوات المسلحة بأن هنالك خططاً إبعادية يحيكها الأعداء. . . وهناك مؤامرات عازلة وهمية لهم. . . يراد من خلالها إبقاء الجيش كأداة من أدوات السلطة وأداة من أدوات إرهاب الناس الأبرياء. . . تحت ذريعة خدمة الوطن والدفاع عن أمن البلاد، كان الإمام «رض» أيضاً حريصاً على تحديد علاقة إيجابية مع القوات المسلحة، وكان في جهده التربوي الثوري العام ومن خلال جهوده المعارضة لحكومة الشاه كان يحاول أن يوجد جواً تقاربياً بين الجيش والشعب، فهو يقول في واحد من خطاباته بتاريخ ٢/ جمادى الأولى/ ١٣٨٤ هـ ، يقول «يا أفراد الجيش المحترم وجهوا صفعتكم لأولئك. . . إنكم مسلمون. . . إن أكثر عناصر الجيش وقادته أناس طيبون، وللبعض منهم علاقة معي، حيث أنهم في بعض الأحيان يرسلون لي برقيات، فاعملوا يا أعزائي على طرد هؤلاء العاملين ضد مذهبهم، وضد بلادهم واستقلاهم، والمحطمين لإقتصادهم، إذهبوا وطالبوا كباركم بالعمل على إخراجهم. . . فوالله إني أريد الخير لكم. . وإني لأخشى أن يأتي ذلك اليوم الذي تستيقظون فيه فلا تستطيعون عمل شيء، وإذا كنتم غير حاضرين لذلك فإني أطالبكم بالحياد في مواجهتنا لهم وسيأتي اليوم الذي أقضي فيه عليهم. . .

فاعملوا على طردهم وإلاّ فسيأتي اليوم الذي لا تستطيعون فيه فعل أي شيء ولا أستطيع أنا أيضاً. . . ».

إن السطور الأخيرة من كلام الإمام «رض» هذا توقفنا ولو سريعاً على ثقة الإمام بجهودهِ الثورية بحيث إنه يقول ومُنذ العام ٦٤ م: «سيأتي ذلك اليوم الذي أقضي فيه عليهم». . . أي على نظام الشاه المقبور، ويعود الإمام «رض» فيربط ذلك بدور القوات المسلحة بطريقة هادفة إلى إنقاذها أولاً، وإلى تحييدها ثانياً، على أقل تقدير، . . ومُنذ العام ١٩٦٤ م والإمام يخطط للتعامل مع المؤسسة العسكرية. . . مؤسسة الشاه، والكيفية التي يستطيع فيها القضاء على كبريائها السلبي، وعالمها الإرهابي، ودورها في خدمة شاه إيران، وبث المفاهيم الدينية في أوساطها وتحييدها إزاء جهده الثوري، وإقامة أجواء الثقة بينها وبين الطبقات الشعبية المستضعفة.

يقول الإمام «رض» في نص آخر في هذا الإطار وقبل إنتصار الثورة الإسلامية في إيران بفترة طويلة. . . أي في عام ١٩٦٣ م يقول: «إننا لا نخاف من تجنيد طلابنا الاجباري، ليذهب شبابنا إلى الثكنات، وليعملوا على تربية إخوانهم الجنود، ورفع مستواهم الفكري، ولتكن من الأحرار وأصحاب الضمائر الحية والواعية جماعة يدعون في صفوف الجيش إلى الإسلام والثورة على الطغاة والمستكبرين، ونحن نعلم بأن البعض من قادة الجيش وضباطه وجنوده الشرفاء يشاركوننا مشاعرنا، ويستنكرون هذهِ الجرائم والأعمال الهمجية، كما وإني على علم بأساليب الضغط التي تمارس ضدهم، إن وضعهم يثير الشفقة، وإني أمد يد الإخاء إليهم، وأدعوهم إلى الإقدام والمبادرة لإنقاذ إيران والإسلام»

إن هذا الكلام الذي قاله الإمام «رض» بمناسبة مرور أربعين يوماً على فاجعة قم التي حصلت في العام ١٩٦٣ م، يسلط الضوء بصورة أكبر على اهتمام الإمام «رض» بالمؤسسة العسكرية وملاحقته لطبيعة العلاقة القائمة بينها وبين النظام الحاكم وللأساليب الفرضية التي توجد هذه العلاقة، كما إن الإمام كان يحاول أن يفجّر الموقف داخل هذهِ المؤسسة ويحدث خللاً في انضباطها

وتماسكها من خلال إثارة هذا الأسلوب الفرضي، ومن خلال توجيه انظار القوات المسلحة إلى سياسة «الشاه» التي تحشرهم في قضايا هي بعيدة عن قضاياهم الدفاعية الأساسية.

إن الإمام «رض» نجح إلى حد كبير في ضعضعة المؤسسة العسكرية «للشاه»، وهي التي تمثل أداته الرئيسية في الحفاظ على نظامه السياسي، وهذه النتيجة إذا كانت تُعبر عن شيء فهي تُعبر عن الفهم الثوري للإمام وعن أساليب التحريض التي اعتمدها، فهي أساليب قائمة على استيعاب أوّلي لقواعد النظام «الشاهنشاهي» والأدوات القوية التي يمسك بها ومن ثم محاولة تهديم هذه القواعد وتخريب هذهِ الأدوات... بالطبع لو كان اهتمام الإمام «رض» بالجيش في الإنتفاضة التي حصلت في بداية الستينات وقبلها مقطوعاً ولم يأخذ طابعه التواصلي ولم يلتحم مع اهتمام أكبر أبداه بالمؤسسة العسكرية في نهاية السبعينات وقبل انتصار الثورة الإسلامية، لأمكن القول بأن الإمام «رض» ما كان يخطط للثورة بالصورة التي تقدمت، والقائمة على مواجهة أدوات القوة لدى النظام «الشاهنشاهي»، ولما شكل ذلك مفردة من مفردات المنهج الذي يتعاطى به الإمام، بل إن التركيز على المؤسسة العسكرية في ذلك الحين لم يكن أكثر من تركيز عفوي شمل القطاع العسكري مثلما شمل القطاعات الأخرى، نقول أما وأن هذا الإنقطاع في اهتمام الإمام «رض» لم يحصل بل إن الأمر أخذ طابعاً تواصلياً فإن ذلك يعد دلالة على دقة الحركة الثورية لدى الإمام، ويوضّح مفردة في سياق المنهج المعتمد، فهي لم تكن حركة عفوية، تحركها الظروف والطوارىء واستثناءات الصحوة لدى الشارع الإيراني... بل إنها حركة واعية في خطابها الثوري والتركيز فيها محسوب بدقة، وتقوم على أساليب تحريضية واضحة... حركة ثورية حاسبة لخصمها وأسباب القوة لديه، وواضعة المنهج الثوري لمواجهة هذهِ الأسباب. ولولا كل تلك المنهجية والتخطيط والدقة لما كان ممكناً أن تنهار المؤسسة العسكرية «لشاه» إيران وتنضم في نهاية المطاف لتيار الثورة، أي تفكير ثوري هذا الذي لدى الإمام «رض» من وراء نثر الورود مقابل رصاص المؤسسة العسكرية قبل انتصار الثورة الإسلامية؟.

وأي دلالات وإيحاءات ومعانٍ تلك التي كان يختزنها هذا التفكير؟ فمن الواضح أن الإمام «رض» كان قد أمر الثوار قبل الإنتصار بنثر الزهور على أبناء القوات المسلحة المكلفين بإطلاق الرصاص عليهم، ولم يكن أي قائد ثورة يُفكر بأكثر من أن يواجه هذا الرصاص ُبرصاص مضاد. . . إلاّ أن الإمام «رض» واجه الرصاص بالورود ليخترق بهذا الأسلوب التأثيري قلوب أبناء المؤسسة العسكرية حتى لو كانت هذهِ القلوب من الحجر وبدرجة عالية من القساوة. . . وأي قساوة تلك التي تصمد أمام عطر الورد عندما ينثر ليعطيها معنى الرحمة والأخوة، ويبعث فيها عطر الحرية؟. . . أي قساوة تلك التي تصمد أمام نداء الثورة الإنساني وهو ينطلق من الحنجرة «الإمامية» التي أطلقت صرخة الثورة في عالم غارق بالإستغلال ويكبل الفقراء بأغلالٍ حديدية. . . لقد حطم الإمام الخميني «رض» هذه الأغلال، وعلّم الأحرار أسرار الثورة وأسرار تحطيم هذه القيود، ولقد حقق الأسلوب الذي انتهجه الإمام في الضرب على مؤسسة «الشاه» العسكرية أهدافه كاملة، عندما امتزجت دموع الثوار ودموع أبناء القوات المسلحة «في بهمن» لتنتصر الثورة. . .

بعد هذا الإستيعاب من قبل الإمام«رض» لدور المؤسسة العسكرية واستهدافها بالذات من قبل مشاريع التبعية والتخريب، كان هنالك جانب آخر من تفكير الإمام «رض» يتضمن القيم التي يجب أن تسود هذه المؤسسة، وتقوم على أنقاض قيم التبعية في التسليح وتحديد المسؤوليات وطريقة الحياة العسكرية وبرامج التدريب. . . فمن الواضح أن المؤسسة العسكرية كانت تابعة في كل هذه المجالات، وإذا كان الإمام قد أدرك أهمية ودور هذه المؤسسة، وعمل على تهديمها في اللحظة التي كانت تشكل أداةً إضطهادية بيد النظام وضد أبناء الشعب الإيراني المسلم. . . فإنه أدرك من ناحية أخرى بأن المسألة الدفاعية تتطلب بدائل في الإطار المؤسساتي العام، وفي محتوى القيم وطبيعة العلاقات التي تملأ هذا الإطار وتحدد المسؤوليات والمهام في داخله، فهي قيم يجب أن تنسجم مع مبادىء الثورة الإسلامية الأصيلة ويجب أن تبتعد عن الإسلام الشكلي، إذ يقول الإمام «رض» في كلمة له مع قائد الحرس الثوري بتاريخ

٢٨/ ٤/ ٥٩ هـ ، ش يقول: «إن أولئك الذين عليهم أن يصوموا، ليفعلوا ذلك، ويؤدوا الصلاة هناك بعيداً عن كل الأعمال المنكرة، وأن يراعوا أحكام الإسلام بالإسم، ولا أثر للإسلام في قوات الدرك وفي الجيش أو في الحرس الثوري، فهذهِ هي ليست جمهورية إسلامية وإنما هي عبارة عن إسم خاطىء تم فرضه على دولة وشعب، وتدار كما كانت في عهد الطاغوت. . . إن علينا أن نصلح هذهِ الأمور، ووضع الأفراد غير الصالحين جانباً منذ البداية، وإذا ما ارتكبوا خيانة، لاسمح الله، فإنه يجب تسليمهم للمحاكمة».

إذن يبحث الإمام «رض» عن محتوى القيم وليس عن الإسم، فالإسم لا يحقق سوى تكرار للمؤسسة العسكرية القديمة، ولا يعطي مؤسسة جديدة فاعلة قائمة على وعي جديد لمسؤولياتها التي توازي حجم الثورة الإسلامية في إيران، إن الإمام «رض» كان يسعى إلى مؤسسة نظيفة من كل علامات التلوث التبعي الفكري والثقافي والمهني، ولما كان ضبط المؤسسة العسكرية القديمة بما يجعلها الأداة الدفاعية الوحيدة عن البلاد أمراً صعباً فلقد وازن الإمام «رض» هذا الخلل عبر طرح تعددي للسياسة الدفاعية الجديدة، طرح لا يلغي المؤسسة العسكرية القديمة لأن أكثر أبنائها أثبتوا أنَّ ولاءهم من خلال التجربة للثورة وقيمها ومبادئها، إنما يقوم على تعدد مؤسساتي يؤدي:

أولاً: ـ قدرة دفاعية أكبر عن حدود البلاد وعن قيم ومبادىء الثورة الإسلامية في إيران.

ثانياً: ـ يؤدي إلى تأسيس مؤسسات دفاعية جديدة نظيفة ومضمونة من أي أثر تبعي للقوى الكبرى.

ثالثاً: ـ يؤدي إلى تحجيم أي إختراق محتمل بمخاطرة على البلاد للمؤسسة العسكرية القديمة.

رابعاً: ـ يؤدي إلى إيجاد عناصر علاقة جديدة بين المؤسسة الدفاعية وبين أبناء الشعب، أو إنه يؤدي إلى شكل من أشكال العلاقة المفتوحة التي يتحقق في ظلها طموح الإمام التعبوي الأقصى، أو تستوعب طرح تعبئة العشرين مليوناً

الذي نادى به الإمام «رض» في إطار تعدد المؤسسات الدفاعية. ومن خلال ما تقدم يمكن قراءة إصرار الإمام «رض» على إبقاء مؤسسة الحرس الثوري كإحدى المؤسسات أو الأعمدة الأساسية في النظام الدفاعي للبلاد، والتصدي لكل الأصوات التي انطلقت منادية بحل هذهِ المؤسسة بذريعة تصادم القرارات العسكرية، الذي يؤدي إليه وجودها، لقد وضع الإمام «رض» أساس هذهِ المؤسسة، وأصر على إبقائها إلى الحد الذي اعتبرها فيه بأنها ضمانة البلد كما يجسد هذا المفهوم الشعار المكتوب في كل شارع من شوارع إيران والقائل «بأنه إذا لم يوجد هنالك حرس ثوري فليس هنالك بلد»، فهذا الشعار هو كلمة من كلمات الإمام «رض» التاريخية حول مؤسسة الحرس الثوري الدفاعية والتي تتوزع مسؤولياتها بين داخل البلاد وحدوده مع الدول الأخرى. . .

لقد أحبط النظام الدفاعي هذا العديد من المؤامرات والإنقلابات العسكرية، ولقد أحرق فرصة كبيرة وأساسية من الفرص التي عادةً ما تبقى قائمة أمام الدول الكبرى عندما تواجه الهزيمة في نقطة إقليمية ما. . . وهي فرصة الإعتماد على المؤسسة العسكرية لتلك النقطة كورقة إحتياطية لتغيير الأوضاع من جديد وإرجاعها إلى دائرة التبعية التي خرجت منها.

ففي ظل إجراءات التطهير الطبيعية لهذهِ المؤسسة بعد انتصار الثورة وفي ظل الطرح الدفاعي الذي يستوعب طموح الثورة الدفاعي والتغييري، وما أدى إليه هذا الطرح من نظام دفاعي يضع ضوابط معينة على أي حركة أو قرار عسكري بما يؤدي إلى إشاعة عنصر الثقة والطمأنينة فيه، في ظل كل ذلك، أصبح ممكناً للمؤسسة العسكرية بصورة عامة أن تمارس مهامها الدفاعية ليس فقط أمام مؤامرات الأعداء الإنقلابية، وإنما أمام الغزو الخارجي الذي داهم الثورة الإسلامية، وهي لاتزال بعد فتية غضة لم تقطع المسافة الزمنية الكفيلة بإنضاج عودها. . . أمام حرب السنوات الثمانية التي فرضت عليها، وأرادت أن تطفىء نور الثورة، وأن تقتل «بهمن الانتصار» في المهد. فلكي تبقى هذه الثورة كان مفجُرها الإمام «رض» يوصي أبناء القوات المسلحة في وصيته المباركة بكلامه التالي:

«أيها الأعزة. . يا من تجيشون بالعشق للإسلام، وتواصلون بدافع عشقكم للقاء الله الفداء والتضحية في الجبهات، وأعمالكم القيمة في أرجاء البلاد. . . كونوا على أتم اليقظة والحذر، فإن أصحاب اللعب السياسة، ومحترفي السياسة المتغربين والمستشرقين، والأيدي المشبوهة والمجرمة هم خلف الكواليس يوجهون، إليكم أيها الأعزاء، أكثر من أي فئة أخرى شفار أسلحة إجرامهم وخيانتهم ومن كل صوب، ويريدون أن يستغلوكم ـ أنتم أيها الأعزاء الذين أوصلتم الثورة للنصر وأحييتم الإسلام بتضحياتكم ـ يستغلوكم لإسقاط الجمهورية الإسلامية، ويعزلوكم بإسم الإسلام وحب الوطن وخدمة الشعب، عن الإسلام والشعب، ويلقوكم في شباك أحد قطبي نهب العالم، ويحبطوا كل جهودكم وتضحياتكم بمكائد سياسية وخواطر إسلامية و وطنية. .

وصيتي المؤكدة، للقوات المسلحة هي التزام عدم دخول العسكريين في الأحزاب والحركات والتحالفات، كما تنص على ذلك مقررات النظام».

الطرح التعبوي:

«هنالك خصوصية خاصة للقوات المسلحة، جيشاً وحرساً وقوات درك وأمناً داخلياً ولجاناً ثورية وتعبئة شعبية وعشائر، فهي ساعد الجمهورية الإسلامية القوي المقتدر، وحارسة الحدود والطرق والمدن والقرى، وحافظة الأمن، وباعثة الإطمئنان لدى الشعب، ولذا يجب أن تكون محل إهتمام خاص من الشعب والحكومة ومجلس الشورى».

هذا النص في وصية الإمام «رض» المباركة، يجمع بصورة غير مباشرة خصوصيات الطرح التعبوي الذي طرحه قائد الثورة الإسلامية الراحل خلال السنوات الماضية ولاسيما سنوات الحرب المفروضة، وما حصل في إطارها من جوانب بلورة للطرح المذكور بما يضمنه من تلبية لطموح الأمة الإسلامية وقضاياها المصيرية وحاجاتها الدفاعية الستراتيجية، فكان طرح العشرين مليون مقاتل كمؤسسة عسكرية ثابتة أو كوجود عسكري له إدارته ونظامه الخاص. . . النظام الخليط أو الجامع للمؤسسات العسكرية والأمنية التقليدية إلى جانب

القوى الشعبية أو قوى المتطوعين الذين يشكلون الرصيد الإحتياطي لأية قوة إسلامية ضاربة. . وعندما نقول احتياطي هنا فإن هذه التسمية لا تعني الثانوي أو الشكلي الذي اعتدنا أن نرى العديد من نماذجه في الخطط العسكرية والتعبوية لدول مختلفة في العالم كالدول الإشتراكية أو بعض دول المنطقة التي تخلط في أنظمتها السياسية والإقتصادية والعسكرية وتضع هذا الخليط تحت عناوين اشتراكية وعلمانية مختلفة. . فمثلاً في العراق كان هنالك ولا زال ما يسمى بالجيش الشعبي كأحد التعبيرات التعبوية في خطط النظام الحاكم، والأردن أخذ تجربة العراق فيما بعد، والكيان الصهيوني يعمل هو الآخر وفق نظام تعبوي يستنفر كل طاقات المجتمع القتالية، وحتى في العربية السعودية التي لا يوجد فيها نظام التجنيد الإجباري، جرى التفكير في إعداد قوى شعبية تعالج الطوارىء وما تفرضه من تحديات عسكرية على أرض البلاد. وهنالك عشرات الأمثلة العالمية المختلفة التي بإمكانها أن تعكس الطرح التعبوي كما طرحه الإمام القائد ـ رضوان الله عليه ـ .

إن ما يمكن أن يقال هنا هو أن النماذج التعبوية المذكورة بقيت تشترك كلها بعنصر الجبرية. . . جبرية الإنخراط في هذا الجهد التعبوي، وهذا العنصر لاشك أنه يقيد إمكانات العطاء في النظام الدفاعي العام للبلاد، ويوجد حالة من الإحساس بفقدان حرية الإختيار. . . أو المساهمة الذاتية في قرار المواجهة. . . وأقرب مثال لذلك هو الجيش الشعبي في العراق، فهو جيش لا يستهان به من حيث أعداده البشرية والأمكانات المتوفرة له، ولكنه أخفق في أن يسجل حالات عطاء عسكرية واضحة، وكانت مساهمته هامشية، وكان الزج القهري للأفراد في ساحات القتال يولد لديهم شعوراً بأنهم ليسوا أكثر من أحجار يتلاعب بها صاحب القرار السياسي الذي يرفض أي شكل من أشكال التساؤل والحوار حول أحقية هذا القرار العسكري أو السياسي أو عدم أحقيته.

والنتيجة هي أن أخفق هذا الشكل من أشكال التعبئة القائم على القهرية والقسرية في أن يحقق طموح القيادة السياسية في البلد على رغم ما وضع تحت يده من آلات ومعدات قتالية متطورة وتقنية عالية، وكم هائل من أرقى ما خبّأت

مخازن العالم العسكرية من قطع حربية. . .

ومن يدرس التاريخ العالمي العسكري يدرك على الفور أنهُ ليس إخفاق الجيش الشعبي في العراق، هو الإخفاق الوحيد في هذا الإطار، لا بل أن كل التجارب التي قامت على الإنخراط القسري للأفراد في داخل أنظمتها الدفاعية إنتهت إلى هذا الإخفاق، حتى وإن حققت نجاحات شكلية ـ في بادىء الأمر ـ واللجوء إلى هذا الأسلوب غالباً ما يكون إفرازاً ذاتياً لنوعية القيادة السياسية وخلفية نشوئها الإرهابية وذاتية المنطق الإرهابي فيها وغياب المبدأ الفاعل لديها، أو أنه يكون تعبيراً عن ضعف القناعة الشعبية في المبادىء التي ترفعها القيادة السياسية التي تفتقد أساليب الاقناع وتلجأ رويداً رويداً إلى القوة في فرض آرائها وقناعاتها.

أما تجربة الثورة الإسلامية التعبوية فهي وإن كانت تشترك مع تلك التجارب في الإسم والمهمة الدفاعية وشكل الطرح الجامع للمؤسسات العسكرية والأمنية التقليدية الثابتة إلى جانب القوى الشعبية. إلا أنها تختلف عنها في بعض النقاط الجوهرية المهمة، وأولى هذه النقاط هي النقطة الطوعية الذاتية التي تقوم عليها النظرية التعبوية الإسلامية في جانبها المبلور للطاقة القتالية الجماهيرية، فهذه الطوعية أو الإستعداد الذاتي الطوعي للإنخراط يأتي عبر شكلين من أشكال الإيمان، كلاهما فاعلان على صعيد النتائج، وهما الشكل الإيماني الفطري، والشكل الإيماني الواعي أو الجامع للفطرة والوعي معاً، كما إن الإنخراط في المؤسسة الدفاعية الإسلامية من قبل أي فرد من أفراد الأمة يتجسد لديه أحد هذين الشكلين، يكون على الدوام واجباً من الواجبات الشرعية التجسيدية لهذا الإيمان. ومن هنا فإن الطوعية ستتحول إلى عناصر عطاء إضافية على فاعلية أو نتائج أية خطط موضوعة لجهاز تعبوي معين وهو يمارس دوره القتالي، بخلاف عنصر الجبرية في ألوان ونماذج الطرح التعبوي العلماني أو الإشتراكي أو الخليط أو المطعّم، فلقد لاحظنا كيف يتحول الإجبار ـ إجبار الأفراد على الإنخراط في الجهد التعبوي ـ إلى عنصر شلل أو تعطيل للعطاء أو النتائج الإيجابية، فيما نحن نلاحظ أن الإستعداد الذاتي بما يضفيه من قوة نفسية كيف يتحول إلى نتائج وثمار

مضاعفة، لأن هذا الإستعداد يفرض حالة من الحرص الطبيعي على حركة وعمل الجهاز التعبوي من كل فرد أو كادر من أفراده وكوادره، بحيث يتحول إلى رقيب أمين على ذاته ودوره وما يعطيه وكيفية ابتكار أو إيجاد الوسائل التي يمكنها أن تضاعف من عطائه في إطار الحركة الدفاعية التعبوية.. ولا شك إن تجربة الحرب الإيرانية ـ العراقية اختزن أرشيفها التعبوي مئات بل الآف الحالات التي تعبر عن تجاوز هذا الحرص الذاتي حدوده الطبيعية بحيث يتحول إلى ممارسة تحتاج إلى الضبط في إنطلاقاتها الإيمانية.

إن عنصر الإختيار والطوعية بقي الأساس في رؤية الإمام «رض» التعبوية حيث يقول في هذا الإطار وفي ندائهِ إلى حجاج بيت الله الحرام غرة ذي الحجة ١٤٠٥ هـ. ق يقول:

«وفي البعد العسكري يفرض التعليم العسكري على كل من له صلاحية الدفاع عن الوطن في المواقع الإضطرارية، وفي هذهِ المواقع يفرض التعبئة العامة الإختيارية وأحياناً الإجبارية، وفي الأوضاع العادية تُربى القوات المؤمنة المدربة للدفاع عن الثغور ونظم شؤون المدن والطرق وصيانة الأمن».

على أية حال، ففي حين كان الطرف الآخر قد وقع بعد فترة قصيرة من الحرب بالأزمة البشرية، لم تعانِ الساحة الإيرانية في ظل الطرح التعبوي من مثل هذهِ الأزمة ولم تضطر إلى إكراه أحد للإنخراط في الأدوار القتالية والدفاعية، ولم تعتمد أساليب الدعاية الرخيصة أو تلجأ إلى تحريك نزاع قومي أو وطني لدى أفراد الشعب الإيراني لكي تشجعهم على الإلتحاق بصفوف قوات المتطوعين..
إن الطرح التعبوي المذكور كان طرحاً إسلامياً بحق، يعتمد في جوانبه التبليغية على أساليب تربوية إسلامية طبيعية، وهي ـ أي الدولة الإسلامية ـ وجدت نفسها في كثير من الحالات تعاني من فائض بشري تطوعي يهجم عليها ليشكل في ظاهره ومحتواه معنى من معاني التحول الإيماني الكبير الذي أحدثه الإسلام في نفوس أبناء هذا الشعب الإيراني المضحي، وحتى إن الأرقام تجاوزت الخمسة ملايين متطوع في بعض الفترات، تضاف إلى المؤسسات الدفاعية التقليدية في البلاد، لتمارس معاً مهام الدفاع أمام الهجمة الدولية التي كانت قد وصلت

الذروة قبل قبول إيران بالقرار الدولي ٥٩٨.

نقول إنه بالإمكان تصور نمو الروح التعبوية لدى المسلمين بصورة طبيعية، وكنتيجة للتربية الإسلامية، لكن ما هي الصيغة النظرية أو ما هي الأطروحة التي بإمكانها أن تنظم الواقع الإستعدادي الإسلامي للإنخراط في التعبئة؟ هذا ما طرحهُ الإمام من خلال نظريته التعبوية ذات العشرين مليون مقاتل.

إن تجربة الحرب أظهرت الدور الرائع الذي أظهر الطرح التعبوي المذكور في تحمّل أعباء هذهِ الحرب، ولكن وخوفاً من إنطلاق هذا الطرح إلى مستويات تطبيقية أرقى في عموم الساحة الإسلامية الحركية وليس في إيران فقط، فلقد تحركت عجلة الإعلام الدولي لتركز تركيزاً متواصلاً نبرة إعلامية مفادها إن الحشود البشرية الهائلة على الجبهة الإيرانية كانت أمراً اضطرارياً وليس اختيارياً، فلأن إيران كما تقول هذهِ النبرة الاعلامية لاتملك ما يملكه العراق من أسلحة دفاعية متطورة، ونظام طيران فاعل، وعدد كاف من الطائرات، ولأنها لا تملك الكم والنوع التكنولوجي ـ العسكري الذي كان بيد «صدام حسين»، فإنها اضطرت إلى إستخدام إستراتيجية الحشود البشرية على الجبهة، وهذهِ النبرة الإعلامية على رغم ظاهرها الحيادي أو اختفاء الرابط المباشر بينها وبين الطرح التعبوي الإيراني كنظرية من حيث الظاهر، إلاّ أنها كانت توحي بأنه إذا كانت الدولة الإسلامية مضطرة إلى إستراتيجية الحشود البشرية لموازنة الموقف العسكري والقتالي، فهي بالتالي مضطرة إلى تهيئة هذهِ الحشود سواء بطريقة إرضائية أو قسرية. . . إن وسائل الإعلام الدولية كانت تسعى إلى سلخ التوجه الشعبي التطوعي عن دواعي ودوافع الإستعدادات الذاتية ـ المبدئية، وكانت تريد أن تسقط أي حديث عن الطرح التنظيري التعبوي الإسلامي الذي ساهم في إيجاد هذا الكم البشري الهائل المنضوي في إطار اللجان التعبوية، وتفسير هذا الكم في سياقات تحليلية قاتلة للإنجاز والعطاء والثمار والنتائج الإيجابية السريعة التي أعطتها التجربة التعبوية الإسلامية خلال فترة الحرب المفروضة على طهران.

هكذا إذن تتبلور المفردة التعبوية في البناء التنظيري الكلي المترابط

للمواجهة، ويتبلور دورها وأبعادها التأثيرية على حركة هذهِ المواجهة. . . كما تتضح بالمقابل الأساليب الإعلامية العدوّة للتعاطي معها، والحؤول قدر الإمكان دون بروزها كنموذج حقق نجاحات باهرة وسط عشرات النماذج الدولية والعربية الفاشلة في هذا الإطار التعبوي، فليس صحيحاً من وجهة نظر أعداء الإسلام الدوليين أن يبدو كل شيء إسلامي وكأنه قد حقق نجاحات كبيرة، كما ليس مسموحاً أن تبدو صحة كل أفكار الإمام الخميني ـ قدس الله نفسه الزكية ـ وقد أثبتت التجربة قوتها وصلابتها وواقعيتها وسط إخفاقات دولية وإقليمية لا حد لها على الصعيد الفكري والتنظيري. . . وبناءً على هذهِ القناعة العدوة امتد الجهد الإعلامي الدولي المسيء للثورة الإسلامية في إيران، امتد ليغطي هذا الجانب التعبوي بنفس القوة التي عالج فيها كل مفردات ومجالات الصراع بين الثورة وبين أعدائها الإقليميين والدوليين.

إن النقطة الأخرى التي تشكل خصائص النظرية التعبوية الإسلامية كما بلورتها رؤى الإمام «رض»، هي شمولية الطرح، وقد يقول قائل في هذا الإطار ـ أي إطار الشمولية ـ إن رقم العشرين مليوناً الذي طرحه الإمام القائد «رض»، يعتبر الرقم الذروة بالنسبة للشعب الإيراني ـ أي الرقم الفاعل قتالياً في إطار هذا الشعب ـ ولذا فهو أقرب إلى الطموح القطري أو القومي أو الإسلامي المحدود أو الوطني منه إلى الطرح الإسلامي الشمولي، ولو كان الإمام «رض» يفكر في أبعد من حالات الطموح المذكور لأقترح الرقم الذي يعتبر الذروة البشرية الفاعلة بالنسبة لتعداد نفوس الأمة الإسلامية وليس الشعب الإيراني فقط!!.

وإزاء هذا القول لابد من إثارة أمرين، الأمر الأول يرتبط بالإمكانية الفعلية أو الأمر الواقع لحركة القرار السياسي أو التعبوي الإيراني، فهو أمر يتحدد فعلاً بالساحة الإيرانية، ولكن ومع هذا فإن الواقع ـ أي رقم العشرين مليوناً ـ يبقى أكبر من الحاجة الدفاعية الإيرانية البحتة، فمثل هذه الحاجة تحققت خلال فترة الحرب بثلاثة إلى أربعة ملايين مقاتل في حالاتها القصوى، وواضح إن التوجه القيادي عندما ينطلق نحو هذا الرقم بالنسبة لشعب لا يتجاوز عدد أفراده

الخمسين مليون نسمة، فإنه يهدف إلى أهداف إسلامية كبرى ويضع أمامه غايات بعيدة، ويسعى إلى تهيئة الرصيد الدفاعي عن طموحات الثورة الإسلامية ودحر المحاولات الساعية إلى إيقاف مسيرة هذه الطموحات، ومع هذا فإن الرقم المذكور لم يكن الرقم الوحيد في الإطار التنظيري.

أما الأمر الثاني فهو يرتبط بموقع إيران في تفكير الإمام «رض» وبدورها بالنسبة لخريطة العالم الإسلامي، فإيران بقيت على الدوام تمثل المركز ـ مركز انطلاق الثورة الإسلامية ـ باتجاه الساحة العالمية في كل أحاديثه، ومركزاً للإسلام الصامد والثوري، وعليه فإن تسديد ودعم هذا المركز، هو في الواقع دعم وتسديد للمشروع الإسلامي العالمي، وطرح التعبئة عندما يتكثف في هذا المركز إلى حد العشرين مليون مقاتل، فإن هذا التكثيف يبقى أمراً ضرورياً لحساسية الموقع الذي تحتله إيران في العالم الإسلامي... فإيران تحملت وستتحمل العبء التعبوي الأكبر في إطار المواجهة الإسلامية مع عالم الكفر والطغيان، وليس بالضرورة إذاً أن تصل الأرقام التعبوية في نقاط إسلامية أخرى غير إيران إلى الذروة التي تستوعب كل الطاقات والإمكانات البشرية والمادية ولكن يبقى ضرورياً أن تتكامل حالات التعبئة في نقاط العالم الإسلامي الجغرافية المختلفة لترسم الإطار الإجمالي للنظرية التعبوية الإسلامية ذات الخصوصيات المتعددة وذات المميّزات عن النماذج التعبوية الأخرى، القائمة على القسرية وعامل التحديد، ولتأخذ هذه النظرية موقعها في الإطار الأشمل والأوسع للمواجهة مع القوى الدولية العدوة من جهة، ولتأخذ موقعها في البناء النظري العام لأساليب المواجهة المضادة للقوى الكبرى الذي رسمته عقلية الإمام «رض» القيادية على مجموعة من المحاور والأحداث والقضايا من جهة أخرى.

فالإمام «رض» ينظر للقضية ببعدها الشمولي من خلال ما يقوله في نداء له في عيد الأضحى المبارك ١٠ ذي الحجة/ ١٤٠٣ يقول الإمام: «لو تحققت ـ إن شاء الله ـ الوحدة بين المسلمين وبين حكومات البلدان الإسلامية، وهو ما آراده الله ورسوله وأمرا واهتما به، تستطيع حكومات البلدان الإسلامية بمساندة الشعوب أن يكون لها جيش احتياطي دفاعي مشترك يزيد عدده على مائة مليون

مدرب، وجيش من مئات الملايين في خدمة العلم، وبذلك يكتسبون أكبر قدرة في العالم.

واليوم، إذ لم يحصل هذا تستطيع الحكومات الإسلامية في المنطقة وأطرافها أن يكون لها جيش احتياطي من عشرات الملايين. من أكثر من عشرة ملايين مجند تحت خدمة العلم للدفاع عن البلدان الإسلامية. وهذا أيضاً يفوق القوى، وليس أوجب من أن تفكر حكومات المنطقة في هذا الأمر وتخطط له في ظل راية الإسلام فقط بمعزل عن (الفوارق) اللغوية والعنصرية والطائفية، لتنجو من عار الخضوع للقوى الكبرى، ولتذوق حلاوة الإستقلال والحرية، ويلزم لإيجاد مثل هذهِ القدرة أن تدرس كل حكومة بالتفاهم مع شعبها مثل هذا المشروع الحيوي للدفاع عن وطنها، وتستوحي هذا الأمر من البلد الإسلامي إيران الذي يدافع عن نفسه وعن أخوته المسلمين».

هكذا إذاً ينظّر الإمام تعبوياً للمركز ـ إيران ـ من خلال جيش العشرين مليوناً، وبما يتجاوز حاجة هذا المركز. وينظر بعد ذلك تعبوياً للثورة كمشروع إسلامي وعالمي وبالأرقام التي تتوازى مع محيط هذا المشروع البشري ليفك أي التباس، مزيداً من الوضوح على النظرية التعبوية، ومهما يكن من الأمر فإنه على صعيد هذا البناء النظري لمفردات الصراع لدى إمام الأمة الراحل، يمكن أن نقرأ بيسر العلاقة بين النظرية التعبوية المذكورة كصراع مواجهة، وبين يوم القدس العالمي ومسيرة البراءة من المشركين والدعوة إلى أسلمة قضايا العالم الإسلامي، ومشروع الوحدة الإسلامية.

فهذه الطروحات وإن كانت تتوزع على مجالات مختلفة وتؤدي مهام متعددة إلاّ أنها واضحة فيما تؤدي ببعدها الترابطي في إطار الصراع القائم مع القوى الدولية العدوة للإسلام وواضحة في صفتها التكاملية والدعم أو الإسناد المتبادل بين مفردات البناء النظري الشامل لفكر الإمام ـ قدس الله نفسه الزكية ـ . . ومن هنا تأخذ ما أسميناها بنقطة الشمولية للطرح التعبوي معناها ومداها، فهذا الطرح شامل أي بمعنى إنه يستوعب كل نقاط العالم الإسلامي الجغرافية ويؤدي المهام الدفاعية عن هذا العالم، كما إنه شامل بمعنى ما يؤديه

من دور مساند وداعم لباقي أجزاء التفكير أو التنظير الذي طرحه الإمام القائد، وشامل بمعنى أنه يمثل الطرح الموازي لثقل التحدي الخارجي المفروض على الأمة الإسلامية وعدد الأطراف الدولية التي تشكله في إطار هذا التحدي، وكما يوجز ذلك ما جاء بمناسبة بدء اسبوع التعبئة الجماهيرية في ٣ ربيع الثاني ١٤٠٠ هـ على لسان الإمام «رض»: «اجهدوا لكي تكسبوا القوة أكثر فأكثر في العلم والعمل وبالإتكال على الله القدير، جهزوا أنفسكم بالسلاح والصلاح، فالله تعالى معكم وأن يد القدرة التي حطمت القوى الشيطانية هي السند الإلهي للمجتمع... إنني آمل أن تكون هذه التعبئة الجماهيرية الإسلامية، نموذجاً ليحتذي به كل مستضعفي العالم والشعوب الإسلامية وأن يكون القرن الخامس عشر هو قرن تحطيم الأصنام والتمسك بالإسلام والتوحيد والقسط والعدل».

العلاقات التسليحية:

«ويجب أن أضيف هنا أن احتياجنا بعد كل هذا التخلف المفروض علينا للصناعات الثقيلة في البلدان الأجنبية هو واقع لايمكن إنكاره ولكن هذا لايعني أن نرتبط بأحد القطبين في علوم التقنية المتطورة بل على الحكومة والجيش أن يعمدا إلى إرسال الجامعيين المؤمنين إلى البلدان التي تمتلك تقنية صناعية متطورة دون أن تكون استعمارية ولا مستغلة، وليجتنبا الإرسال إلى أمريكا وروسيا والبلدان السائرة في فلك هذين القطبين، اللهم إلا أن يأتي ـ إن شاء الله ـ يوم تنتبه فيه هاتان القوتان إلى خطئهما، فتؤوبان إلى مسيرة الإنسانية وحب الإنسان واحترام حقوق الآخرين».

يعالج إمامنا الكبير من خلال هذا النص الموضوعي في وصيته المباركة مسألة حساسة في مجال علاقات الدول الصغرى أو المتوسطة التسليح بالدول الكبرى، فلطالما كان شعار الحاجة إلى التطور العلمي والتكنولوجي والتقنية الراقية، مدخلاً لإنحرافات سياسية خطيرة انتهت إلى حالة التبعية الواضحة في العلاقات الدولية، وتحت ثقل الإحساس بالهيمنة المطلقة لموسكو وواشنطن في المجال العلمي والتصنيعي صور الساسة والإعلاميون أن لاطريق ثالثاً للنهوض بالدول «النامية» إلى مراقي العلمية الكبرى، وعلى أساس هذا التصوّر بقيت هذه

الدول مربوطة في قرارها السياسي وإرادتها واستقلالها الواقعي إلى هذا الشعار المزور، فواقع الحال وكما يؤكد الإمام الخميني ـ قدس الله سره الشريف ـ إن العالم فيه أكثر من طريق ثالث لتحقيق طرح أي بلد علمياً وتصنيعياً، وهناك عدد من الدول التي بإمكانها أن تقدم القدر اللازم من التطور التقني المطلوب، والبعيدة عن منطق الاستعباد والفوقية والمنطق الفرضي الذي يسلب حرية الآخرين ويقيد إرادتهم بقيود حديدية. فالطريق الثالث هنا يمثل إجراء للحد من هيمنة الولايات المتحدة والإتحاد السوفياتي على العالم، ويحاصر منطق الإستغلال الذي يعملان به، ويفتح الآفاق أمام حركة تبادل تقني وتطوّر علمي حر وبعيداً عن التبعية، ومساعدة على إرساء قواعد جديدة للعلاقات الدولية، قواعد أكثر توازناً وأقرب إلى العدالة، وأبعد عن حالة الظلم المريرة التي تميز هذه العلاقات في وقتنا الحاضر، لاسيما وأن التطور التقني والعلمي لا يتم بسياسة الطفرات. . . إنما تشترك فيه مجموعة من العوامل والإمكانات الذاتية والإبداعية، وعليه فإن الإعتماد على الآخرين يبقى يمثل عاملاً من هذه العوامل، عاملاً يُعطى بالتجزئة وبالتدريج تبعاً للظروف ودرجة العلاقة العالمية بين أي طرفين، ولذا فإن الحاجة فيه إلى واشنطن أو موسكو تكاد تكون محدودة إذا ما قيست على أساس البدائل الدولية المتاحة، فالولايات المتحدة لاتعطي مصر مثلاً كل ما تطمح إليه في المجال العلمي والتصنيعي، وعليه فإن مصر قادرة على أن تأخذ من كوريا الشمالية أو من الصين ما تحصل عليه من واشنطن، دون أن يكون هذا الأخذ مربوطاً بشروط سياسية أو بحالة من حالة التبعية كما هو حاصل في علاقة النظام المصري مع واشنطن.

وأفغانستان قادرة على أن تأخذ من البرازيل أو الأرجنتين ما تحصل عليه من الإتحاد السوفياتي، دون إستغلال أو إستعباد، لا بل إن الطريق الثالث لا يلبي الحاجة بحدود ما تعطيه واشنطن وموسكو في إطار الطموح التطويري العلمي فحسب، بل هو قادر على أن يلبي درجة أكبر من طموح الدول الصغرى، فالولايات المتحدة والإتحاد السوفياتي لا يتعاطيان في المجال العلمي والتقني إلا بحسابات قائمة على إبقاء منطق التبعية وحرمان «الحلفاء» من الاستقلال

التصنيعي، فهذا الإستقلال سيضر بنفوذهما ومصالحهما على المدى البعيد، وعليه لابد من قيود صارمة في عملية التعاون العلمي تجعل أي بلد صغير غير قادر على النهوض بنفسه إلى ما يطمح إليه في هذا المجال.

وتاريخ العلاقة بين واشنطن وموسكو من جهة وحلفائهما من جهة أخرى، ما هو إلا أرشيف لمصاديق هذه الحقيقة، وسجل لأرقامها الواضحة، ويكفي هنا أن نتصور الأهداف التي تدفع بواشنطن على الدوام إلى ممارسة شتى أنواع الإبتزاز ضد «القنبلة النووية الباكستانية»، على رغم التحالف الكبير الذي يربط الطرفين أو يكفي أن نتصور آفاق العلاقة التسليحية السعودية ـ الأميركية فعلى رغم التحالف والنفط والأموال السعودية الهائلة في البنوك الأميركية، على رغم القواعد العسكرية الأميركية في السعودية فإن القادة الأميركان يبتزون النظام السعودي في صفقات السلاح المشتراة بمليارات الدولارات فضلاً عن إعطائهم التقنية التي لم تحصل بمعناهاالحقيقي ولا لمرة واحدة حتى الآن.

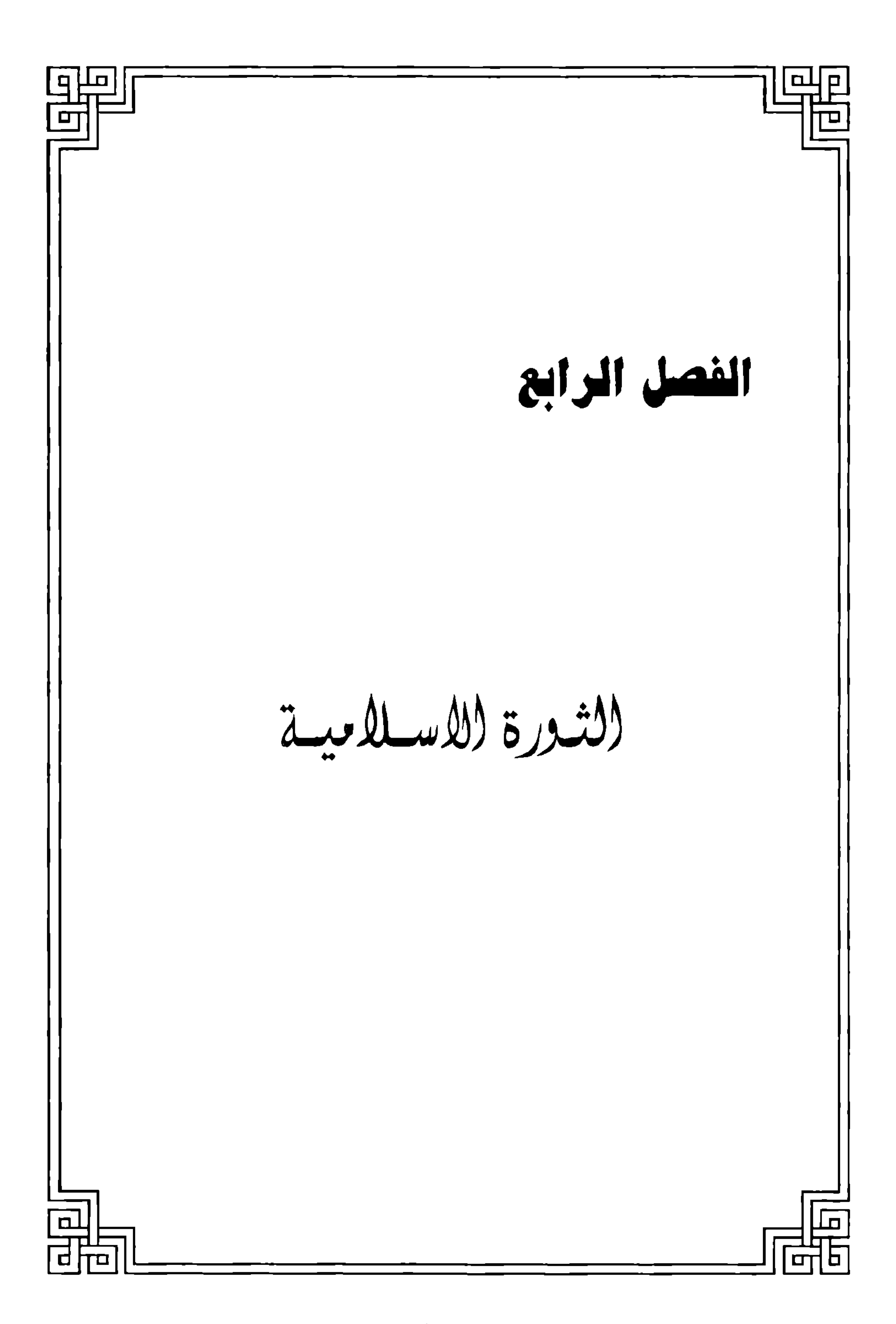
إن الإمام الخميني ـ رضوان الله تعالى عليه ـ يريد أن يقول لنا بأنه مجرد الإفتراض بأن العلاقة العلمية مع موسكو أو واشنطن يمكن أن تقوم على أساس من النوايا الحسنة هو افتراض ساذج لايأخذ بنظر الإعتبار حقائق التاريخ ولا يحيط بأشكال العلاقات القائمة فعلاً معهما.

ويوصينا الإمام بأن البدائل عن هذه العلاقات وبما يضمن مصالح العالم الإسلامي ودوله، بل بما يضمن تصحيح حالة الخطأ في مجمل العلاقة الدولية بما يرتبط بجانبها التطويري العلمي، هي بدائل متاحة و متوفرة في عالم اليوم، كما أنها أكثر فائدة، وأصلح كقناة للوصول إلى أهداف وطموحات الدول «النامية»، حيث لم يثبت حتى الآن إن موسكو وواشنطن ساهمتا مساهمة فعلية في تطوير دولة من دول العالم الإسلامي، ولم يثبت أنهما منحتا هذه الدولة أكثر مما يمكن أن تحصل عليه من أطراف دولية أخرى ذات نظرة إنسانية أو اقتصادية إلى العلاقات العلمية والتقنية، وبعيدة عن منطق الإستغلال والإستعباد، إنها إذاً وصية الإمام الأكثر أهمية والأكثر استيعاباً لتعقيدات الحاضر والأكثر تشخيصاً لنظام العلاقات التسليحية والعلمية، والدعوة إلى استبداله بنظام آخر قائم على

العدالة وعلى النوايا الحسنة في بناء المدنية والحضارة وخدمة الإنسانية جمعاء.

وبعيداً عما يقال من أجواء عزلة دبلوماسية يفرضها هذا النفس الإستقلالي، فهذهِ العزلة لا تصلح أن تكون مقياساً لقوة أي نموذج دولتي كما يوضح النص التالي الذي قاله الإمام «رض» بمناسبة عيد الأضحى المبارك ١٤٠٠ هـ:

«مع الأسف، يفكر البعض بأننا منزوون بسبب مخالفتنا لأمريكا، كلا إن امريكا هي المنزوية، إن الميزان عندنا هو الشعوب، فارفعوا الحراب عن أبناء الشعوب وامنحوهم حريتهم، عند ذاك سترون من هو المنزوي».



الفصل الرابع

الثورة الاسلامية

إيران العشرينات وإيران السبعينات

يتحسر إمامنا الكبير الراحل إلى الملكوت الأعلى ألف مرة في نص من نصوص وصيته المباركة، يقول فيه: «وحسرة وألف حسرة على أن هذه الثورة تحققت متأخرة وعلى أنها لم تتفجر في الأقل في بداية حكم محمد رضا المتجبر الخبيث، ولو كانت قد وقعت لما كانت إيران المنهوبة».

بالطبع إن هذا النص ينم عن وعي بالغ وكبير وإحاطة مفصلة بظلامية الفترة التاريخية التي حكم فيها شاه إيران المقبور وأباه، فقبل هذه الفترة ما كانت الثروة النفطية الهائلة قد نهبت من إيران بالقدر الذي هو عليه حتى لحظة قيام الثورة الإسلامية، فلو كانت الثورة قد حصلت آنذاك. لوفرت عشرات السنين الزمنية من البترول لشعب إيران، ولما استطاعت القوى الإستعمارية أن تجعل من إيران مخزن احتياطي من مخازن النفط المصدرة لـ «إسرائيل» والقلاع الإمبريالية الأخرى في العالم.

لو حصلت الثورة آنذاك لما حصل ما حصل من مظاهر غزو ثقافي وفكري وحالات تبعية قاسية في المجالات التعليمية والتربوية، ولما ملئت إيران بمراكز الفساد الأخلاقية، ولما تحولت إلى نسخة إجتماعية مقلدة للغرب في كل شؤون الحياة العامة.

لو حصلت الثورة قبل أربعين أو خمسين سنة مثلاً، لكان بإمكانها أن تصل اليوم إلى كل مايقال الآن بشأن الدول الكبرى من الإكتفاء الذاتي، سواء كان على الصعيد الصناعي أو التكنولوجي أو الغذائي، ولأصبحت أكثر قدرة في طرح النموذج الإسلامي الحاكم فيما يتطلبه هذا النموذج من استقلال في القرار

السياسي ومواجهة كل حالات التدخل الدولية في إحباط التوجه نحو هذا الهدف المقدس من أهداف الرسالة الإسلامية، والنابع من ضرورات التأكيد الشرعية على الحفاظ على كرامة الأمة الإسلامية.

نقول لو كانت الثورة الإسلامية قد حصلت في ذلكم الوقت لما حصل مسلسل المحن الدامي الذي أدى فيما أدى إليه إلى خسارة الكثير من كوادر الثورة الفكرية القيادية. فهذه الكوادر ما كانت لتضيع عبر الاغتيالات، لولا حالة البلاد المتعددة الولاءات للقوى الكبرى، ولولا عشرات الأحزاب والحركات التي تدافع عن سياسة الشرق والغرب، وتنضوي تحت لوائه، وتتحرك بقراراته وتوجهاته في ظل الفراغ الأيدلوجي وغياب النموذج الفكري الحاكم والذي من المفروض له أن يلبي طموح الكثير من شباب الأمة الذين خدعوا ببعض الشعارات التحررية المزيفة بفعل أباطيل وأحابيل بعض قيادات هذه الأحزاب الكبرى التي لم تكن كما دللت التجارب و الأحداث سوى صنيعة من صنائع الدول الكبرى.

لقد كانت إيران السبْعينات تختلف كثيراً عن إيران العشرينات، ففي العشرينات كانت الساحة الداخلية أقل تعقيداً في تياراتها الفكرية المتصارعة، وكان المجتمع الإيراني أقل تفككاً، وكانت شعارات الديمقراطية أو التحرر الشيوعي في بداياتها ولا تملك أي رصيد اجتماعي يذكر.

وفي ذلك الوقت أيضاً لم تكن إيران كما كانت قبل الثورة بسنوات من حيث مراكز الفساد والتمييع والإنحلال الأخلاقي والسلوكي، وباختصار كانت الساحة الداخلية مليئة بفرص الإنتقال بها إلى حالة تحكيم الإسلام بسرعة هائلة وأيسر في تعبئتها ضد الإحتلال الأجنبي.

كانت هذه الساحة قادرة على خلق الإبداع وإعطاء مجالات التطوير، والإرتقاء بالبلاد إلى مصاف الدول الكبرى. لو أن نظاماً ثورياً إسلامياً كان قد سيطر على دفة الأمور، وطبق الإسلام، كما طبقته الثورة الإسلامية في نهاية السبعينات ولسخر الإمكانات الهائلة والطاقات الكبرى والموارد والمعادن التي تختزنها أرض إيران الواسعة.

هكذا كانت إيران في العشرينات وهي بالفعل تستحق أن يقال عنها كما قال الإمام ـ قدس الله نفسه الزكية ـ «وحسرة وألف حسرة على أن هذه الثورة تحققت متأخرة».

كيف لا يتحسر قلب الإمام الرحيم، وهو يرى بلاده في تلك الفترة وقد ماتت فيها فرص الإنقاذ والبناء والتطور والقدرة على الإستقلالية فيما لو حصلت هذه الثورة، بينما إيران السبعينات احتاجت إلى المساحة الزمنية الكبرى في حياة الإمام الجهادية، حتى أنتجت الثورة في ظرف داخلي قاسٍ، ووسط نسيج ثقافي وفكري وحزبي ومعتقدي معقد وفي ظل عالم أكثر قسوة، وأكثر استعداداً لإرهاب أي بعث إسلامي جديد وكذلك في ظل فاصل زمني طويل بين الإسلام في كيانه ودولته المركزية التي كانت متمثلة آنذاك بالدولة العثمانية وبين انطلاق الثورة في نهاية السبعينات، فلو كانت الثورة قد حصلت في العشرينات أو الثلاثينيات لكان دورها في تجديد كيان المسلمين السياسي سهلاً ويسيراً، حيث كانت الأمة آنذاك لازالت تحت هول الصدمة، صدمة إنهيار الكيان السياسي الموحد للعالم الإسلامي، وهي ـ أي الأمة ـ كانت جاهزة لدعم أي تحرك ساع إلى إعادة الدولة الإسلامية المركزية الممزقة، أما في الزمن الذي حصلت فيه الثورة الإسلامية في إيران، فلقد كانت الأمة تخضع لأمر واقع تقسيمي مرير، قد لاتملك الثقة المطلوبة في قدرتها على السعي إلى تحقيق الهدف التوحيدي للدولة الإسلامية المركزية.

من هنا ندرك لماذا تحسر الإمام «رض»، وندرك ماهي أبعاد الوعي والإدراك التي تختبىء وراء النص المذكور من وصيته المباركة.

خصوصيات الثورة:

لم تكن الثورة الإسلامية في إيران كباقي الثورات العالمية التي حصلت في التاريخ المعاصر، فهي ثورة ذات خصوصيات وذات صفات ذاتية لا تنطبق على غيرها من الثورات، سواء من حيث الإنطلاقة وأجواؤها وظروفها وشكلها، أو من حيث الأساليب التي أعتمدتها في مواجهة أعدائها الدوليين والإقليميين، أو

من حيث الأهداف العليا التي سعت إلى تحقيقها. وتبقى بالتأكيد الثورة الإسلامية في إيران تستحق أن يعترف لها بتلك الخصوصيات، ليس انطلاقاً من موقف تعاطفي معها، كما إن هذا الإعتراف لايعد نتيجة لقصور استيعابي لأحداث التاريخ وما أختزنه رحمه من ثورات، وما اشتركت فيه هذه الثورات من ثوابت في صور البطولة أو حنكة القيادة أو قوة التحول الإجتماعي الذي عبرت عنه تلك الثورات.

ففيما يخص الإنطلاقة أو البدايات للثورة الإسلامية في إيران، يمكن القول أنها كانت بدايات ذاتية أو انطلاقة ذاتية جسدت الأساس الصحيح للنهج الإستقلالي الذي مارسته الثورة فيما بعد، فلم يكن بإمكان أحد أن ينكر بأن الثورة في إيران قد قطعت شوطها الإبتدائي ووصلت إلى درجة النضج الثوري ثم إلى نقطة الإنتصار بإمكانات ذاتية بحتة، فلم تمتد إليها يد خارجية محرضة، أو مساعدة أو مشجعة أو واعدة. . . الكل، كل الدول الكبرى كانت لاترى سقوط «شاه» إيران يصب في مصلحتها، وهي بالتالي كانت تتمنى لو أن الثورة لم تصل إلى نقطة الإنتصار، أو كانت تتمنى لو أنها استطاعت أن تحاصر هذهِ الثورة في نقطة قبل نقطة الإنتصار التي وصلتها لتسجل بذلك أول وصول ذاتي بعيد عن أي شكل من أشكال التدخل الخارجي إلى شاطىء الكرامة والحرية، وإلى ما يعطي الحياة الإيرانية أو الدور الإيراني معنى في ظل الإسلام الذي رفعت رايته وراحت تكافح من أجله بأشكال وصور لم تكن مألوفة من قبل.

إن أكثر الثورات في التاريخ المعاصر ـ إن لم نقل جميعها ـ كانت نهايتها الإنتصارية نتيجة لجهود ذاتية إضافة إلى جهود خارجية قد تحالفت معها في نقطة من نقاط المسير الثوري وانطلاقاً من حسابات موازنة الصراع الدولي والمصالح التي تتحكم بهذا الصراع. . وعليه يمكن القول أن الثورة الإسلامية في إيران انفردت بالإعتماد على الإمكانية الذاتية منذ بداية الإنطلاق ورفضت بقوة أي مساعدة خارجية لأن قياداتها كانت تدرك إن التبعية غالباً ماتقف وراء عناوين متعددة لهذه المساعدة.

يقول الإمام «رض» في هذا الإطار وفي حديث له إلى المشاركين في

مؤتمر القدس ٢٧/ رمضان/ ١٤٠٠ هـ يقول: «لقد شاءت القوى الكبرى أن تخدرنا وتشلنا. . وشاءت إرادة الله أن تبعث في جسد هذهِ الأمة ومضة أيقظتها من سبات عميق، وأنحلت تلك المشكلة المستعصية، مشكلة «الشاه» وبطانته و«جلاوزته»، وكان الحل بيد أبناء الأمة أنفسهم، دون أن ترد من خارج الحدود بندقية، و دون أن تساعد الشعب حكومة أجنبية. . بل بالعكس فقد اتخذت الحكومات موقف المعارض، كان العراق يعارض بشدة، وهكذا موقف الكويت ومصر وسائر الحكومات وضعها معلوم ومكشوف. . . ومع كل هذا فالشعب إقتحم الميدان بيد خالية، وكسر تلك السدود التي ظن إنها منيعة ومستعصية».

لم تكن الثورة الإسلامية في إيران تقع في سياق الثورات العالمية في أسس إنطلاقها فهي من حيث الزمان يمكن القول إن القوى بذلت جهوداً خارقة من أجل تغيير نمط حياة المجتمع الإيراني أبان حكم «الشاه» وأبيه فخلال فترة الحكمين امتدت الثقافة الغربية إلى كافة مجالات الحياة وأحدثت إنحرافاً خطيراً في المفاهيم والأفكار والعادات وشكليات الحياة العامة ونظام الحكم والنظام الإداري والمناهج التعليمية والجامعية.

وكان مفروضاً لهذا الإنحراف أن يجعل أية مهمة تغيير جديدة عملية مستعصية، فكيف الحال إذا كانت هذه المهمة قد إنعكست على شكل ثورة عارمة لم يشهد لها القرن الحالي مثيلاً، لاشك إن مثل هذه الثورة ماكان لها أن تقوم وفق التحليل العام للحالة الإجتماعية والسياسية السائدة آنذاك في إيران، وما كان لها أن تهشم ببساطة بنيان الإنحراف الذي بنته الثقافة الغربية في كل مؤسسة وزارية من مؤسسات البلد.

يقول الإمام «رض» في هذا الصدد بمناسبة الهجرة النبوية الشريفة ١٤٠٠ هـ:

«إن النهضة الإسلامية للشعب الإيراني انفجرت في فترة زمنية تشابه الفترة الجاهلية حيث يحكم السيف بدل العدل، والسجن والتعذيب والإرهاب بدل الحرية، والفقر والفاقة بدل الرفاه والسعادة، ذلك أن أظفار الوحوش المتلبسة بلباس البشر كانت ناشبة في أجساد شبابنا الأعزاء فتقطع الأنفاس في الصدور،

وهي تعمل على محو آثار الإسلام والإنسانية وتحطيم صرح العدالة، لقد كان الإرهاب والوحشية يسودان المجتمع حتى لم يكن الرجال يجرؤون على الحديث أمام نسائهم، والإخوان أمام الأخوات، وكانت الأقلام ووسائل الإعلام مسخرة لخدمة الظالمين، في هذا الحين تجلت يد القدرة الإلهية. . . وتبلورت في ظل (الله أكبر)، وسارت بالشعب الإيراني من الضعف إلى القدرة ومن الظلم إلى الشجاعة، ومن الإستنجاد إلى الحركة. فإذا بالسيل العارم من الأناس الالهين الذين يعتبرون الشهادة سعادة، وبذل الدماء أكبر عبادة، يحطم قلاع الجبارين ويطيح بصرح ٣٥٠٠ سنة من الظلم والوحشية والترف فإذا به قاعا صفصفا».

أضف إلى ذلك موقع إيران الستراتيجي في نظام القوى الكوني بالنسبة للولايات المتحدة الأميركية التي إندفعت إلى لعب كل أوارقها من أجل أن تحول دون انتصار الثورة، إلا أنها انتصرت بفعل الإمداد الغيبي والقيادة التاريخية للإمام الخميني ـ قدس الله سره الشريف ـ، فهي قيادة عرفت كيف تخاطب الشارع الإيراني وكانت تملك من قوة البيان وقوة التأثير ماجعلها تقارع المفاهيم الإنحرافية الغربية داخل النفوس ومن ثم تخترق القلوب والضمائر لتهزها بإتجاه أصالتها وفكرها وتاريخها وتراثها.

إن أسلوب الخطاب لدى الإمام كان قد فعل فعله في ثلاثين مليون إنسان اخترق عقولهم وأحدث من خلال هذا الإختراق حركة جماعية ذات نسق واحد وتلك ظاهرة لم يعرف التاريخ مثيلا لها، أعطت الثورة خصوصية في أسس الإنطلاق، ورسمت لها سياقاً إنفجارياً خاصاً، إذا صح التعبير، وعليه فإن الإمام الخميني «رض» يعني مايقول عندما يؤكد في وصيته المباركة بأنه «لا ينبغي الشك بحقيقة أن الثورة الإسلامية في إيران تمتاز عن كل الثورات، تمتاز عنها في الإنطلاقة وفي أساليب المقارعة، وفي أهداف إنتفاضتها».

هذا على صعيد الإنطلاقة أما على صعيد الإسلوب. . . أسلوب العمل الثوري سواء كان الدفاعي أو الهجومي فأيضاً كان للثورة أساليبها الخاصة التي إنفردت بها عن باقي الثورات وثوابتها المعروفة ونهاياتها التي غالباً ماتحددها المخططات التدجينية الدولية. . . فأسلوب الدفاع والهجوم وأسلوب التحريض

لدى الثورة كان واضحاً وبعيداً عن الأساليب اللعوبة وعن المحتويات النفعية وعن التعدد السلبي الذي يحدد الطابع الإنتهازي. . . أسلوب لا يؤمن بالمناورة والمساومة والمخادعة كما أنه لا يتحرك في إطار السعي إلى الموازنة أو إلى أنصاف الحلول، كما إنه لم يعتمد المنطق السوقي المصلحي. . إنه واضح بوضوح الثورة ورافض للإستقواء بالأخرين، كما رفضت الثورة أي مساعدة خارجية على صعيد الإنطلاقة. . . ومن هنا فإن الأسلوب ساهم أيضاً في توضيح الماهية الذاتية للثورة البعيدة عن الخطوط الفكرية الشرقية والغربية ودولها ومعسكراتها وتحالفاتها والرافضة لأي شكل من أشكال الإستغلال التي تحددها هذه التحالفات في بعض الأحيان، وبالإضافة إلى هذا فإن الأسلوب كان كذلك سبباً من أسباب التعاطف الجماهيري الخارجي مع الثورة والثقة التي ربطت الشعوب المضطهدة إلى هذِهِ الثورة كشعاع وأمل طموح ساعٍ إلى التخلص من العبودية إلى الحرية التي رفلت بها إيران وتذوقت طعمها.

يقول الإمام «رض» في ندائه إلى حجاج بيت الله الحرام ١٤٠٥هـ:

«وفي الحقل السياسي يوجه البلدان إلى إدارة شؤون الحكم السليم في جميع المجالات دون التثبت بالكذب والخداع والتآمر الماكر».

على أية حال، تبقى الأهداف. . أهداف الثورة فليس المهم أن نؤكد على شموليتها وإنعدام الأنانية فيها وتحررها من الأطر «القومية والوطنية» الضيقة، إن المهم أن تكون هذه الأهداف هي إفرازاً طبيعياً لطموح تحرير كل الحفاة والمعدومين ليس في العالم الإسلامي فحسب، وإنما في كل الأرض وبكل ما تعنيه مفردة المستضعفين التي كانت ولازالت تمثل واحدة من مفردات الثورة الأساسية والثابتة التي تعبر عن أهدافها، وإن المهم فيها هو إنها سجلت حالة سبق في إطار حدث الثورة التاريخي إلى أي بلد انتمى، فالمبادىء في هذا الإطار غالباً ما تبقى فاعلة في فترة صعود الحدث الزمنية، ولكن ما أن تصل الثورات إلى الإنتصار حتى تبدأ مراحل جديدة مغلفَّة بأغلفة الثورية والمبادىء، لكن محتوى هذه المراحل ينطوي على الكثير من الأنانية والإستغلال والإستعلاء والفوقية ولا يحتاج ذلك إلى مصاديق تاريخية وميدانية، فالمصاديق الدولية والعربية في هذا

الإطار كثيرة وتبقى في ظل هذه المصاديق الثورة الإسلامية في إيران تنفرد في تمردها على (الأنا) وعلى المصلحة القومية والوطنية الضيقة في سعيها نحو ترجمة أهدافها. . إنها ثورة، إذاً كما يقول الإمام الخميني الراحل ـ قدس الله نفسه الزكية ـ ثورة «تمتاز عن كل الثورات، تمتاز عنها في الإنطلاقة وفي أساليب المقارعة وفي أهداف انتفاضتها، ولاريب إن الله تعالى قد مَنَّ بهذه النعمة الإلهية والهبة الغيبية على هذا الشعب المظلوم المنهوب».

وإذا كانت خصوصية الإنطلاقة والإسلوب قد أصبحت من ثوابت التاريخ التي لا يمكن تغييرها، فإن الإمام «رض» أوصانا في أكثر من مكان بصورة مباشرة وغير مباشرة أن نحافظ على خصوصية الهدف. . . فهو هدف مفتوح إذا صح التعبير، ويضع الإمام «رض» تعريفاً له كالتالي: «وكل تلك الانتصارات هي ثمرة جهود الأمهات والأباء وجماهير إيران الأبية خلال عشرة أعوام من مقارعة أمريكا والغرب وروسيا والشرق. إن حربنا كانت حرب الحق ضد الباطل فلا نهاية لها. حربنا كانت حرب الفقر ضد الغنى، وحربنا كانت حرب الإيمان ضد الخسة، وهذه الحرب مستمرة مُنذ آدم إلى نهاية الحياة». (كيهان العربي العدد: ١٦٠٦).

كما إن الإمام «رض» يقول في هذا الإطار الهدفي في ندائه بمناسبة يوم القدس العالمي ١٠/٨/ ١٩٨١.

«إن الجميع يعلمون إن الثورة الإسلامية الإيرانية العظيمة لا مثيل لها بين أقرانها إذ أن القواعد التي انطلقت منها راسخة ومن أهم تلك القواعد أنها ثورة عقائدية إسلامية. وعلى هذا كانت حركة الأنبياء، ونأمل في أن تكون هذه الثورة مشعلاً إلهيا بحيث تبعث على إيجاد إنفجار عظيم في بلاد المستضعفين المظلومين وأن تشكل حركة في العالم وتنطلق ثورة تستمر حتى تتصل بطلوع فجر ثورة بقية الله الأعظم أرواحنا له الفداء.

والمفروض في هذا الشعب العزيز، الذي قام بهذه الثورة، أن يعمل على دفع حركتها بكل ماأوتي من قوة، وأن يحافظ على وجوده في ساحات إقامة العدل الإلهي بشكل أقوى مما هو عليه الآن، واعلموا يا أعزائي أنه كُلَّما كانت أهداف الثورة سامية أكثر كلما صارت التضحية في سبيلها أغلى وأكثر أهمية. . .

ولقد قامت ثورتنا في سبيل تحقيق الأهداف الإلهية، واستقرار حكومة الأنبياء العظام الذين ضحّوا في سبيلها، وسعى لها نبي الإسلام العظيم بكل ما أتاه الله من قوة حتى آخر لحظات حياته المباركة».

ومن مدى الهدف الثوري الذي تبلوره هذه النصوص تأخذ الثورة صفتها العالمية وتصبح مشروعاً يقوم على الشمولية.

منجزات الثورة:

«واليوم يتعين على شعب إيران خصوصاً والمسلمين عموماً بذل ما في الوسع لحفظ هذه الأمانة الإلهية التي أعلن رسمياً حكمها في إيران وحققت في فترة وجيزة ثماراً عظيمة وعليهم جميعاً السعي لتثبيت دعائم ديمومتها وإزالة العقبات عن طريقها والأمل أن ينتشر نورها منوراً كافة البلدان الإسلامية».

هذا النص من وصية الإمام ـ قدس الله روحه الطاهرة ـ يوقفنا على مسألة مهمة، ربما غطت عليها روتينية وصف الثورة الإسلامية في إيران، وضرورة الوقوف بوجه أعدائها بما يتطلبه من حالات تعظيم وتمجيد، هي ليست من قبيل المبالغة، إلا أنها عندما تقال على لسان دعاة الثورة قد تفهم على أنها نوع من أنواع الدفاع والبحث في إطار عملية الصراع القائمة.

المسألة هي مسألة المنجزات والثمار العظيمة التي حققتها الثورة الإسلامية في سنوات عمرها القصير، وقبل الدخول في صلب هذه المسألة، لابد من التأكيد بأن كل تجربة ثورية تفرز خطأها وحالات القصور معها، كما إنها لا يمكن أن تصل إلى أهدافها بمجرد إصدار القرارات القيادية، أو الإعلان المبدئي عن الإلتزام بقوانين الشريعة الإسلامية، فالخطأ قد يحصل، لا بل إنه يحصل قطعاً في سياق تجربة ضخمة كالتجربة الإسلامية في إيران للإطاحة بنظام بيروقراطي عمره مئات السنين، ولذا فالحديث هنا عن ثمار الثورة التي يصفها الإمام «رض» بالعظيمة، هو ليس من باب التشجيع اللامشروط أو التطبيل التقليدي الذي غالباً ما يرافق دور الإعلام بالنسبة لكثير من الأنظمة الدكتاتورية، إنما هو تجسيد للمسؤولية في قول الحقيقة، وإنعكاس لتغيرات الثورة في الشارع

الإيراني قبل الخارج، فلقد خضعت الحياة فيه لعملية تحويل كبرى في كل مرافقها الإجتماعية والإقتصادية، وخضعت لإنقلاب في نمط حركتها العامة، ودبت فيها الحركة والنشاط والإبداع والجدّية، وأعطاها تسارع الأحداث والصراع درجة عالية من درجات الوعي والتحليل لما يدور من صور مواجهة مع القوى الكبرى.

وليس هنا بالطبع مجال تعداد المنجزات والثمار التي أفرزتها حركة الثورة داخلياً، لكن على الصعيد الخارجي أو بالأحرى في إطار النظرة العامة، فإن ثمرة ثمار الثورة تتلخص بما أضفته من وضوح لبعض المفاهيم والأمور والإلتباسات التي كانت قائمة قبل الثورة، وربما إن قوة الأحداث التي تولدت بعدها، وقوة العملية الصراعية التي خاضتها غطت على هذه الثمرة الكبرى، فالثورة أثبتت إلى حد كبير بأن الكثير من القوى الوسطية بين الإسلام كفكر وبين الأفكار الوضعية الأخرى لم تكن في الواقع أقرب إلى الإسلام منها إلى هذه الأفكار بل هي أقرب إلى مدارس الغرب الفكرية منها إلى الإسلام، وهي تملك ربما مخزوناً عدائياً في داخلها باتجاهه، حتى ولو تظاهرت بخلاف ذلك، فهي ترفع شعار الإسلام بما يؤدي إلى إجهاضه وتشويهه، وبما يؤدي إلى خداع شريحة كبرى من الوسط الإسلامي الساذج الذي لا يدرك من الإسلام سوى الشكليات والعناوين.

حركة الثورة فكت هذا الإلتباس، ووضعت النقاط على الحروف وعرضت بصورة لاغبار عليها ماذا يعني الإسلام في السياسة الدولية؟ كيف يكون الموقف الإسلامي السياسي في الظروف الحاكمة؟ ماهي الموازين والأسس والأطر التي ترسم السياسة الإسلامية؟.

إذاً هي ـ أي الثورة ـ جسّدت النموذج السليم لحالة الحكم في الإسلام، وأكدت بالأرقام، أن الإسلام ليس فقط يرفض حالات التعايش والتكامل المزيف بين الإسلام وأعدائه، إنما القوى العدوة هي أيضاً ترفض ذلك التعايش بقوة وغير مستعدة لأن تقبل من الإسلام إلا ما يكون مردوده سلبياً عليه.

هنالك بالطبع من يواجه هذا الفهم بمنطق الليونة الدبلوماسية، وإذا أراد أن يظهر شيئاً أكثر من الوضوح يضيف عليه «إن الإسلام لا يريد لنا أن نكون أعداء

العالم، كل العالم». في حين إن الواقع هو أن الإسلام لا يأمرنا بعدائية الآخرين بل هو يحثنا من خلال نصوصه الفكرية والفقهية على أن نحاول إصلاح هؤلاء الأعداء.

نحاول أكثر من مرة، نحاول أن نعثر على نمط علاقة لا يكون على حساب المبادىء، ولقد إستبطنت تجربة الثورة الإسلامية في إيران هذا الجانب، فهي حتى وإن بدت في أدق مرحلة من مراحل الصراع مع أعدائها، لا تهمل جانب الحوار، بل كثيراً ما تبادر هي إليه وبالمقابل أن يحصل هذا الحوار ويستقر لفاصل زمني معين، فهذا الإستقرار كما حصل مثلاً مع فرنسا أو بريطانيا أو الغرب بصورة عامة، لا يبرر بأي شكل من الأشكال في السياسة الإسلامية أن يسكت الإسلاميون إذا ما قرر الغرب أن يبدأ تحرشاً جديداً بنا، والمصداق في هذا الإطار، هو نموذج المرتد «سلمان رشدي صاحب كتاب الآيات الشيطانية».

إن تجربة الثورة يراد لها أن تدوّن وتدرس دراسة معمقة، فثمارها كبيرة وعديدة، ولعل ثمرة الإيضاح والكشف عن واقع بعض المفاهيم العالقة أو الكشف عن حركة الإسلام الأصيلة في الحياة وفرزها عن المدارس الوسطية والتوفيقية كانت الأهم، ولكنها الأقل قسطاً أو نصيباً من المعالجة الإسلامية المسؤولة، ربما بسبب إن الإعلامي الإسلامي يكره التعاطي بمنطق إعلامي يفرز مديحاً، وهذا صحيح، فنحن لا نريد أن نكون مداحين للسلطة، لكن يجب التفريق والدقة والأمانة في إداء المسؤولية حتى ولو أفرزت مديحاً أو ثناءً.

فالثورة ترجمت أكثر الشعارات التي وضعتها إلى واقع مَكسبي أو إنجازي يعطيها مصداقية أكبر، ويؤكد صدق هذه الشعارات أولاً، وقوة نظرية المواجهة التي مثلتها ثانياً، ويقول الإمام «رض» في هذا الإطار وفي خطاب تاريخي له (كيهان العربي العدد ١٦٠٦) يقول: «نجح شعبنا بفضل اللطف الإلهي في تطبيق الشعارات التي أطلقها في أكثر المجالات، شعار إسقاط «الشاه» شهدنا عملياً تحقيقه، شعار الحرية والإستقلال، أضفنا لجماله جمالا بعملنا، شعار الموت لأميركا رأينا مصداق تحققه على أيدي فتية الملاحم الإسلامية الأبطال عبر

إقتحامهم لوكر الفساد والتجسس الأميركي، لقد عرضنا جميع شعاراتنا لمحك الإختبار العملي».

النقـــد:

«إنني أنصح ـ بتواضع وروح أخوية ـ أن لايتأثر السادة المحترمون بأمثال هذه الإشاعات وأن يسعوا إلى تقوية هذه الجمهورية من أجل رضا الله وحفظ الإسلام، وليعلموا أنه لو هزمت هذه الجمهورية الإسلامية فلن يحل محلها نظام إسلامي يرضاه بقية الله، روحي فداه، ولا نظام مطيع لأمركم أيها السادة، بل يصل للحكم نظام يرضاه أحد قطبي القوة ليبعث اليأس في قلوب محرومي العالم الذين تطلعوا للإسلام والحكم الإسلامي وعقدوا عليه الآمال، ويعزل الإسلام إلى الأبد، وتندمون على أعمالكم يوم يقضى الأمر ولا ينفع الندم.

وإذا كنتم تتوقعون أن تتغير الأمور جميعاً في ليلة وضحاها إلى ما يطابق الإسلام وأحكام الله تعالى فهذا خطأ ولم تقع معجزة كهذه على مدى التاريخ الإنساني ولن تقع ولا تتوهموا أن تقع معجزة عند ظهور مصلح العالم ويتحقق إصلاح العالم في يوم واحد بل يطرد الظلم ويقمعون بالجهاد والتضحية».

هذا النص من الوصية المباركة للإمام ـ قدس الله نفسه الزكية ـ والذي يخاطب فيه فئة من الفئات التي تتخذ مواقف سلبية نهائية بسبب بعض الأخطاء في مفردات الحياة اليومية سواء كانت السياسية أو القانونية أو الإجتماعية، يوقفنا على حقيقة في غاية الأهمية حول ماهية النظام الإسلامي القائم في إيران على ضوء ملفات التاريخ ـ تاريخ الأنظمة التي كانت قائمة ـ وصور الحاضر ونماذجه الفعلية على الساحة العالمية، فواقع الحال وليس من قبيل المبالغة القول، إنه نادرا ما حصلت واقعة في التاريخ مماثلة لواقعة الثورة الإسلامية منذ صدر الإسلام وحتى هذا العصر، ولا أقيم نظام يمثل إرادة الثورة ومادتها البشرية كالنظام الإسلامي الذي قاده الإمام «رض» وتلاميذه البررة، والمراقب الواقعي والمحلل المنصف يكاد يقطع بأن الثورة كواقعة بنظامها الإسلامي الذي أقامته كانت سابقة في هذا التاريخ الإنساني. والمراقب الحيادي بإمكانه أن يقرأ بيسر

كل خصوصيات هذه السابقة وبإمكانه أن يرسم الشكل الإجمالي لها على كل الأصعدة وفي كل المستويات. المراقب الذي لا يتحايل على ضميره، ولا يخون وجدانه، ويرفض إغراء المال وهوى النفس، ويتحرر من العقد، ويسمو بدراسته وتقييمه إلى هدف تدوين الحقائق بشرف، هذا المراقب لابد أن يقطع بأن الثورة الإسلامية في إيران كانت نموذجاً ذا سبق في الإستقلالية في إتخاذ قراراتها السياسية وغير السياسية المصيرية. وهذا لا يعني بالطبع أنه لم تكن هنالك أخطاء نابعة من تلازم التحول الثوري وما يفرضه من مشاكل وعقبات ومن قلة الخبرة والكادر المتخصص، ومن الإستغلال الخاطىء للحرية، لا سيما من قبل المنافقين والمندسين، إذ يستحيل على أية ثورة في العالم أن تقضي بين عشية وضحاها على فساد إداري ونظام بيروقراطي عمره عشرات السنين، ويستحيل عليها أن تُطّهر مرافق البلاد من العناصر المنحرفة في مراحل التحول الثوري، وبالتالي فإن دارسي الثورات يدركون ما تحتاجه هذه الثورات من زمن لكي تؤسس نظاماً فارغاً من مخلفات الماضي، وقائماً على واقع جديد منسجم مع مبادىء الثورة.

كانت هنالك أخطاء على صعيد بعض المفردات الحياتية، وموضوعية الإمام ـ قدس الله نفسه الزكية ـ لم تصادر ضرورة التوقف عليها في وصيته المباركة، إلا أنه هل من الإنصاف أن تصبح هذه الأخطاء أرضية إنطلاق في بناء رؤية البعض واتخاذ الموقف السلبي إزاء البلد إلى حد محاربته؟ ثم إذا ما قورنت هذه الأخطاء مع أخطاء الأنظمة الأخرى التي لم تفرض عليها حرب الثمان سنوات الضارية ولا الحصار الإقتصادي ولا الحرب النفسية ولا حرب البترول ولا مؤامرات الداخل، ولا الوفاق الدولي ضد الثورة، ولا عشرات المشاكل التي ترافق حصول الثورات في العالم، إذا ما قورنت هذه الأخطاء بأخطاء هذه الأنظمة، فماذا بإمكان المرء أن يقول، إذا كان حراً غير مقيد بأغلال الدولار أو أغلال الإرهاب أو أشكال التحايل والتلاعب؟.

لاشك أن المقايسة هنا لاتحتاج إلى إجابة، وهي واضحة في كل أبعادها، هذا بالإضافة إلى أن الوصول إلى حالة الكمال في تطبيق أي نظام

اجتماعي ـ سياسي لايحصل بضغطة زر ولا بمجرد إصدار الأوامر أو إرساء أسس المؤسسات التشريعية والتنفيذية والقضائية، إن الوصول إلى حالة الكمال هو عملية تدريجية شاقة، وعملية تخضع إلى مبدأ المراحل، كأي عملية دعوة أو بناء أخرى.

إن الوصول إلى الكمال يخضع إلى نظام حياتي ثابت وسنّة إلهية، وعليه فإن هذه الفئة المعادية للثورة التي تنطلق في عدائها من رصد بعض الأخطاء الميدانية والحياتية إنما تحاول نقض هذا النظام ومخالفة هذه السنّة.

لماذا تقام رؤية هؤلاء على الأخطاء ـ لو كانوا سليمي النوايا ـ ولا تقام على الركام الإيجابي لسياسات الدولة ومواقفها المبدئيّة؟.

لماذا لا تقام هذه الرؤية على ما بذلته الثورة من جهود جبارة لتطهير البلاد من الفساد الأخلاقي وحانات القمار ومظاهر الميوعة والتحلل؟.

ولماذا لا تقام على ما أبدته الثورة من مقاومة هائلة لمؤامرات العالم ومشاريعه المضادة للإسلام؟.

لماذا لا تقام على ما أنجزته الثورة من خدمات للطبقات المحرومة في المجتمع وعلى ما أرسته من أسس لمؤسسات حاذقة لحفظ الإسلام وتحويله إلى حركة متواصلة في المجتمع؟.

فالإنخراط في خندق مواجهة هذه الثورة ولكن بعنوان إسلامي يحتاج إلى «ذرائع» محاكة حياكة جيدة.

ولقد بقيت هذه «الذرائع» موزعة على ثلاثة محاور إنتقادية للدولة، محور إنتقادي لأوضاع البلاد الإقتصادية في ظل سياسة الثورة الصدامية مع «العالم»، ومحور إنتقادي لبعض الظواهر والتصرفات الشاذة لدى الكادر الوظيفي للبلاد، ومحور إنتقادي لما يسمى برفض القيادة للآراء «الفقهية» المعارضة.

لقد بقي ـ هؤلاء السادة ـ يرددون ذرائعهم تلك بطريقة لا تسمح إلا بقراءة مجالات تلك الذرائع قراءة جامدة ترفض التحليل والإنطلاق نحو رسم الصورة

الكلية للأطر التي تقع مفردات «الأزمة» أو الإنتقاد في داخلها.

فطموح بحجم طموح الثورة الإسلامية في إيران التغييري وما يفرضه من صور صدامية مع النظام السياسي الدولي القائم على الظلم والإضطهاد للشعوب، إن طموحاً كهذا لابد أن يفرز مجموعة من المتاعب والمصاعب الإقتصادية التي لا يمكن امتصاصها بالمجموع حتى لو كان احتياط البلاد الإقتصادي ضعف ما كان عليه.

كما أن ثورة قامت على أنقاض نظام إداري فاسد، وتحتاج إلى إجراءات تطهيرية ضخمة لهذا الجهاز، لا بد أن تعاني من بعض مظاهر التصرف الشاذ لبعض أشكال الكادر الوظيفي الجاهل الذي لا يسمح له وعيه العام في الإرتقاء إلى الممارسة الوظيفية بكامل أخلاقها الثورية، أو الكادر المنحرف الذي يسعى إلى الإساءة إلى وجه الثورة وإعطاء «الذرائع» المطلوبة لمن يبحثون عنها لكي يوجهوا ألسنتهم وحرابهم إلى جسد الثورة ولكي تتوحد هذه الألسن والحراب مع ألسن وحراب الأعداء الدوليين والإقليميين لها.

أما على الصعيد القيادي فإن الثورة الإسلامية في إيران على الرغم مما سجلته من سبق في تزاوج الآراء القيادية في دائرة الخطوط المبدئية الواضحة على ضوء مصادرها القرآنية والحديثية، فإنها رفضت أن تتحول بتجربة الحرية وتعددية الآراء هذه إلى شكل من أشكال الفوضى العاجزة عن ضبط أوضاع البلاد، بكل تحدياتها المصيرية المفروضة، فهنالك حد أدنى مطلوب من صيانة حرمة قرار البلاد السياسي والأمني، وهنالك ضوابط ـ يجب أن تسير على ضوئها عملية حكم الدولة في فترة من أكثر فتراتها حساسية وتعرضاً للمؤامرات الخارجية، وهنالك دواعٍ وأسباب لرؤية الأمور رؤية «واقعية» بعيدة عن الغرور والأنانية والضيق والحسد.

هنالك ما يكفي من الأسباب الخارجية والداخلية لإيقاف هذا اللسان الإنتقادي عند الحدود التي يتحول في دائرتها الإنتقاد إلى نوع من أنواع النقد البناء الساعي إلى تلافي الأخطاء ودفع مسيرة الثورة بإتجاه الإنتصار على هذه الأخطاء.

إن الإمام ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ كان يطمح لأن يرى الساحة القيادية الإسلامية وقد إرتفعت بوعيها القيادي إلى استيعاب التحديات الكبرى وإلى رؤية الهدف الأبعد وإلى تشخيص المشكلة «الطبيعية» المتأصلة في طبيعة أي عمل تحولي، أو أي حركة «إنقلابية» على الواقع الفاسد الناجم عن تلك (المشكلة) التي تشكل إنحرافاً جديداً ويشكل هذا الإنحراف بدوره مخاطر محتملة سريعة على البلاد.

فأي ثورة لا يمكن أن تولد اليوم بلا مشاكل، وأي ثورة لا تستطيع أن تنتصر على كل مشاكلها في لحظات الإنتصار الأولى، وأي ثورة تحتاج إلى زمن تغييري كبير لبناء مؤسساتها وتأسيس قواعد نظامها الجديد، ووفق هذا الفهم تتحول «الذرائع» تلك إلى مدخل من المداخل لتهديم الثورة، ربما بلا رؤية أولية وواقعية بما ستؤول إليه الأمور بعد ذلك.

فما هو البديل الإسلامي القادر على إعطاء الإسلام معناه الجهادي والثوري والتدعيمي لكل مستضعفي الأرض؟ أو ليس البديل هو إعادة البلاد إلى أحضان التبعية إلى الغرب والقضاء نهائياً على كل وجود إسلامي بما يقتل الأمل لدى كل الأحرار بإمكانية التصدي للتسلط الغربي على العالم؟ أليس البديل سيكون مفصلاً على مذاق الغرب والدول الكبرى وخاضعاً بما يمكن أن يتحول إلى رقم من الأرقام الإقليمية؟.

إن هذا البديل سيحول ـ هؤلاء السادة ـ في أحسن الحالات إلى أدوات خادمة للنظام الغربي، لا تملك جرأة الكلام ولا الإنتقاد ولا العمل المعارض لهذا النظام، كما لاتملك حرية الحركة وفق ما تطمح، وبالتالي فإن النتيجة لا تكون أكثر من الندم في الوقت الذي يكون فيه هذا الندم غير مجدٍ، وفي الوقت الذي ينطفىء فيه شعاع الأمل الذي أنار نفوس وقلوب ملايين البشر الذين يتطلعون إلى الخروج من عالم الظلمات والكبت والأنانية إلى عالم التوحيد والعدالة والإنسانية.

إن الإسلام لا يعادي النقد الإيجابي البنّاء بل إنه يرفض الإنتقامية كأساس

يقوم عليه الإنتقاد، وفي هذا الإطار يقول الإمام بمناسبة الذكرى الثانية لإنتصار الثورة الإسلامية بتاريخ ٥٩/١١/٢٢ هـ. ش، يقول: «وإن على الكتّاب أن يساعدوا على إنهاء هذه الحالة عن طريق الإنتقادات الأخوية البنّاءة وليس بصورة إنتقامية نابعة من العُقد النفسية لتشويه الجمهورية الإسلامية، إذ أن ذلك يعتبر من الذنوب الكبيرة... حيث إن مثل هذه الأعمال ستكون لها ردود فعل مماثلة ومع الأسف الشديد، فإن بعض الكتّاب يحاولون عن طريق الإنتقادات، إيجاد اليأس في قلوب أفراد المجتمع بدلاً من الإنتقاد البنّاء والتوجية الإيجابي.. إن هؤلاء يقومون بإرتكاب المنكر بدلاً من النهي عنه أسأل الله أن يهديهم..».

ويقول الإمام «رض» في وصيته في هذا الإطار:

«وأما بالنسبة لتلك الفئة التي تخالف بشدة الجمهورية الإسلامية وحكمها أساساً وتعمل لإسقاطها من أجل الله!! وبحسب أوهامها، فهذه الجمهورية أسوأ من الحكم الملكي أو مثله، وكل ذلك بسبب بعض الأخطاء وبعض الإنحرافات المخالفة لأحكام الإسلام والصادرة عمداً أو سهواً من أشخاص متخلفين أو عن الفئات المناهضة وصيتي لهؤلاء هي أن يتفكروا بنية مخلصة في الخلوات، وليقارنوا الحال ـ بإنصاف ـ بحكم النظام السابق، ولينتبهوا أيضاً إلى حقيقة أن الثورات العالمية يلازمها عادة وقوع إضطرابات وإنحرافات وحالات من الإنتهازية».

ومرةً أخرى نسأل أي منطق هذا الذي يتحدث به الإمام الخميني ـ رضوان الله عليه ـ في وصيته المباركة؟ وأي حاكم في الأرض وفي عالم اليوم تحدث أو يتحدث وفق هذا المنطق القائم على الرحمة والموضوعية والإنصاف والتحري والوضوح والمباشرة في لغة التنادي والتخاطب.. إنه منطق الرحمة لأنه لا يهمل أو يتجاهل الآخرين ـ حتى لو كانوا بمستوى من يفكر بإسقاط الجمهورية الإسلامية ـ وقد يقول قائل، إن ذلك لا يعبر عن الرحمة إنما هو أمر طبيعي في وتيرة التعاطي بين «القادة» و «المعارضة» في الدول القريبة والبعيدة.. وليس الأمر كذلك في كل تجارب التخاطب والتنادي والحوار تلك، إذ إنها شكل من الأشكال التي تخبىء وراءها خلفية كبيرة من حالات الإرهاب والقوة، وأخيراً

يصل الحال إلى نوع من «التصالح» أو الحوار. . إن الأمر يختلف عما هو عليه في كلام الإمام «رض» المذكور. . يختلف لأن «المعارضة» التي تقف بوجه الجمهورية الإسلامية لا تؤمن بالحوار ولا تريده، وهي تسعى كما أظهرت كل التجارب إلى أحد أمرين، أما أن يتراجع رأي وقرار البلاد إلى ما يرضيها ويعبّر عنها، وأما أن تخاطب هذهِ البلاد بلسان الإرهاب والإغتيال الذي أخذ مأخذه من مسؤولي الدولة الإسلامية وأوقع فيهم خسائر جسيمة ما كان أحد يحسب أن بلدا سيبقى صامداً يقاوم الريح الصفراء العاتية بعدها.

إن هذه «المعارضة» ومع أنها لا تؤمن بالحوار ولا تتحدث إلا لغة واحدة هي لغة القوة والفرض، فإنها ما كانت تشكل وزناً يذكر في المجال التمثيلي لإرادة الأمة، هذا إذا كان لها من وزن، وكل «الهالة» التي أحيطت بها إنما كانت صناعة من صناعات الدول الكبرى والقوى الإقليمية العدوة للدولة، ولكن مع ذلك قد يكون هذا «التيار» المعارض قد جرف بعض السذّج أو قليلي الوعي أو قصيري النظر، ولا يصح وليس من المصلحة الإسلامية أن تصادر القيادة الإسلامية ضرورة دعوة هؤلاء إلى الرؤية الموضوعية للأمور. . . وهذا ما أراد الإمام «رض» أن يؤكده من خلال النص المذكور، فالإسلام دين الرحمة والأخلاق والحوار والمبادرة السلمية. إنّه الدين الذي يحتفظ دائماً بـ «هامش» إحتمال أن يصحو الإنسان إلى واقعه إذا ما دُعي إلى التفكير والمقارنة والتساؤول بصورة منطقية. . إن الإمام «رض» يحاول أن يؤدي واجبه الديني من خلال هذه الدعوة إلى التفكير الهادىء. . . التفكير بشروطه اللامتأثرة بالإنفعال، أو التأثر أو الحكم من خلال واقعة حياتية ساذجة، أو تصرف خاطىء من أحد أفراد الجهاز الوظيفي أو الحكومي الحاكم. . . التفكير المنصف، فالوقائع الصغيرة الساذجة والتصرفات الخاطئة هي سنّة من سنن الحياة وإفراز طبيعي لأية حياة إجتماعية، وهذا لا يعني بالطبع تجاهلها وعدم السعي إلى تصحيحها. . لكن ليس من المعقول أن تتحول إلى مقياس تقام عليه المواقف حيال الدولة كما ليس من المعقول أن يتجاهل أحد المتاعب والمصاعب الحياتية والإجتماعية التي ترافق الثورات، إذ لعل الثورة الإسلامية في إيران أقل الثورات إفرازاً لمثل هذه

المتاعب والمصاعب، وليس ذلك من قبيل الثناء التقليدي الذي أعتدنا أن نظهره أثناء الحديث عن الثورة الإسلامية في إيران، فالإمام «رض» لا يجافي الواقع والحقيقة عندما يقول بأن أولئك المعارضين أو الناقدين بلا شروط لم يفهموا بعد منطق الثورات وأثمانها وما تؤدي إليه وما يجب أن يفرضه الواقع التحولي لها في كل مجالات الحياة من مشاكل وعقبات، فالثورة هي إنقلاب على نظام سياسي إقتصادي فاسد، وإنقلاب على طبقة مصاصة للدماء كانت القائدة لهذا النظام، وإنقلاب على طبقة أو شريحة مرتزقة، إنتهازية كانت لا تعرف سوى المنطق النفعي، تلجأ إليه لكي تعيش، ولا فرق لديها إذا كانت الحياة بكرامة أو بدون كرامة. . الثورة إنقلاب على أثار هذا النظام وما أوجده من إنحرافات أخلاقية وإجتماعية ومراكز ترويج للمفاهيم الشاذة، والثورة ليست تهديماً وانقلاباً على التركات السيئة والرديئة فقط، إنما هي بناء أيضاً. . . بناء بديل للحياة بكل ما تحتاج إليه من ضمانات مؤسساتية وتنظيرية وبكل ما تحتاج إليه من زمن كفيل ببلورة الرؤية النهائية لهذه الضمانة المؤسساتية والتنظيرية. وهل يحصل كل ذلك بلا ثمن ولا متاعب وبلا عقبات ولا أخطاء؟.

وهل نفترض إن التجربة الجديدة يجب أن لا تخطىء ويجب أن تمد مرافق الحياة برصيد لا ينضب من الكادر البشري ـ الوظيفي الأمين لكي تتحرك الحياة بضغطة واحدة؟. وهل هذا الإفتراض عقلاني ومنصف وحيادي؟ وهل إننا يجب أن ننظر إلى حركة الجهاز الحكومي ـ جهاز الثورة ـ على إنه جهاز «معصوم» لا يصطدم ولا يخطأ ولا يدخله الباطل من أية ناحية؟.

وأخيراً هل يجوز لنا أن نقيّم بعيداً عن التحديات الخارجية التي فرضت ضد الثورة؟.

الإمام «رض» يقول إن المسألة هي بحاجة إلى وقفة تفكير وجدانية شريفة وليست متحاملة.

الحرب هبة إلهية

«لقد شاهدتم عياناً، خلال هذه الفترة القصيرة التي تلت المقاطعة الإقتصادية كيف إن نفس اولئك الذين كانوا يرون أنفسهم عاجزين عن صنع أي شيء وكانوا يائسين من تشغيل المصانع، كيف إستخدموا عقولهم وهيأوا الكثير من احتياجات الجيش والمصانع فكانت هذه الحرب والمقاطعة الإقتصادية وطرد الخبراء الأجانب هبة إلهية كنا غافلين عنها».

نقف من خلال النص المذكور من وصية الإمام ـ قدس الله سره ـ على فهمه لموضوع الحرب وأبعاده، فالحرب في الوصية المباركة وصفها الإمام «رض» على إنها هبة كنا غافلين عنها، ولم يكن هذا الوصف عبارة عن قراءة واضحة متأخرة لما أدت إليه سنوات، الحرب من نتائج كانت توضح بسهولة هذا الوصف وتؤدي إليه، فالوصية وحسب تاريخ كتابتها، عمرها أكثر من ست سنوات وعليه فإن الوصف المذكور كان للحرب وهي في سنواتها الأولى، حيث كان الموقف لازال يحمل بصمات التعقيد، وحيث كانت القوات الغازية لازالت تستقر في أكثر من نقطة حدودية حساسة في الأراضي الإيرانية، ولكن مع كل تعقيدات الموقف كان الإمام «رض» يصف هذه الحرب على أنها «هبة كنا غافلين عنها».

والهبة هي العطاء الذي لا يمكن لقائد أن يحسب بعقلية إن الله سبحانه وتعالى، يجعل مؤامرة عدوة كمؤامرة الحرب طريقاً ومعبراً له، إلا إن عقلية الإمام كانت من نمط آخر في فهمها للأحداث، كانت تقرأ مالا يقرأه الآخرون، وتستنتج مالا يستنتجون ولعل كلمته الشهيرة في لحظة وقوع الحرب تظهر من جوانب البراعة فيها. مالم يذكر لنا التاريخ الإنساني مثيلاً لها، فهو قد واجه

الموقف آنذاك بعبارته «الخير فيما وقع» وهذه العبارة المتفائلة بالخير ما كانت تختلف في معانيها العامة عن وصفه الذي جاء في الوصية المباركة لهذه الحرب. إن لم تكن أكثر دلالة.

والآن لماذا هذه الحرب خير وعطاء؟ على رغم مآسيها والآمها وشهدائها ومعوقيها، ومصاعبها الإقتصادية والسياسة، وويلاتها ودمارها، وعلى رغم إن الأساس في النظرة الإسلامية للحرب والقتال على أنها أمور سلبية من حيث الرغبة في اللجوء إليها، لكن عندما يلجأ إليها الإسلاميون، يلجأون إليها مكرهين، وعندما تصبح هذه السلبية هي الطريق الأوحد لرسالة الإصلاح والأمن. ولفلسفة الخير والإيجابية.

ولا يختلف الأمر في ذلك كثيراً عندما «تلجأ» الحرب إلى المسلمين بقرار خارجي وإرادة خارجية. ولقد كانت الحرب العراقية ـ الإيرانية من النمط الثاني، أي من نمط الحروب المفروضة التي قد تتدخل فيها إرادة الله جل وعلا، لتحولها إلى عطاء في كل مجالات حياة المسلمين، وتصبح تجسيداً ومصداقاً لفهم الإمام الراحل للحرب المفروضة.

إن الحرب التي شنها النظام الحاكم في العراق على الدولة الإسلامية، أول ما أعطت للمسلمين أعطتهم فرص الإعتماد على الذات وعلى الله، وأعطتهم بالإضافة إلى ذلك الثقة بأنفسهم وبقدراتهم وطاقاتهم الذاتية، فهذه المسألة هي في غاية الأهمية... إنها تأتي في مقدمة عطاءآت الحرب المفروضة، ولكونها ترتبط بمفاهيم معقدة في الحرب النفسية والدعائية التي خضع لها العالم الإسلامي منذ غياب دولته المركزية وحتى ما قبل قيام الثورة الإسلامية في إيران، فلقد ركز الغرب في داخل النفسية الإسلامية مفاهيم الإحساس بالإنهزامية و «الدونية»، ولقد عزز هذا التركيز بمصاديق حية على أرض الواقع سواء ما يتعلق منها بنهضته الصناعية والعلمية أو بواقع الأمة الإسلامية الممزقة جغرافياً وسياسياً، وفي ظل هذا الإحساس الذي هيمن على المسلمين، تحول الإستقلال إلى حلم وأصبحت مواجهة النفوذ الغربي ونفوذ الدول الكبرى بصورة عامة من المستحيلات.

وعندما قامت الثورة الإسلامية في إيران، وتكللت بالنجاح ما كان هذا النجاح كافياً للإحاطة بركام العُقد السلبية التي أوجدتها الحرب الدعائية ضد الإسلام والمسلمين، فالنجاح كان بداية، وكان مفروضاً على الثورة الإسلامية في إيران أن تثبت قدرة على مواجهة تحديات الغرب لها، فكانت الحرب هي المحور الذي تحركت عليه كل تحديات الأعداء، و حشدت فيه كل الأدوات، وجندت في داخله كل الإمكانات العدوة.

لقد اجتمع في الحرب ضد إيران الحقد الصليبي وآلته العسكرية المتطورة إلى جانب المكر اليهودي ورموز الغرب التابعة من قادة المنطقة إلى جانب الحروب الإقتصادية والدعائية والنفسية، وكان أداة هذا التحالف المباشرة ابن من أبناء الصليبية «البررة» هو «صدام حسين». وهل بعد هذا التحدي من تحدٍ؟ إنه إذاً الاختيار الذي لا إختيار بعده لإسلام ناهض جديد، لم يهدأ بعد، ولم يستقر على شكل الترجمة العملية للأنظمة الإقتصادية والإجتماعية، ولم يُعط فرصة التخطيط والتفكير، ولم يسمح له باستثمار كفاءاته القيادية حيث الإغتيالات في سنوات الثورة الأولى أخذت مأخذها من زعماء الثورة، وحيث الثورة بفاصلها الإنتقالي بحد ذاته، تحتاج إلى جهد استثنائي لمعالجة الفوضى والوصولية ومحاولات التلاعب والإندساس.

مع كل هذه الصعوبات والتحديات، استطاعت الثورة أن تؤكد من خلال الفعل الدؤوب قدرة في صد العدوان وأن تستنفر كل قدراتها الإقتصادية والإبداعية، وتقاوم المشاريع العدوة مقاومة ضارية، وتحول الحلم إلى حقيقة، فليست عقول المسلمين قاصرة أو جامدة، إنها قادرة على الإبداع والتفكير والإكتشاف والإبتكار وبالتالي تلبية حاجات البلد أو جزء منها كالصناعية والحربية.

إن فلسفة التسديد الآلهي تحولت في واقع الثورة إلى واقع ملموس في أكثر من جانب، وفلسفة العطاء الآلهي من خلال مؤامرات الأعداء تجلت بصورة واضحة، وأصبحت الأمة الإسلامية في ظل ذلك أكثر ثقة في نفسها، إن الحرب أزاحت ركام التأثير السلبي للحرب الدعائية الطويلة ضد العالم الإسلامي، وبات

بإمكان أي قائد أو مفكر إسلامي أن يدعي الآن بأن الإسلام ليس نظريات مثالية، إنما هو أقوى من أي مدرسة فكرية أخرى في تلبية حاجات المواجهة وعناصر الصراع.

الأقليات الدينية

«وأوصي أبناء الأقليات الدينية المعترف بها رسمياً أن يعتبروا من دورات مجالس الشورى في عهد النظام البهلوي وأن ينتخبوا ممثليهم من الأشخاص المؤمنين بأديانهم وبالجمهورية الإسلامية وغير المرتبطين بالقوى الناهبة للعالم، ولا ميالين للتيارات الإلحادية والمزيفة والتلفيقية».

هذا النص من الوصية المباركة للإمام الخميني ـ قدس الله نفسه الزكية ـ قائم على أسلوب مازج بين التذكير والتحذير وجاعل الإيمان مزدوج المحور، أي بمحور الجمهورية الإسلامية ومحور الديانات الخاصة للأقليات.

... التذكير فيه هو بالماضي البرلماني الكيفي... ماضي الشاه القائم على الشورى الشكلية... الشورى كعنوان يستر مفاهيم الفردية والسلطوية والدكتاتورية، وبالتالي فهو حتى وإن أدى إلى مكاسب شخصية إلى بعض رموز الأقليات بصورة عامة، فهو يحرص على بناء علاقات متكافئة معهم، ولا يسعى إلى إبراز مظاهر الإطاحة بالخلافات المفتعلة بين هذه الأقليات وأنظمة الدول التي تعيش فيها.

فأي مجلس شورى فارغ من المحتوى، ولا يقوم على الرأي الحر والنقاش والتخاطب والتحادث بحرية ودون تدخل من أحد. أي مجلس بهذا الشكل لا يمكن أن يصوغ قوانين لها قيمة واقعية تنعكس على حياة الأقليات، فالقانون في هذه الحالة حكر على النظام السلطوي، والمجلس ليس أكثر من ممرر لهذا القانون، لا يحق له التلاعب فيه أو تغييره.

لقد أراد الإمام «رض» أن ينقل عقلية هذه الأقليات إلى الماضي. فمثل هذه النقلة إذا ما كانت بدافع التقييم المجرد، والتقييم الذي يتم على أساسه بناء الموقف الجديد، فستكون بلا شك ذات أثر كبير في إيضاح الصورة... صورة

العلاقة التاريخية بين الأقليات والأنظمة على طول العقود الماضية، حيث لم تنتهي هذه العلاقة إلى شكل «ثقوي» لائق. . . بل هي إنتهت إلى حالة من حالات الشك والحذر، لذا استحق التذكير بنبذ هذا الشكل ومن ثم التحذير من الخروج من دائرة الوطن الإسلامي في الولاء والإنتماء، فالتجربة التاريخية أثبتت أيضاً بأن الدول الكبرى الناهبة لثروات الدول الفقيرة، كانت قادرة على تجنيد بعض رموز الأقليات الدينية كأرقام محلية في مشاريعها السياسية والتآمرية على أوطانهم. . ولعل دور المارونية السياسية في لبنان التاريخي والحالي، ودور الكثير من الأقليات اليهودية قبل قيام «اسرائيل» في بلدان العالم العربي والإسلامي عكس أثاراً سيئة على سمعة الأقليات، وأوجد نوعاً من الحذر في التعامل معها، وأدى إلى الشك في ولائها، ولا يعني هذا بالطبع إن كل أبناء الأقليات متهمون، إلا أنه يعني إن على هؤلاء الأبناء أن يسعوا جادين في التعبير عن ولائهم لبلدهم عبر نبذ القيادات العميلة أو المشبوهة والمنحرفة أو تلك التي لها ماضٍ سيء، ويجب أن يكون لسانهم وصوتهم القيادي نظيفاً في مجلس الشورى الإسلامي لكي يساهموا في بناء العلاقة المطلوبة التي تعكس روح الحضارة، وتعطي الشكل الإتحادي لمعاني الحق ورسالاته وأديانه المختلفة، فكل الأديان السماوية تدعو إلى هذا الحق، وتسعى إلى تجسيد العدل وتتمحور حول فلسفة الأخلاق التي تعطي الإنسان إنسانيته، وتميزه عن باقي المخلوقات. . . وهنا يكمن السر في دعوة الإمام «رض» لأبناء الأقليات في أن ينتخبوا المؤمنين بدياناتهم، أي أن ينتخبوا المسيحي المتدين، واليهودي المتدين حقاً لا شكلاً.

فالمتدين الصحيح الحق، لا بد أن يكون مخلصاً لحالة الحق والنظام القانوني والأخلاقي عندما يجسدها الإسلام الحاكم في إيران. . . وعشاق العدل يهوداً كانوا أم مسيحيين ليسوا أصحاب عناوين أو أسماء، كأن يدعموا كل ما هو مسيحي ويهودي حتى ولو كان على باطل، وبعيداً عن منطق العدالة الإجتماعية، وإن يحاربوا كل ما هو إسلامي حتى وإن كان مجسداً لفلسفة العدالة الإجتماعية.

فالإمام «رض» يقول في هذا الإطار في كلمة له رداً على رسالة البابا التي

حملها إليه الأسقف كابوجي حول مدرسة النصارى في طهران بتاريخ ٢٢ بهمن/ شهر رمضان المبارك/ لسنة ١٤٠٠هـ/ ١٥أغسطس/ ١٩٨٠م.

يقول: «أنا أعلم إن الدين المسيحي وكل من يتبع المسيح عليه أن يدافع عن المظلومين ويجابه الدولِ الكبرى، كما إن الذي يتبع دين الإسلام عليه أن يخالف الدول الكبرى، وأن يخلّص المظلومين من هؤلاء».

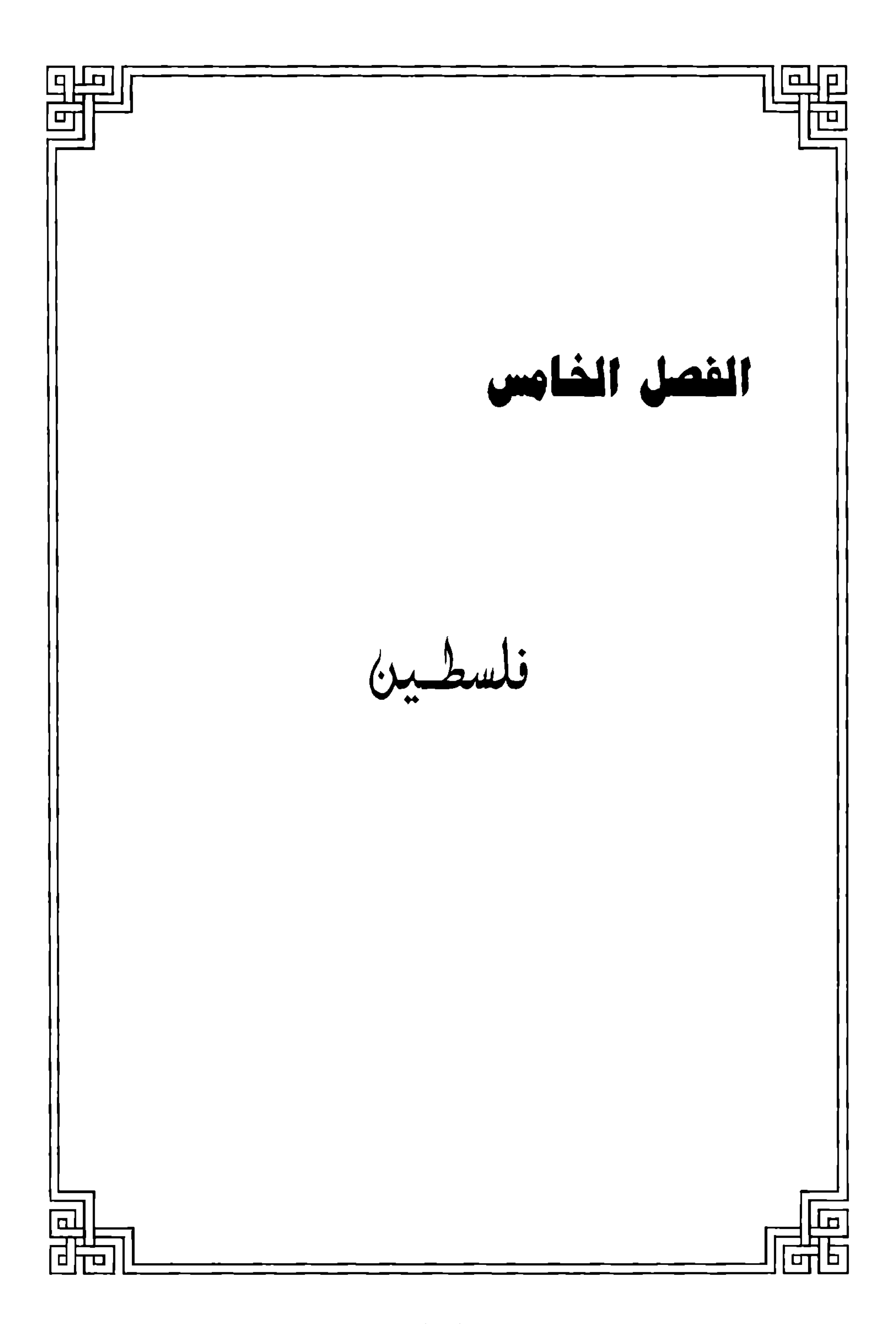
وفي مكان آخر من هذا الرد يقول الإمام «رض» «احملوا سلامي إليه وقولوا له لا تترك هذهِ المعنوية، كن بجانب المظلومين، كن بجانب المنهوبين المظلومين».

وفي نداءٍ له بمناسبة مولد السيد المسيح عليه السلام بتاريخ ١٩٧٩/١٢/٢٣. المصادف ٣/صفر/١٤٠٠ هـ يقول الإمام «رض»: «أيها الأساقفة والروحانيون من أتباع السيد المسيح، قوموا وانصروا مظلومي العالم والمستضعفين الرازحين تحت مخالب المستكبرين واقرعوا النواقيس في معابدكم هذهِ المرة من أجل رضى الله ومن أجل مظلومي إيران ولإدانة الظالمين» ويواصل الإمام «رض» كلامه قائلاً: «ومن الأفضل أن تقرع النواقيس بأمر رب الكون وتعاليم عيسى المسيح لمصلحة الشعوب المستضعفة التي تئنّ تحت وطأة الطغاة من أمثال كارتر... هنيئاً لجياع وعطشى العدالة، والذين يكدحون من أجل العدل، والويل للذين يكدحون ـ خلافاً لتعاليم المسيح وتعاليم كل الأنبياء، لمصلحة الظالمين والجواسيس الذين يسحقون الشعوب».

من خلال هذهِ النصوص يتضح الفارق في الرؤيا لدى الإمام «رض» إلى الديانة المسيحية من جهة وإلى اولئك الذين يستغلونها من قوى سلطوية من جهة أخرى.

إن عشاق العدل هم اولئك الذين يدعمون حالات العدالة الإجتماعية التي تمثل محور فلسفة الأديان إينما تجسدت، وتتضاعف أسباب هذا الدعم في حال الأقليات عندما يدخل عنصر الوطن في المعادلة، فالوطن له حقوقه على رعاياه سواء كانوا يهوداً أو مسيحيين، له حقوقه في أن لا يخان، وأن لا يعرض إلى

عمليات الغزو والنهب الإستعماري وأن لا يكون عرضة للغدر، وكل هذه الحقوق إنما تجتمع في حلقة واحدة أو أمر واحد، وهو الأمر المرتبط بإعطاء الصوت الإنتخابي لمرشحي الأقليات، فالفائز من هؤلاء المرشحين هو الذي سيعكس موقف الأقلية بصورة عامة ويساهم في بناء علاقتها مع وسطها الإجتماعي الكبير، وهو الذي سيحدد مستقبل هذه العلاقة، ومن هنا جاءت وصية الإمام خاصة بهذا الجانب بالنسبة للأقليات، خاصة بحثهم على انتخاب العناصر المؤمنة بأديانهم واجتناب أولئك الذين وقعوا ضحية الإنحراف الفكري والإلحاد، والعمالة للأجانب. . . إنه الجانب الأكثر أهمية في هذا الإطار، والجانب المسؤول كما قلنا عن مستقبل علاقة الأقلية بوسطها الإجتماعي، فمادة الأقليات البشرية في إيران عادة، ما كانت بأغلبيتها موالية للوطن لكن الرؤوس القيادية أو بعضها غالباً ما كانت تلعب الدور الأخطر ليس في إيران فحسب، بل في كل العالم الإسلامي، فجاءت كلمات الإمام ـ رضوان الله عليه ـ تلامس هذا الخطر، وتحذر أبناء الأقليات منه، وتوصيهم بإحترام عقائدهم وأديانهم الحقة، فإن ذلك احترام أيضاً للإسلام ووفاء له، كما أنها جاءت تعبيراً عن اهتمام القيادة الإسلامية بمسألة الأقليات كمسألة متداخلة مع ضرورات الحفاظ على دولة الإسلام، ومع الوجه الحضاري والجمالي للرسالة الإسلامية التي ترعى الأقليات وتعطيهم حقوقهم الحياتية، وتضمن لهم الكرامة، في نفس الوقت الذي تطالبهم فيه بالوفاء لتعهداتهم ومسؤولياتهم حيال الدولة الإسلامية، وبالعمل على إزاحة القوى القيادية والملحدة التي شوهت سمعة الأقليات وأساءت إليها.



الفصل الخامس

فلسطين

علاقة الثورة بالقضية الفلسطينية

إذا أردنا أن نبحث ونجرد في محتوى وعناونين العلاقة بين الثورة الإيرانية في إيران والقضية الفلسطينية بشكل طبيعي يعطي هذهِ العلاقة حقها في دائرة صراع الأمة الإسلامية مع أعدائها الدوليين. . ويحدد دورها الدقيق ويرسم معالم هذا الدور وما شكله من نقاط ضوء في مسيرة المواجهة. . فذلك مما يحتاج إلى جهود تأليفية موسوعية ضخمة تضم تفصيلات أرشيف المادة المذكورة. . وإذا ما أردنا الآن أن نتناول هذا الموضوع. . فنحن مهما توسعنا فيه فإننا لا يمكن أن نتجاوز ربما عناوين هذا الموضوع ومن ثم ترتيب هذهِ العناوين وفق منهجية زمنية. . أو منهجية قائمة على أساس المرحلة. . . وتعتمد المرحلتين الأساسيتين في عمر الثورة الإسلامية في إيران. . أي مرحلة ماقبل الثورة ومرحلة ما بعد الثورة. . وعندما نقول عناوين هذا الموضوع فنحن لا نقصد العناويين التعريفية أو الزمنية أو تلك التي تشكل ذروة التعبير من تلك العلاقة بين الثورة الإسلامية في إيران والقضية الفلسطينية. . إنما نقصد العناوين المضمونية التي تشكل اختصاراً مضمونياً لهذهِ العلاقة. . وإذا ما أردنا أن نختار منهج تفعيل المادة الضخمة للعلاقة بين الثورة الإسلامية وبين فلسطين في تشكيل ذلك المضمون المختصر. . فإننا لا نجد أفضل من المنهج المعتمد على الخطاب الثوري الاسلامي الذي طبع الثورة الإسلامية في إيران قبل وبعد نجاحها. . أي عندما ثورة لاتزال تقطع مراحل ولادتها بصورة طبيعية كأحداث مقاومة ضد النظام البهلوي المقبور. . وعندما تحولت إلى دولة ثورية قائمة مع فكرة المؤسسة الثورية.

ومرة أخرى نحن بحاجة إلى تحديد آخر للنهج الذي يشكل جوهر العلاقة

المذكورة. . إذ كيف نحدد هذا الخطاب الثوري الإسلامي؟ فالتعاطي معه بصورة عامة ربما يضعنا أمام إشكالية منهجية تتمثل بتعدد أقطاب هذا الخطاب الثوري قبل وبعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران. .

وليست هذهِ الإشكالية مستعصية في الحل. . إذ أنها تحل نفسها بنفسها إذا ما سلمنا بأن الثورة ماكان لها أن تقوم وتتحول إلى دولة ثورية وتؤسس ركائزها المتينة لولا عنصر القيادة الرائدة التي صنعت أحداثها وخطت قراراتها.

هذه القيادة التي تمثلت بالإمام الخميني ـ قدس الله سره ـ فالإمام «رض» كان محورالحدث ومحور القرار. . وعليه فإن قراءة هذا الحدث لابد أن تكون من خلال قراءة ما يقوله الإمام الخميني «رض». . حيث أن نصوص خطابات الإمام. . هي التي تشكل مادة الخطاب الثوري للثورة الإسلامية في إيران. .

وإذا ما قرأت هذه الخطابات وروجعت بدقة. . فإن أي باحث نصي أو مفكر يمكنه بصورة طبيعية أن يكتشف بأن خطاب الإمام «رض» الثوري كان يتشكل من مجموعة مكونات أو ثوابت خطابية. . ولعل من أبرز هذهِ الثوابت. . هي قضية فلسطين. . حيث أخذت هذه القضية حيزاً كبيراً في مجموع ما تحدث به الإمام من أحاديث ثورية. . والنقطة المركزية التي ترسم ثقل الخصوصية التي أولاها الإمام «رض» إلى قضية فلسطين تتمثل بالحشر الهادف لها في معظم نصوص أحاديثه ما قبل الثورة. .

فعلى الرغم من أن مرحلة مابعد الثورة ـ أي ثورة ـ تكون مكرسة بالعادة لشؤون تلك الثورة الخاصة. . إلا أن الثورة الإسلامية في إيران إنفردت في أدبياتها بمبدأ حشر القضية الفلسطينية في كل أحداث الثورة ذاتها. . والخطاب الثوري للإمام «رض» لم يُسقط هذهِ الثابتة حتى لو كان يعالج قضية حوزوية أو ثقافية أو سياسية إيرانية داخلية.

ولو أردنا أن نعزز هذا القول بمصاديقه التحليلية لما استوعبت بالتأكيد هذهِ الدراسة وعشرات مثلها. . ولكن لا يمكن لنا أيضاً أن نتجاوز المرور على بعض النماذج التي توضح ثابتة فلسطين في خطاب الإمام «رض» الثوري وتوضيح

العمق المضموني للعلاقة مع فلسطين بحجة إستحالة جرد المصاديق الكلية.

لقد قامت رؤية الإمام «رض» للكيان الصهيوني على أساس إن هذا الكيان هو ظاهرة خارج حدود الأسباب الإنسانية التي سيقت دولياً ويهودياً لإيجادها. فتجميع اليهود من شتى أرجاء العالم في فلسطين التي شُرد أهلها نتيجة ذلك، لم يندرج في تخطيط دولي عفوي، ولم يأتِ كإجراء تعويض دولي لما قيل عن سياسة الإضطهاد والمذابح التي عانى اليهود منها لاسيما على يد النازيين.

كما أن الدويلة الصهيونية لم تكن إفرازاً استعمارياً يستهدف العروبة، حتى وإن أدى ضمناً إلى شل الطاقة العربية، وحتى وإن أثر بصورة مباشرة على العرب أكثر من غيرهم، وأيضاً فإن هذهِ الدولة هي أكبر في فلسفة إيجادها من التحدي القومي.. إنها ظاهرة تستهدف العالم الإسلامي، وتزامنت مع الزمن الذي شهد صوراً عديدة للفعل الإستعماري المكثف من أجل الإطاحة بالكيان السياسي لهذا العالم، وأريد لها أن تُولد من داخل هذا الكيان ومن خلال واقعة محاولات اليهود مع السلطان عبد الحميد الثاني لإعطائهم فلسطين بلداً لهم... لقد أريد لفلسطين استعمارياً أن تتحول إلى كيان يهودي يغذي روح العدوان والإنقسامية في العالم الإسلامي، ويجهض أية محاولة جديدة للنهوض بهذا العالم من جديد، بعدما إنهارت دولته المركزية، ويمارس دور الأداة المفسدة لأخلاقه والمروجة لروح اليأس والإستسلام في أوساطه.

إن «اسرائيل» إذاً هي ظاهرة تستهدف العالم الإسلامي في رؤية الإمام «رض»، ومايوضح هذهِ الرؤية هو أقواله قبل وبعد الثورة الإسلامية في إيران. ولنقف على بعض نماذج هذه الأقوال، ففي خطاب له حول النظام «الشاهنشاهي» بتاريخ ٢٨ ربيع الثاني ١٣٩٠ هـ، يقول: «إن اسرائيل التي تمثل العدو الأول للإسلام والتي هي الآن في حالة حرب وصراع مع الإسلام، ومن جرائمها هدم المسجد الأقصى وإحراقه، وفي الوقت الذي سعى فيه حكام إيران كثيراً لأجل التقليل من جريمتها والتغطية عليها، نراها قد التزم جزاءها».

وفي مكان آخر وفي ندائه إلى حجاج بيت الله الحرام بتاريخ ١٩٧١/٣/٨ كان يقول: «إن بصمات الإستعمار الخبيثة في هذا البلد تبدو أكثر وضوحاً مما

هي عليه في البلدان الإسلامية الأخرى، حيث أن إسرائيل العدوة اللدودة للإسلام والمسلمين والتي تخوض حرباً لا هوادة فيها مع الشعوب الإسلامية، تتدخل في جميع الشؤون السياسية والإقتصادية والعسكرية لهذا البلد المظلوم مستفيدة من التسهيلات التي تقدمها لها الحكومة الجائرة في إيران».

وقبل ذلك التاريخ وبالضبط في ١٠/ ٤/ ١٩٦٤ م. كان الإمام «رض» يقول من خلال حديث له، إن إسرائيل في حالة حرب مع الأقطار الإسلامية.

ومن خلال هذهِ النصوص الثلاثة كنموذج يتشكل جانب الرؤية المرتبط بالكيان الصهيوني في عقلية الإمام الخميني «رض» ويبلور فهمه لمهمة هذا الكيان والأهداف الدولية التي تقف وراء إيجاده في المنطقة، فهو كيان يخوض حرباً شرسة ضد الإسلام والمسلمين حتى وإن ابتعد عن عنونة حالات وأساليب المواجهة التي يخوضها بعناوين إسلامية، وحتى وإن أعطي عناوين قومية وعروبية وقطرية بديلة، فجوهر المهمة التي يمارسها هذا الكيان من وجهة نظر الإمام «رض»، موجه ضد العَالم الإسلامي، ويستهدف هذا العالم في وحدتهِ ومصيره وموقعه في الخريطة الدولية.

لقد أثبتت الممارسة الصهيونية التاريخية والآنية نظرة الإمام تلك لفلسفة المواجهة والصراع وتحولت هذهِ الممارسة إلى مصداق لها... مصداق من خلال الحركة الصهيونية السرية والعلنية لمواجهة الصحوة الإسلامية التي شهدها عقد الثمانينات ومن خلال الإنخراط الصهيوني في المخططات الدولية التي استهدفت هذهِ الصحوة برموزها وقاعدتها وقواها الثورية، ومن خلال الغرب الصهيوني القاسي على إفرازين من إفرازات الوعي والصعود الإسلامي، هما الإفراز أو الدرس الجنوبي اللبناني الذي مارس الصهاينة في داخلهِ وعلى هامشه شتى ألوان البطش والإرهاب، والإفراز أو الدرس الفلسطيني الداخلي أي درس الإنتفاضة التي تحولت إلى مختبر لكل أشكال العُنف والرعب والقسوة الصهيونية.. لقد تحولت الممارسة الصهيونية إلى مصداق لرؤية الإمام «رض»، سواء تترجم هذا المصداق من خلال حرق المسجد الأقصى الذي كان الإمام «رض» يشير في واحد من أقوالهِ إليه في العام ١٩٦٩، أو سواء تترجم بعد الثورة

في إيران على شكل ملاحقة لحركة العالم الإسلامي الصناعية والعلمية والتكنولوجية، والسعي الصهيوني للحؤول دون رقي هذا العالم أو إعطائهِ فرصة الحصول على السلاح المتطور بما فيه السلاح النووي.

وإنطلاقاً من هذا الفهم وهذهِ الأرضية نقف على خيار أو ستراتيجية المواجهة التي عمل بها الإمام «رض» للإطاحة أو للتصدي لهذا العمل الإستعماري، وأول أساس يمكن أن نقف عليه في إطار هذهِ الستراتيجية، هو الأساس الذي يبني العمل المضاد للمخطط الإستعماري المذكور على أساس الإسلام، فبما إن الفعل الإستعماري كان يستهدف الإسلام كرسالة وكيان ووجود ومستقبل، فرد الفعل عليه يجب أن يقوم على عناصر الموازنة المطلوبة ويجب أن يلبي حالة الشمولية وأن يستفز الجوانب الفطرية والوجدانية التي تخلق الصورة المعنوية للصراع في النفسية الإسلامية... إن رد الفعل على مخطط إيجاد الكيان الصهيوني في أرض فلسطين السليبة، يجب أن ينطلق إلى ما يؤدي إلى تحريك الإحساس بالمسؤولية الدينية والشرعية وإلى ما يؤدي إلى وضوح في الدور الشرعي لكل فرد من أفراد الأمة ولكل مؤسسة أو نظام من مؤسساتها وأنظمتها، وبغير ذلك لا يرى الإمام «رض» إن فلسطين ستعود إلى أهلها وأصحابها، إذ مهما قيل عن القومية والعروبة فإنهما لا يملكان عناصر الوجدانية التي يملكها الإسلام، كما إنهما لا يملكان قوة التحريك ومستلزمات الدفاع والقدرة على بلورة الإحساس بالمسؤولية مثلما يستطيع ذلك الإسلام.

ومن هنا يأخذ السبب، سبب طرح الإسلام كخيار وإطار للعمل المضاد للكيان الصهيوني شقين، شقاً يرتبط في كون هذا الكيان يشكل بحد ذاتهِ ظاهرة تستهدف العالم الإسلامي. وشقاً يرتبط بالقدرة الذاتية للإسلام التي تفتقدها الطروحات الأخرى العروبية والقومية والوظيفية والقطرية التي يحرص الآخرون على خوض الصراع مع الإحتلال الصهيوني من خلالها.

وقبل أن نسترسل كثيراً في هذا الإطار، لابد أن نقف على بعض النماذج التي توضح هذه الثابتة في ستراتيجية المواجهة لدى الإمام «رض».

يقول الإمام «رض» في مقابلة صحفية له أمام المراسلين عام ١٣٩٣هـ: «إن

من الأمور المسلمة هو ان واجب المسلمين في مقارعة الإحتلال الصهيوني وفي أقصى بقاع العالم الإسلامي، وهو نفس الواجب المُلقى على عاتق الشعب الفلسطيني المسلم، حيث أن المسلمين يد واحدة على من سواهم».

وهذا النص يختزن ربما أدق تصوير لمفاهيم الإمام «رض» في مواجهة المؤامرة الدولية التي تجسدت بالكيان الصهيوني، كما يختزن أول موقف إسلامي بهذا المستوى الذي يُسقط أي فارق في مسؤولية التصدي لـ «إسرائيل» بين الفلسطيني من جهة والإيراني أو الأندونيسي أو التركي أو الإفريقي المسلم من جهة ثانية.

إن ضرورة العمل المضاد للصهيونية ربما يتطلب في بعض الأحيان أو في أكثر الأحيان أن تكون مسؤولية الإنسان الفلسطيني أكبر من مسؤولية غيره في الدفاع عن بلادهِ، ولكن الإمام «رض» يرفض رفضاً قاطعاً وأكيداً أن تتحول هذهِ الضرورة على رغم أهميتها إلى عامل تفريقي أو تفضيلي في توزيع المسؤوليات على أبناء الأمة الإسلامية... ويرفض أن تتحول عناصر الوطنية أو التعلق بالارض أو التضرر من المؤامرة بالنسبة للفلسطيني الى عناصر فارضة لمسؤولية إضافية في تحرير فلسطين... إن المسؤولية واحدة وفي نفس الدرجة بالنسبة للفلسطيني والإيراني والتركي وغيره من أبناء الأمة الإسلامية إزاء فلسطين.

إن أحداً لا يشكك في كون الإمام «رض» إنفرد في هذا الفهم وهذا الطرح في المواجهة ولم يسجل أو يذكر لنا التاريخ إن قائداً إسلامياً عالج أزمة فلسطين ونظر إليها ونظَّر مثلما فعل الإمام «رض».. فهو يصر من خلال النص المذكور على أن تبقى أساليب المواجهة وأطرها وبناءها العام قائمة على الإسلام إلى الحد الذي تُرفض في ظله أية تعليلات تعطي تفاضلاً أو أختلافاً في توزيع المسؤوليات.

على أية حال يقول الإمام «رض» في مكان آخر وفي إحدى رسائله الجوابية إلى الطلبة المسلمين المقيمين في أمريكا وأوروبا وكندا بتاريخ ٩ صفر ١٣٩٣ هـ يقول: «لو كانت الأقطار الإسلامية والشعوب المسلمة قد اعتمدت على الإسلام بدلاً من اعتمادها على المعسكرين الشرقي والغربي، ووضعت

تعاليم القرآن الكريم التحررية والمشعة بالنور نصب أعينها وطبقتها في حياتها اليومية، لما أضحت اليوم أسيرة بيد الصهاينة المعتدين، ولما أرعبتها طائرات الفانتوم الأمريكية، ولما خضعت للأساليب التساومية والآعيب المكر الشيطانية التي يتبعها الإتحاد السوفياتي».

إن العنصر الثالث من عناصر رؤية الإمام «رض» للمواجهة مع الصهيونية يتعلق بالتركيز على الخطر الذي تؤدي إليه تل أبيب في المنطقة، فهو خطر من وجهة نظر الإمام لم يقتصر على مجال واحد من مجالات الحياة الإسلامية، لا بل إنه خطر يمتد إلى كل المجالات الإقتصادية والدعائية والأخلاقية والصناعية والثقافية.. كما إنه خطر يهدد وحدة الأمة نفسياً وجغرافياً، وفعلاً لقد أظهرت التجربة.. تجربة الإحتلال الصهيوني خلال سنوات الإحتلال الماضية، أثبتت بأنهم ـ أي الصهاينة ـ يخططون للتدخل في كل شؤون الحياة الإسلامية لأن بقاءهم مرهون بهذا الشكل الشمولي من أشكال التخطيط، ولأن طبيعتهم النفسية هي أقرب إلى الفضولية والعدوانية منها إلى الخير والتعاون وتبادل الثقة وحسن الظن بالآخرين... ولأن إحساسهم بجريمة الإعتداء على حقوق شعب آخر وتشريده وإحساسهم بأنهم عنصر غريب في هذه المنطقة الإسلامية... كل ذلك يدفع بهم إلى حالة من حالات الإستنفار والتدخل في كل شيء، واللجوء إلى كل الوسائل من أجل إبقاء الأمة الإسلامية متخلفة إقتصادياً، ومن أجل إسقاط المفاهيم والقيم الإنسانية والإسلامية الخيرة من ذات الأمة، ومن أجل إلحاق الهزيمة بها نفسياً ودفعها إلى الشعور بالضجر واليأس أمام واقع التطور العالمي الحالي.. وأخيراً من أجل قتل روح التضحية والجهاد والشعور بالمسؤولية، فعبر هذا الطريق فقط يمكن للصهاينة أن يعيشوا آمنين في المنطقة.

لقد كان الإمام «رض» يعي تماماً هذهِ المداخلات المكونة للنفسية الصهيونية ويدرك ماهية الأهداف المفرزة من هذا التكوين ويضع يده على هذا الشكل الأجمالي من إشكال التخطيط اليهودي للإمتداد في مجالات الحياة الإسلامية... وإنطلاقاً من هذا الوعي والإدراك كان يحذر ويكرر عبارات التحذير في كل مناسبة وحتى أنه يمكن القول، إنه قلما مرت هنالك مناسبة

تحدث بها الإمام ـ رضوان الله عليه ـ دون أن يكون له مرور تحذيري أو تذكيري بالخطر الصهيوني وما سيؤول إليه هذا الخطر فيما لو حصل هنالك تقصير في مواجهته.

فلنقف معاً على بعض نصوص خطابات الإمام «رض» المعارضة لهذا الخطر والمملوءة بدلالات التحذير منه، يقول الإمام «رض»: «إن النظام الحاكم المتجبر ـ النظام الشاهنشاهي ـ يتعاضد بكل قواه مع إسرائيل وعملائها، حيث سلمها الوسائل الإعلامية والدعائية في القطر، وترك لها مطلق الحرية في التصرف بها، وقد فسح المجال التام لها في النفوذ إلى الجيش والمؤسسات الثقافية وسائر الوزارات الأخرى، وأعطيت لها المناصب الحساسة في الدولة. . . عليكم أن تذكّروا الشعب دوماً بأخطار إسرائيل وعملائها في إيران».

ويلاحظ هنا إن الإمام «رض» يربط في هذا النص الذي قاله أمام الوعاظ والخطباء الدينيين عام ١٩٦٣ م، بين مجال من مجالات الخطر الاسرائيلي وبين التذكير والتحذير من مغبة ترك الايادي الإسرائيلية تعبث كيفما تشاء، والمجال الذي يحذر منه الإمام «رض» هنا هو المجال الإعلامي فما عرف عن الصهيونية إنها كانت ولازالت تسعى إلى فرض هيمنتها على كل وسائل الإعلام الأوربية والإسلامية وبالخصوص الإسلامية غير العربية، وذلك من أجل تشويه صورة وشكل الصراع الدائر حول فلسطين في الشعور الإسلامي العام. واعتبار هذا الصراع على أنه مع العرب الذين تتهمهم بالتخلف والدكتاتورية، أو أن الصهيونية تهدف من وراء مد نفوذها الإعلامي إلى أكبر مساحة إسلامية، تسعى إلى ترويج الرذيلة والفساد وممارسة شتى أساليب التسقيط الاخلاقي والجنسي، بإعتبار أن هذا اللون من الوان التسقيط كفيل بأن يحد أو ينهي تماماً الإحساس بالمسؤولية وروح الجهاد والمثابرة في أوساط الأمة الإسلامية.

بالطبع كثيرة هي أحاديث الإمام «رض» في إطار الخطر الإعلامي ولا يمكننا أن نستوعب حتى القدر المناسب منها هنا، لكن نعتقد أن أسلوب عرض بعض النماذج قد يشكل بالنهاية الهيكل الإجمالي لرؤيا الإمام الخميني «رض» في إطار الخطر الصهيوني، وهذا ما يتحول بدورهِ إلى جزء من صورة أوسع

وأشمل في تفكير القائد الراحل عن الصراع مع الصهيونية وخيارات المواجهة في إطار هذا الصراع. والآن نقف على نموذج ثانٍ وأخير في التحذير من مخاطر النفوذ الصهيوني الإعلامي، يقول الإمام «رض» في مسجد أعظم في مدينة قم المقدسة في ٢ جمادي الأولى ١٩٦٤م. يقول: «فالبرامج التلفزيونية والإذاعية يديرها إسرائيليون، وهذا الواقع الأليم ليس منحصراً في هذا البلد فقط، بل إنه موجود في جميع البلدان الإسلامية... إننا نجد هنا من هم أسوأ من اليهود وهم يسيطرون على التلفزيون ويقولون ما يشاؤون».

إن الإمام «رض»، كما يُبرز هذا النص، في الوقت الذي كان يحارب فيه النفوذ الدعائي والإعلامي الصهيوني في إيران «الشاه»، كان ذهنه يتسع لأبعاد المؤامرة الإعلامية الصهيونية في باقي نقاط العالم الإسلامي... إنه ينظر على الدوام نظرة شمولية للصراع، ولا تلهيه الجزئيات عن الإطار الأشمل الذي تدور فيه المواجهة.

ففي المجال الإقتصادي يقول الإمام «رض» في خطابٍ له في المدرسة الفيضية في مدينة قم المقدسة بتاريخ ١٩٦٣/٦/٣ م يقول: «إنهم يريدون القضاء على جميع العقبات في هذهِ الأرض، والقضاء على تجارة وصناعة الشعب، يريدون بالتالي أن لا يكون ثري من بينكم في هذا البلد، إنهم يرومون التخلص من العوائق التي تقف في طريقهم، ولأن القرآن يعتبر عقبة أمامهم، فلا بد من القضاء عليه، ولأن علماء الدين يعتبرونهم عقبة في طريقهم فلا بد من إزالتهم، ولأن المدرسة الفيضية تعتبر عقبة في طريقهم فيجب تهديمها، ولأن طلبة العلوم الدينية من الممكن أن يعيقوا مسيرتهم في المستقبل فلا بد من رميهم من على السطوح وتكسير أيديهم ورؤوسهم. كل ذلك من أجل أن تحقق إسرائيل مصالحها في إيران، ولأجل هذا تعمل الحكومة على إهانتنا، مرسخة بذلك تبعيتها لأسرائيل».

إن هذا النص يربط ربطاً محكماً بين الجهود الداخلية التي تسعى إلى الإطاحة بالفكر الإسلامي ورجالهِ ومؤسساته، وبين تبعية البلاد إقتصادياً لإسرائيل أيام «الشاه»، ودور هذهِ الأخيرة في تغذية الخطط والإجراءات

الإرهابية في ضرب القوى الإسلامية بإشراف خبرائها في هذا المجال وبيد الحكومات الصديقة لها كحكومة «الشاه» المقبور.

وهكذا تبدو الصورة وكأن الخطر الصهيوني يتدخل في كل تفصيلات الحياة الإسلامية، فحتى الإعلام والدعاية والإقتصاد، وإعداد الخطط الإرهابية، ورفد البلدان «الصديقة» بخبراء هذا الإرهاب الصهيوني إلى المجال التوسعي والإمتدادي ونزعة الهيمنة والإبتلاع لكل نقاط المنطقة وليس فلسطين فحسب، حيث يقول الإمام «رض» في حديث له مع ممثلي شيعة لبنان بتاريخ ٢٣/ ٥/ ١٩٨٠ م : «منذ سنوات طويلة كنت قد تحدثت مراراً عن إسرائيل وجرائمها وقلت إنها غدة سرطانية زرعت في زاوية من زوايا العالم الإسلامي، وهي لا تكتفي بالقدس بل تريد التوسع أكثر، وسياستها تابعة للسياسة الأمريكية ومصالح امريكا ليست منحصرة بمكان واحد بل هي تابعة لسياسة القوى العظمى وهي تريد الهيمنة على كل الدول إن استطاعت».

لقد أثبتت السنوات الماضية إن الكيان الصهيوني يختزن في عقليته أكثر من مشروع احتلالي وتوسعي وابتلاعي جديد، وإنه مع كل الضربات التي تلقاها ولازال يتلقاها في الأراضي اللبنانية وفلسطين المحتلة إلا إنه يعتقد أن أهداف الإبتلاع النهائية للأراضي ومخططات التهويد، تبقى بحاجة إلى ثمن حتى ولو كان هذا الثمن كبيراً.

إن الإمام «رض» عندما يركز على فكرة الإمتداد اليهودي داخل الأراضي العربية والإسلامية، فإنه ينظر إلى هذه الفكرة من خلال فهم أصيل وعميق لدموية الثقافة اليهودية والصهيونية، وللتكوين الثقافي والنفسي والديني اليهودي بما يفرزه من قناعات في أرض الميعاد وأرض الأجداد وأمبراطورية إسرائيل الكبرى التي يجب أن تقوم من الفرات إلى النيل. . . ويقول الإمام «رض» في هذا الإطار وفي حديث له مع أعضاء جهاد البناء وقادة الحرس في ٢٥/ ١/ ١٩٨٣ م، يقول:
- «إن الإسرائيلين يعتبرون أنفسهم أرقى الشعوب. . . والأراضي الواقعة بين الفرات والنيل ملكاً لهم ويجب أن تعاد إلى إسرائيل».

إذاً إنطلاقاً من هذا الفهم لأسس تكوين إسرائيل، واستيعابها للأهداف

الدولية المناطة بها، وللتداخل المصيري بين دورها وسياسة الغرب بزعامة واشنطن، وإنطلاقاً من التكوين الثقافي والمعتقدي اليهودي الشاذ وما يرسمهُ هذا التكوين من قناعات ومخططات وطموحات دموية.. وكذلك إنطلاقاً من إستيعاب وافٍ لشمولية الصراع بين العالم الإسلامي والغرب ومصيريته.. فإن الإمام ـ رضوان الله عليه ـ حدد خطوطاً عامة لمواجهة غدة «إسرائيل» السرطانية في المنطقة من داخل التفكير الإسلامي أو ثابتة مواجهة تل أبيب بالخيار الإسلامي... فمن داخل هذا الخيار وعلى أساسه، ومن وحي قناعاته ومبادئِه العامة كان الإمام «رض» يضع أو يحدد تلك الخطوط التي يمكن إيجازها بما يلي:

١ ـ رفض أي صورة من صور الحوار مع الكيان الصهيوني، لأن مجرد كلمة الحوار مع عدو يريد من خلال هذا الحوار أن يحتفظ لنفسه بحقوق الآخرين... هي نقيض لمباديء الإسلام التي ترفض الإنهزامية في معركة استرجاع الحقوق السليبة.

٢ ـ إحكام القطيعة الثقافية والإقتصادية والسياسية على الكيان الصهيوني وإبقائه دائماً في جو من العزلة والشعور بالوحدة.

٣ ـ تحريك كل عناصر المقاومة والقوة النفسية والمادية في الذات الإسلامية وحشد كل أساليبها في ساحة المواجهة وفي إطار نظرية التحريك لدى الإمام الخميني ـ رضوان الله عليه ـ.

٤ ـ الضرب المتواصل على حُلفاء الكيان الصهيوني الدوليين إنطلاقاً من الترابط المصيري والتداخل المصلحي بين هذا الكيان وحلفائه. كما أرسى الإمام ـ قدس الله نفسه الزكية ـ القواعد التنظيرية المطلوبة للتعاطي مع القضية الفلسطينية وإبقائها القضية الإسلامية رقم (١) وإعتبارها مقياس الولاء والإخلاص أو مقياس نزاهة الأنظمة والحركات... ولقد جاء هذا التنظير من خلال النقاط التالية.

أولاً: ـ طرح إسلامي نظري متكامل للقضية الإسلامية ومواصلة الدعوة

إلى أسلمة هذهِ القضية بكل أبعادها ومجالاتها.

ثانياً: ـ يوم القدس العالمي.

ثالثاً: ـ مسيرة البراءة من المشركين.

رابعاً: ـ حركة ملاحقة سياسية ودبلوماسية مكملة من حيث الجهد للنقاط الثلاثة المذكورة.

إن الحوار مع الكيان الصهيوني يدخل في باب المحرمات، وإنه لن يؤدي إلى نتيجة، فالحوار يجب أن يكون بين طرفين كل منهما يملك شيئاً من الحق، وهنالك منطقة خلاف وإختلاف متنازع عليها في الحقوق، أما أن يكون هنالك طرف دخيل على الأرض... لا يملك منها شيئاً... جاء بالقوة لينفذ إرادة خارجية أو يشكل أداة من أدوات الاعداء الكبار للأمة الإسلامية... وأما أن يكون هنالك مثل هذا الطرف... عندها يصبح الحوار لا معنى له أو أنه يتحول إلى مكاسب مجانية للعدو الصهيوني بمجرد إقرار الأمة بمبدأ هذا الحوار. لقد حذّر الإمام «رض» الأطراف العربية والفلسطينية المعنية بهذا الموضوع من عقبة الإقرار بهذا الحوار، ولكن لم تأخذ هذهِ الأطراف تحذيرات الإمام ـ قدس الله نفسه الزكية ـ مأخذ الجد، وراحت تفتعل الأسباب من أجل أن تفتح صفحة التفاوض مع الكيان الصهيوني... راحت تردد عبارات العجز الذاتي، وتدّعي أن لا طاقة لها بمقاومة الإرادة الدولية التي تقف وراء هذا الكيان... كما إن الأطراف الساعية إلى التفاوض إدّعت ولازالت تدّعي بأن مجرد إقرار مبدأ الحوار مع الصهيونية ممثلة بكيانها في فلسطين المحتلة، سوف يحرج هذهِ الصهيونية وحلفاءها ويؤدي إلى موقف دولي أكثر تعاطفاً وتأييداً للحق الفلسطيني.

لقد واكب الإمام «رض» مشاريع الحوار ومبادراتِه، وواصل إسلوبه التحذيري إزاء كل هذهِ المشاريع والمبادرات، وهو يتساءل ذات مرة، مع مجموعة من المعوقين والجرحى كان يتحدث لهم بتاريخ ١٧/ ١١/ ١٩٨١ م. يتساءل قائلاً: «وهل من اللائق الآن، أن نعترف وتعترف الدول العربية رسمياً، بهذا النظام الفاسد والفاسق والكافر، مع معرفة الجميع بهذهِ الحقيقة، وهي أن

جميع الأعمال التي قاموا بها منذ دخولهم إلى القدس وفلسطين، كانت ترسخ الإحتلال و الإغتصاب».

ويواصل الإمام حديثه قائلاً: «إنني أحذّر الجميع من مغبة الموافقة على هذا المشروع ـ مشروع فهد ـ فإن إسرائيل ستسيطر غداً على مكة والمدينة إذا وفق هذا المشروع اليوم وتمت المصادقة عليه، أيتها الشعوب... إنتبهوا جيداً وأيقظوا حكوماتكم وعارضوا هذا المشروع الكافر الفاجر... إننا لو نباد ونفنى تحت هيمنة الصهيانة أو أمريكا لن نوافق.. إن كل من لا يخالف هذا المشروع الفاسد فهو خائن للإسلام وأعلموا إن الشعوب إذا عارضت أمراً فإن الحكومات لن تتمكن من تنفيذه إطلاقاً».

إن هذا النص ربما يختصر بما فيه الكفاية إسلوب التحذير الذي كان يعتمده الإمام «رض» في مواجهة الجهود التصالحية مع الإحتلال الصهيوني، فالحوار مع الإحتلال إنما هو نوع من أنواع الكفر والفجور، والسكوت إزاء هذا الحوار إنما هو خيانة للمسلمين من وجهة نظر الإمام «رض»... إن إستراتيجية المواجهة لدى الإمام لا تضع مكاناً لهذا الحوار أولاً، وهي تلاحقه بقوة ثانياً، وتحرّض عليه بكل قواها التحريضية ثالثاً.

حيث يقول الإمام «رض» مرة أخرى بمناسبة يوم القدس العالمي في ١٦/ ٧/ ١٩٨٣ م يقول: ـ

«إنني أنصح الزعماء الفلسطينيين أن يكفّوا عن الزيارات والتنقلات، وأن يعبئوا شعبهم بالإتكال على الله ويسددوا أسلحتهم لمحاربة إسرائيل حتى الموت، وإن هذه الزيارات ستؤدي إلى أن تفقد الشعوب المناضلة أملها فيكم، وكونوا على ثقة بأن لا الشرق ينفعكم ولا الغرب، حاربوا إسرائيل بالإيمان بالله وبالإعتماد على السلاح».

هذا من جهة... ومن جهة أخرى فإن الإمام «رض» مارس بنجاح عناصر التحريك المطلوبة في وسط الأمة... وإلى الدرجة التي يستحق فيها هذا الجهد التحريكي إعطاءه إسم نظرية التحريك لدى الإمام... التحريك الكفيل بإثارة

الأمة ضد مظاهر الظلم والعدوانية الدولية لاسيما ضد فلسطين الحبيبة... والتحريك الكفيل بتوظيف طاقات الأمة الذاتية وممارسة إسلوب التذكير المتواصل معها في نقاط ومواطن القوة التي تملك، وأدوات ومستلزمات الصراع التي تشكل امتيازاً لها، ويحاول الأعداء أن يقضوا عليه أو أن يقللوا من أهميته.

ولنقف هنا على بعض النصوص التي بإمكانها أن ترسم أو توضح الخطوط العامة لنظرية التحريك لدى الإمام «رض» وكيف وظّفت هذه النظرية في سياق المواجهة الدائرة حول فلسطين. يقول الإمام في بيان له بمناسبة يوم القدس العالمي بتاريخ ٦/ ٧/ ١٩٨١ م:

«إذا رفعت الجماهير البالغة ملياراً شعارنا، فإن إسرائيل ستهاب حتى من مجرد صياحها، إذ يخرج جميع مسلمي العالم ـ أي ما يقارب مليار نسمة ـ من بيوتهم يوم القدس ويرفعون أصواتهم بشعارات الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل، الموت للإتحاد السوفياتي.. إن عددكم مليار نسمة، وكنوزكم الأرضية كثيرة، والعالم كله يحتاج إلى كنوزكم هذه ومع ذلك فلقد القوا الخلافات بينكم لينهبوا هذهِ الكنوز ولا يعارض أحد منكم».

إنه نص يركز على عناصر القوة الذاتية لدى الأمة ويجعل منها أسلحة مواجهة وأرضية حركة وإنطلاق نحو التمرد على الواقع التبعي الذي تعيشه الأمة، كما إنه نص يبعث على الإحساس بالقوة ثم التحرك نحو ترجمة هذهِ القوة وتصحيح ميزان الصراع.. إنه نص مشحون بأسرار التحريك النفسي وأجواء إعادة الثقة بالنفس... ومواجهة الهالة التي ركزتها الدعاية الغربية في الشعور الإسلامي للغرب... ومهما يكن من أمر فإنه إذا كانت النقطة الأولى من نقاط هذهِ النظرية تقوم على أسلوب التذكير بالقدرة الذاتية فإن النقطة الأخرى من نقاطها تقوم على تحريك الإحساس بالواجب الديني الملقى على عاتق أي إنسان مسلم، لكي ينهض بإتجاه تحرير فلسطين المغتصبة. يقول الإمام «رض» في هذا الإطار وفي حديث له مع عوائل شهداء الدول الإسلامية بتاريخ ١٨/ ٢/ ١٩٨١ م: «لا أثر ولا رائحة للإسلام في مؤتمرهم، لقد كان المؤتمر مناسبة للإسراف والتبذير دون الإهتمام بالإسلام وأمور المسلمين. ألم يسمعوا

الحديث النبوي الشريف الذي يقول: من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم ـ هل أهتم هؤلاء بأمر المسلمين عندما اجتمعوا في دولة كانت مهبطاً للوحي ومكاناً لمبعث رسول الله ونبي الإسلام؟.

هل اهتموا بالإعتداء الصهيوني على لبنان وفلسطين؟ يجب على الشعوب أنفسها أن تعطي أهمية للإسلام، فإننا يائسون من زعماء الأنظمة. إن هؤلاء الذين يدّعون الإسلام ينظرون إلى العدوان الإسرائيلي على لبنان وفلسطين وجميع الجرائم التي تحدث دون اهتمام».

أما على صعيد ما يُحقق هدف عزلة «إسرائيل» فإن الإمام يقول، في نداء له بمناسبة ذكرى انتفاضة الخامس عشر من خرداد بتاريخ ١٩٨٢/٦/٥ م، يقول:

«إنني أعتبر مساندة المشروع الذي يمنح الإستقلال والإعتراف الرسمي لإسرائيل فاجعة كبرى للمسلمين وانتحاراً للحكومات الإسلامية، وأعتبر معارضة ذلك فريضة إسلامية كبرى».

وقبل هذا التاريخ، أي بتاريخ ١٩٨١/١١/١٧ م وفيُ خطاب أمام مجموعة من المعوقين، كان الإمام «رض» يقول: «وهل من اللائق الآن أن نعترف وتعترف الدول العربية رسمياً بهذا النظام الفاسد والفاسق والكافر؟ مع معرفة الجميع بهذِهِ الحقيقة، وهي إن جميع الأعمال التي قاموا بها مُنذ دخولهم إلى القدس وفلسطين كانت ترسّخ الإحتلال والإغتصاب وأكثر من ذلك، أن تدفع الدول العربية أجراً لإسرائيل مباركةً لها على أعمالها الإجرامية؟!».

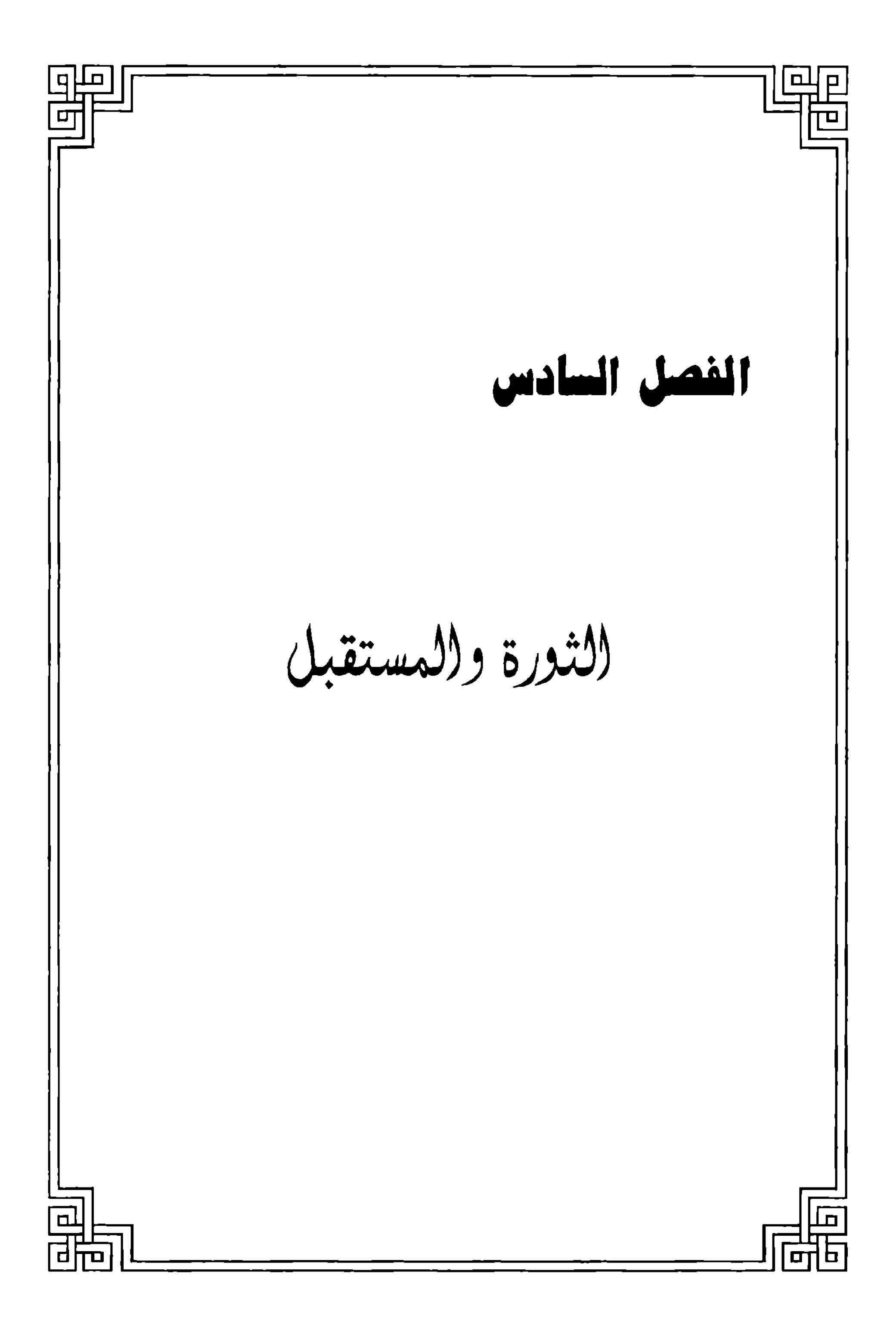
ويقول الإمام «رض»، في ندائه إلى الدول الإسلامية بمناسبة اعتداءات إسرائيل في حرب حزيران ١٩٦٧ م، يقول: ـ

«أما اليوم وبعد أن شنت هذه الدويلة الفاسدة حربها الظالمة المسعورة ضد الدول الإسلامية، وأعلنت عما تكنه من عداء وكيد دفينين، يجب على الدول الإسلامية وشعوبها الأبية على اختلاف قومياتها ولغاتها أن تتوحد، وتبذل كل جهودها وامكانياتها من أجل اقتلاع هذا الكيان الغاصب المعتدي.. وأن تكف عن مساعدة إسرائيل وعملائها والسائرين في ركابها ومناصريها، وأن تقطع عنهم

كل معونة مادية ومعنوية بجميع أشكالها. . . وتحرّم عليها النفط والسلاح، وتقطع كل رابطة تجارية وسياسية، وأن تمتنع عن الإستفادة من المنتوجات الإسرائيلية كافة، ولتعلم الأمة الإسلامية جمعاء بأن المخالف لما أشرنا إليه يعتبر عدواً مناهضاً للإسلام والمسلمين، ولنبتهل إلى الله تعالى أن ينصر الأمة الإسلامية على أعدائها في كل مكان».

وأخيراً يقول الإمام «رض» فيما يخص العمق الذي تشكله الولايات المتحدة الأمريكية لـ «إسرائيل» لكي تفعل ما تشاء، يقول: «لولا وجود هذا المشروع الأمريكي (مشروع كامب دايفيد) والمشروع الأمريكي الثاني الذي طرحه فهد، والمشاريع التي ستطرح في المستقبل لما تجرأت إسرائيل على إعلان إنضمام الجولان إلى أراضيها في هذا الوقت. . إن مسألة إلحاق مرتفعات الجولان بالأراضي المغتصبة من قبل إسرائيل هي بداية القضية حيث إن إسرائيل، وبمساندة أمريكا، تعمل ما تريد».

جاء ذلك في خطاب للإمام «رض» أمام خريجي كلية الضباط بتاريخ ١٩/ ١٢/ ١٩٨١ م وبهذا النص تكون الرؤية التي أردنا الوقوف على إطارها العام قد اكتملت في مفرداتها، وفي استيعاب دور ومهمة الظاهرة «الإسرائيلية» كظاهرة استهدفت العالم الإسلامي وليس العروبة أو القومية، وفي طرح الخيار الإسلامي البديل لمواجهتها، وفي ما يحتاج إليه هذا الخيار من أدوات فعل وخطوط تنظير، ولو أن الأطراف المعنية بالقضية الفلسطينية قد أخذت بهذهِ الرؤية لإدارة الصراع لما أصبح بإمكان قادة الإحتلال الصهيوني أن يتحدثوا بـ «ثقة» عن حماقة «إسرائيل الكبرى»، ولما تجرأ هؤلاء القادة على ممارسة أنواع الجرائم ضد الشعب الفلسطيني. . . هذه الجرائم التي يصفها الإمام «رض» في وصيته المباركة من خلال القول «وعلى رأس هذهِ الوحوش تقف أميركا بنزعتها الإرهابية الحكومية التي أوقدت نار الفتنة في أرجاء العالم وكذلك خليفتها الصهيونية العالمية التي ترتكب تحقيقاً لأطماعها جرائم يخجل القلم عن وصفها واللسان عن ذكرها مدفوعة بأوهامها الحمقاء في إنشاء دولة إسرائيل الكبرى».



الفصل السادس

الثورة والمستقبل

استشراف

في بدايات هذا القرن وفي العقود الأولى منه حصل تحول مصيري في الساحة العالمية تمثل بإنهيار الكيان السياسي للمسلمين المتمثل آنذاك بالدولة العثمانية... وبروز قوى وأفكار دولية أخرى على أنقاض هذا الإنهيار، ولدت الشيوعية كفكرة وتحولت إلى نظام سياسي في ١٩١٧ م في الإتحاد السوفياتي وخضع العالم في جزءٍ منه إلى قيود النظام الشيوعي الحديدية على أمل أن تأتي اللحظة التي تنقذ فيه الشيوعية شعوب العالم المقهور وتعطيهم شرف قيادة الإنسانية بصورة سلمية، لقد غزت الشيوعية عقول الكثيرين ممن تأثروا بشعارها الإنقاذي للشعوب.. وفي المقابل كانت بريطانيا وفرنسا تندفعان نفوذياً على حساب الإسلام المنهار في دولته المركزية، وفي لحظة تاريخية أخرى تنتقل زعامة العالم العربي من يد بريطانيا وفرنسا إلى يد الولايات المتحدة الأمريكية وتتحول هذهِ الأخيرة إلى قوة أكثر اضطهاداً للمسلمين من القوى الغربية الأخرى.

هذا الوجه العالمي ذو القطبين الشرقي والغربي بقي يدير العالم إدارة حديدية قاهرة، وعندما يتصارع هذان القطبان لم يكن هذا التصارع يحصل على حساب هذهِ الإدارة الحديدية إنما هنالك أقواس موزع عليها العالم... هنالك نقاط ودوائر مغلقة على حد تعبير هنري كيسنجر وزير خارجية امريكا السابق... وهناك نقاط مفتوحة يحصل فيها الصراع.

إن عقد الثمانينات كان كما هي عقود العشرينات والثلاثينات، عقداً تحوليا وتغييراً لوجه العالم، ولعل أهم محوري تحول هما محور الشيوعية كفكرة وكنظام شيوعي، ومحور صعود الإسلام كصحوة وكنظام سياسي. لقد ولدت

الشيوعية في اللحظة الزمنية التي إنهار فيها الكيان السياسي الإسلامي، ولقد أصبحت في «متاحف التاريخ» في عقد الصعود الإسلامي وهو عقد الثمانينات، وليس المهم هنا أن نقف على دلالات هذا التحول أو المصادفات الزمنية فيه بل المهم أن نقرأ العالم الإسلامي كواقع وكمستقبل في خريطة هذا التحول من وجهة نظر الإمام «رض»، والمهم أن نعرف هل نحن قادرون فعلاً على ملأ الفراغ الفكري والسياسي الذي نجم عن إنهيار الفكرة الشيوعية أم إن الإسلام الذي ولد ولادة سياسية جديدة في الثمانينات تحمل من الضربات القاصمة ما يجعله غير قادر على مواصلة الشوط؟ لنر ماذا يقول الإمام الخميني ـ قدس الله نفسه الزكية ـ في هذا الإطار، ولنقرأ المستقبل على أرضية الثمانينات وعلى أساس رؤية الإمام أولاً، وتحليل حدث الساحة الإسلامية ثانياً.

فعقد الثمانينات مشحون بالأحداث ذات الدلالات التحولية، ومعالجات الإمام «رض» مملوءة بحالات الاستشراف. . . استشراف المستقبل. . . وحطام الشيوعية كفكرة لازال في مكانه بحيث إنه يدفع بنا وبقوة إلى أن نعرف مكاننا في المستقبل المنظور.

وهنا لا بد من القول بأن أهم حدث تحولي شهده عقد الثمانينات تمثل بآثار الثورة الإسلامية في إيران على الساحة العالمية، وما أوجدته هذهِ الثورة من إنقلاب عظيم في موازين القوى العالمية والإقليمية وما أحدثته من إهتزاز للنظام السياسي الدولي وإهتزاز لعواطف العالم الإسلامي التي كانت نائمة تحت ركام من القهر والكبت والإحساس بالإنسلاخ عن الذات والتبعية للآخرين.

تحررت هذهِ العواطف لتشم نسيم الثورة في إيران التي حطمت قلعة من قلاع الغرب الإقليمية في المنطقة، وأطاحت بركيزة مهمة من ركائزه في النظام الصراعي الكوني. . .

تحررت هذهِ العواطف الإسلامية لتحلم من جديد بعالم إسلامي ذي كيان سياسي يمارس دوره على الساحة الدولية الغارقة في أنظمة الإستبداد والإستغلال السياسي، بعد أن مات هذا الحلم طيلة سبعين عاماً وبعد أن أُخضعت المنطقة الإسلامية برمتها إلى الأنظمة العلمانية والقومية التي ما كانت ترى في الإسلام

أكثر من تراثٍ روحيٍّ تأخذ منه مفردات التمجيد بتاريخ الأمة. . لقد سقط النظام القومي والعلماني في إيران بقبضات الثوار لقيام النظام الإسلامي ولأول مرة بعد سبعين عاماً فيها. ولتبدأ فيما بعد رحلة التغيير والصراع والتحول المريرة.

إن الثورة الإسلامية في إيران كان لها دور فاعل وكبير في تحديد خريطة الأحداث الأخرى في الساحة الإسلامية من وجهة نظر الإمام «رض»، فهي من خلال خطابها الثوري المتواصل وعبر دروس المواجهة التي إنطوت عليها وبمبادئها الصدامية التي مارستها مع القوى الغربية التي كانت تتحكم في إيران، إستطاعت أن تكون القوى الفاعلة الأساسية في توجيه الحدث على الساحة الإسلامية أو صناعته أو المساهمة في عملية التحول التي شهدتها هذه الساحة وبما تطلّبه هذا التحول من إعادة تشكيل لذهنية الأمة الإسلامية، وكيفية تعاطيها مع قضاياها. . . إن حدث الثورة الإسلامية بحد ذاته أوجد إهتزازاً عميقاً في العقل الإسلامي العام، وعالج عقدة مستعصية في النفسية الإسلامية. . . وهي عقدة الهزيمة النفسية أمام القوة الغربية التي استطاعت في لحظة من اللحظات أن تحطم النظام السياسي للإسلام وأن تقنع الشارع الإسلامي بإستحالة عودة هذا النظام في ظل الواقع والنظام السياسي الدولي الجديد. . هذهِ العقدة كان يختزنها الشعور الإسلامي العام بمستويات مختلفة وبدرجات وعي متفاوتة وبحالات وضوح متعددة. . . وحتى المسلم الأمي كان خاضعاً لها بصورة من الصور.

ولكن بمجرد أن حصلت الثورة الإسلامية في إيران بفصولها المثيرة وبمعاني التحدي فيها، وبمجرد أن أعلن عن تشكيل أول حكومة إسلامية فيها. . حصلت أول رؤية للذات الإسلامية وهي تجسد نموذجها في إيران وسط جو عاصف من الضوضاء والمؤامرة الدولية، فأختلفت صور التعبير التفاعلي مع هذهِ الرؤية وبدأت رويداً رويداً ومن خلال عملية المراقبة الذاتية المفروضة بعناصر طوعية وعناصر إثارة امتاز بها الحدث الثوري. . . بدأت خلايا الشارع الإسلامي تخوض مع نفسها حواراً ذاتياً وتحاول أن تنقل هذا الحوار إلى الشارع السياسي كلما بدا أن هنالك مشجعاً من مشجعات الثورة يساعدها ويعطيها مزيداً من

الجرأة للدفاع عن المصداق الحي في إيران لعودة الإسلام إلى الحياة كنظام حاكم، وبعودة جزء من أجزاء الوطن الإسلامي إلى حيث تنعدم التبعية للشرق أو الغرب، وإلى حيث ما يشكل النواة الأرضية من جديد للوطن الإسلامي المحكوم بقانون الإسلام الأصيل، لا بالقانون العلماني المستورد من أعداء الأمة. . بدأت عملية التغيير إذاً وبدأت نقلة الوعي ببداية الحوار الذاتي والحوار مع الشارع السياسي العام، وبدأ هذا التغيير يتطور ويتصاعد من خلال المشاريع الدولية المضادة للإسلام في إيران. . . فهذهِ المشاريع على رغم قساوتها وتكتل الجهد الدولي والإقليمي المعادي فيها، كان لها إفرازٌ توعوي هام. . يساهم في إكمال نقلة الوعي المطلوبة ويتحول إلى مصداق ينقل ما أسميناه بالحوار الذاتي في الشارع الإسلامي إلى درجة اليقين بخطورة ما بات يشكله النظام السياسي الإسلامي الجديد في إيران من مخاطر على مصالح الدول الكبرى التي كانت تقود المشاريع العدائية ضد طهران.

إن الساحة الإسلامية إهتزت برمتها لحدث الثورة وخضعت كلها تقريباً للمنطق التحولي المذكور ولو بمستويات مختلفة ـ وإن أحداثاً ضخمة إنفجرت هنا وهناك في العالم الإسلامي كتجسيد لهذا التحول أو كدرجة نضج إنتهى إليه الشارع الإسلامي بصورة طبيعية. . . وبالتأكيد إن هذه الأحداث تحولت إلى مصاديق لأقوال قائد الثورة الإسلامية الراحل التي قيلت قبل حصول هذهِ الأحداث والتي سجلت سبقاً في تحليل الساحة بما يرسم صورة للمستقبل السياسي والفكري للمنطقة.

فالإمام الراحل رضوان الله عليه كان يقول في نداء له بمناسبة التهديدات العسكرية والإقتصادية الأمريكية الموجهة ضد إيران بتاريخ ٢١/ ١١/ ١٩٧٩ م، يقول: «يجب على هؤلاء أن يغيروا أنفسهم. . . يجب على رؤساء الدول الذين يعاملون شعوبهم والمستضعفين هذه المعاملة، أن يغيروا أفكارهم، فلا أحد يرضخ لهذه الأفكار في العالم، ولقد مضى ذلك العهد الذي كانت الشعوب فيه نياماً: نعم: لقد تفتحت العيون والآذان اليوم»

لقد فتحت الثورة الإسلامية العيون والآذان كما كان الإمام «رض» يقول:

وقضت في داخل الشعوب على أسباب الخضوع النفسي النابعة من الإحساس بالهزيمة النفسية أمام عملقة الغرب الإقتصادية والعسكرية والصناعية والسياسية. . . لقد قضت الثورة على هذهِ الأسباب، فلا بد للشعوب أن تنطلق، ولا بد للأمة أن تعي ما يدور حولها من صور مواجهة معبرة بين الإسلام الصاعد من جهة وبين القوى الكبرى التي لا تريد للنظام السياسي العالمي الحالي أن ينهار من جهة أخرى.

وفي نص آخر، وفي الذكرى الأولى لإنتصار الثورة ١١ شباط ١٩٨٠ م كان الإمام «رض» يقول:

«إن ثورتنا الإسلامية ستنبعث في كل مكان لأنها تلبية كل نداء حي، حتى يدوي صوت (لا إلّه إلا الله محمد رسول الله) في جميع الآفاق، نحن حاضرون في أية بقعة من بقاع الأرض يتصاعد فيها لهب الجهاد بوجه المستكبرين» ويواصل الإمام «رض» حديثه قائلاً:

«إعلموا إن عالمنا اليوم هو عالم المستضعفين الذين سيكون النصر حليفهم إن عاجلاً أو آجلاً، لأنهم وارثوا الأرض، وخلفاء الله عليها، وبهذهِ المناسبة أعلن مرة أخرى مساندتي لكل الحركات والجهات والمجموعات التي تناضل من أجل الخلاص والتحرر من مخالب القوى المتجبرة اليسارية أو اليمينية.

كما أكرر دعمي لفلسطين الشجاعة ولبنان، وأستنكر بقوة الإحتلال الشرس لأفغانستان المسلمة على أيدي المحتلين المعتدين السوفيات، ولي وطيد الأمل في أن ينتصر الشعب الأفغاني المسلم الأصيل قريباً ويحصل على إستقلالهِ الحقيقي، محرراً نفسه من أسر هؤلاء الذين يسمون أنفسهم ـ كذباً حماة الطبقة العاملة».

لقد واصل الإمام «رض» خطابه الثوري، الخطاب الذي واكب الحدث التحولي السياسي والفكري على الساحتين الإسلامية والعالمية، وأثبت متانة الأسس أو الأرضية الاستشرافية التي يقوم عليها، سواء على صعيد بعض المفردات الصراعية أو على صعيد التحول في الثوابت الكبرى لهذا الصراع، كما

تحققت في بداية عقد التسعينات بصورة جلية، فعلى الصعيد الأول كان الإمام «رض» يقول في ٩/ جمادي الثاني/ ١٤٠٠هـ: على كارتر «أن يقطع أمله من رئاسة الجمهورية، وقد أثبت كارتر بعمله هذا إنه فقد قوة التفكير وإنه عاجز عن إدارة بلد كبير كأميركا».

وفي ١٣/ جمادي الأولى/ ١٤٠٠ هـ كان الإمام «رض» يقول في إطار مفردة أخرى: «ونأمل أن تنتهي بسرعة إبادة عملاء كالسادات وصدام حسين».

أما فيما يخص المنحى الصراعي العام كان الإمام «رض» وفي وصيته للمشرف العام على الحجاج الإيرانيين في ٣/شعبان/ ١٤٠١ هـ ـ ق يقول: «إنهضوا وتعاضدوا متحدين ودافعوا عن الإسلام وعن مقدراتكم ولا تهابوا ضجيج الطواغيت فهذا القرن هو ـ بإذن الله القادر ـ قرن غلبة المستضعفين على المستكبرين وغلبة الحق على الباطل».

ويقول الإمام «رض» في وصيته ما يلي: «شعوب العالم المحرومة قد إستيقظت في هذا العصر ولن يمر وقت طويل حتى تثمر هذهِ اليقظة إنتفاضات ونهضات وثورات تنقذها من تسلط الظلمة المستكبرين».

وهذا النص دوّنه الإمام قبل ست سنوات أو أكثر قليلاً من رحيله إلى الملكوت الأعلى، ومنذ ذلك التاريخ وحتى الآن حصلت في الساحة الإسلامية كما قلنا أكثر من هزة وإنتفاضة وتمرد.

آنذاك لم يكن لبنان قد إنطلق نحو تجربته الرائدة في المقاومة، إلا أن هذه الإنطلاقة حصلت لتسجل نقطة سبق في ترجمة الحقيقة التي إنطوى عليها تنبؤ الإمام الراحل «رض» فتحولت هذه الإنطلاقة إلى واقعة تاريخية مدوية في تاريخ المنطقة. . واقعة إمتد أثرها إلى التاريخ والجغرافيا والأمن ونظريات الصراع التقليدية وإلى ما يسمونه بالخطوط الحمر، إمتد إلى كل العالم فدّون في أرشيفه رحيلاً مذلاً للقوات الأميركية والأوروبية من لبنان، وإنتكاسة مرعبة لقوات الإحتلال الصهيوني وعجرفته وأسطورته الوهمية، ولا زال هذا الأثر فاعلاً بقوة

في جنوب لبنان، رغم تكالب العالم على تجربة هذا الجنوب ورغم سعي كل القوى العدوة للإطاحة بها.

وبعد لبنان كانت الساحة المصرية مسرحاً لدورات عنيفة من التعبير السياسي والإجتماعي وحتى الفدائي لرفض شكل ومحتوى النظام السياسي الذي يتحكم بها، وهو نظام إرتضى حالة من حالات الصلح الذليل مع الصهيونية وحالة من حالات التبعية المؤلمة للعالم الغربي، مستغلاً بذلك لحظةً من لحظات التراجع والغفلة التي كانت تلف المنطقة والساحة المصرية بوجه خاص، ولكن تراكم الوعي الذي أوجدته الثورة الإسلامية في إيران في العقل الجماعي العام، وفي الشارع المصري غيّر صورة الصراع القائمة في هذه الساحة وفي دوائر إرتباطاتها الخارجية، فتحول الشعب المصري وبفعل إضافات الوعي المذكورة إلى رقم صعب من أرقام هذا الصراع، وإلى محدد من محددات شكله الإجمالية، وإلى فاعل مصيري في لحظات الإنحراف الخطيرة للسياسة المصرية الرسمية، وبذلك تحولت الساحة المصرية إلى مصداق ثانٍ بعد لبنان من مصاديق النص التنبُّىء الوارد في وصية الإمام «رض» المباركة، ومثلما كانت تجربة لبنان واضحة الإرتباط بالعامل الإسلامي حتى بات هذا العامل هو الأساسي في تحديد صوتها، فلقد كانت إنتفاضات الساحة المصرية غير بعيدة عن الإسلام الصاعد في قيادة الحياة.

وبعد مصر كانت هنالك نقاط عديدة تعبر عن نقلة الوعي المترجمة على شكل إنتفاضات متفاوتة القوة والإداء والأثر، ففي السودان حصل شكل من أشكال هذا التعبير، وفي المغرب وفي تونس، وحتى في بعض دول الخليج حصلت أشكال أخرى، إلا أن الشكل الصارخ والمدوي والمتواصل والمعبر أكثر من غيره كان ولا زال يتمثل في فلسطين الثائرة فمنذ أكثر من سنتين والشعب الفلسطيني يخوض إنتفاضة هي الأولى من نوعها من حيث الهوية والشمولية والقوة ومن حيث جوانبها التأثيرية على الحياة الصهيونية العامة ومن حيث دورها الكاشف لماهية الصراع على طرفه العربي الرسمي، وكذلك فيما يخص أثرها على الساحة العالمية.

كانت الإنتفاضة الفلسطينية قد مثّلت أقوى مصاديق تنبؤات الإمام حول حركة الساحة الإسلامية المستقبلية وكان الفكر الإسلامي أيضاً هو الدليل والقائد في واقعة الإنتفاضة.

وكان الإمام «رض» يقول بشأن هذه الإنتفاضة في ندائه إلى حجاج بيت الله الحرام في العام ١٩٨٨ م يقول:

«نعم، الفلسطيني الذي أضل طريقه وجد نفسه عن طريق براءتنا ورأينا كيف أن أسوار الحصار الفولاذية تهاوت في هذه المقارعة، وكيف إنتصر الدم على السيف والإيمان على الكفر والصرخة على الرصاصة.

ورأينا كيف تلاشت أحلام بني إسرائيل في التسلط على ما بين النيل والفرات ومرة أخرى إتقد الكوكب الدري لفلسطين من شجرتنا المباركة اللاشرقية واللاغربية».

كما كان الإمام «رض» يقول في بيان حول تعيين المشرف العام على الحجاج الإيرانيين ٣/ شعبان/ ١٤٠١ هـ.

«ألم يحن الوقت لأن يرفع الشعب الفلسطيني المكافح الغيور صوته بإدانة ما يرتكبه أدعياء النضال ضد إسرائيل من ألاعيب سياسية، ويخرقوا بأسلحتهم النارية صدر إسرائيل عدوة الإسلام والمسلمين».

ويقول في نداءٍ له بمناسبة ذكرى الإستفتاء على الجمهورية الإسلامية في ١/ ٤/ ١٩٨٣ م ما يلي: «كما إننا نأمل من المظلومين في الأراضي المحتلة أن يستمروا بمظاهراتهم وأعمالهم المناهضة للصهيونية حتى يحققوا الإنتصار».

وتوضح هذه النصوص أكثر من غيرها الأساس الإستشرافي أو التحليلي لدى الإمام «رض». وهو أساس الثورة الإسلامية في إيران كمكون لحالة الوعي المطلوبة وكمؤثر في الساحة الإسلامية وكمحرض على الثورة، على أية حال، لقد تحولت الإنتفاضة بدورها إلى أصل صانع لحركات وتمردات أخرى، أصل لا تخفى آثاره على الساحة الأردنية التي شهدت كذلك تطوراً تمردياً ذا دلالات

بالغة الأهمية ولا تخفى آثاره على نقاط أخرى مجاورة لفلسطين وبعيدة عنها، وخلاصة الكلام هو أن مسلسل الإنتفاضات وصل في مرحلة من مراحله إلى الجزائر، وهو حتماً سيصل إلى قلب عواصم عربية وإسلامية أخرى مكبلة بقيود الإرهاب، فأسباب التحرك والإنتفاضة لازالت باقية، إن لم تكن هي الآن أكثر من أي وقت مضى، وحركة اليقظة والوعي سائرة في طريقها التصاعدي في العقل الإسلامي العام، والأحداث التي شهدتها السنوات القليلة الماضية. أثبتت أن العالم الإمبريالي أظهر من البشاعة والقساوة ضد العالم الإسلامي ونقاط الإنفجار فيه، ما يندى له جبين الإنسانية، الأمر الذي حوَّل هذه البشاعة إلى سبب من أسباب التحرك والتمرد والثورة على أنظمة الإرهاب القائمة.

قبل ست سنوات وهو الوقت الذي كتبت فيه الوصية المباركة، تنبأ الإمام الراحل بكل تلك الإنتفاضات، وما يقال هنا هو أن هذا التنبؤ المفتوح لازال في بداية إثبات مصاديقه. تدلك على ذلك تعابير وصور الصحوة الإسلامية التي عكستها بعض الأحداث الأخيرة سواء تلك المتعلقة منها بكتاب المرتد سليمان رشدي صاحب كتاب «الآيات الشيطانية» وما أظهرته من صور تضامنية ووحدوية بوجه المؤامرة التي يندرج هذا الكتاب في إطارها، أو ما إرتبط منها بأحداث أذربيجان وكشمير ومناطق إسلامية أخرى.

إن المجال الثاني الذي تحركت عليه رؤية الإمام التحليلية والإستشرافية هو العالم الشيوعي بزعامة موسكو كما قُلنا.

فلقد كان هنالك ما يشبه التلازم الزمني بين صعود الإسلام الثوري وإندحار الشيوعية في الثمانينات، وبين ولادة هذهِ الأخيرة وصعودها من جهة وإنهيار الكيان السياسي الاسلامي من جهة ثانية في العشرينات... يقول الإمام «رض» في وصيته في هذا الإطار..

«وصيتي إلى اليساريين أمثال الشيوعيين، وفدائيي خلق، وسائر الفئات النازعة لليسار، هي أنكم بأي مبرر أقنعتم أنفسكم بالنزوح إلى تيار هزم عالمياً اليوم - دون التحقيق السليم».

فإذا ما عرفنا بأن وصية الإمام المباركة تلك كانت قد كتبت قبل أكثر من ست سنوات، فعند ذلك يكون ما قاله الإمام في هذا الإطار ينطوي على أهمية خاصة، ففي ذلك التاريخ لم يكن أحد يقدر بأن الفكر الشيوعي سيهزم إلى ما هو حاصل الآن، وعلى يد قادة الشيوعية العالمية.

فليس خافياً إن التحولات التي طرأت في عهد «غورباتشوف» كانت في معنى من معانيها تمثل إعترافاً بفشل الفكرة الشيوعية في معالجة المعضلات الكبرى التي يواجهها الإتحاد السوفياتي والعالم الشيوعي بأسره، فهذا التحول الذي أخذ عنوان الإنفتاح أو إعادة البناء جاء على حساب المبادىء الثابتة في إطار الفكرة الشيوعية العامة، وصادر هذه المبادىء وتجاوزها أو أنه كيفها بما ينسجم مع الحاجة ومع الظرف القائم. وإذا كان الحال قبل ست سنوات هو أن المحلل السياسي كان بإمكانه أن يرصد مؤشرات تراجع الشيوعية خارج الإتحاد السوفياتي، فإنه لا يستطيع أن يذهب إلى القول بأن هذه الشيوعية قد وصلت إلى مرحلة الهزيمة النهائية كتيار فكري، فهي على أقل تقدير، كانت تجد من يتبناها بقوة داخل الإتحاد السوفياتي ويدافع عنها بإستماتة ويصر على أنها لا زالت تمثل «خلاص» الإنسانية وحلمها البعيد.

وحتى من كان يعتقد بأن الشيوعية قد وصلت إلى حد الهزيمة فهو قطعاً لا يجرؤ على التصريح بذلك وسط ضجيج الشعار الشيوعي الذي كان سائداً قبل ست سنوات، فحينذاك كان التعاطي بهذا الشعار وتصوير الإتحاد السوفياتي على أنه مركز الثورة العالمية لازال في درجة من درجات التعاطي الشديدة، كما إن السياسة السوفياتية لم تكن قد خطت خطوات تحولية كبيرة كالتي حصلت خلال السنوات الثلاث الماضية، وكل شيء كان يتحرك في إطاره التاريخي التقليدي في المواقف السوفياتية، وإذا كانت هنالك من قناعة لدى القيادة السوفياتية بضرورة إحداث التحول في مواقفها السياسية فهي لم تكشف عن هذه النوايا، لأن الظروف آنذاك ما كانت تسمح بذلك، ولكن مع هذا فإن الإمام الخميني ـ قدس الله سره الشريف ـ كان يقول دون تردد وقبل ست سنوات بأن الشيوعية هزمت كتيار فكري، وكأنه كان يتنبأ بما حصل خلال هذه السنوات الست، من قرارات

سوفيتية كرست التراجع الشيوعي وعكست المأزق الفكري والهزيمة الفكرية التي أصيبت بها الشيوعية.

إن الإمام «رض» بذكائهِ الحاد وعقله الوقاد وبصيرته النافذة كان يقرأ مستجدات الخريطة الفكرية للعالم، وكان يقول ويثبت أراءه بجرأة وثقة عالية، ولعل ما آلت إليه الفكرة الشيوعية اليوم يؤكد كيف كانت عقلية الإمام تقدّر الأمور تقديراً بصيراً وحكيماً.

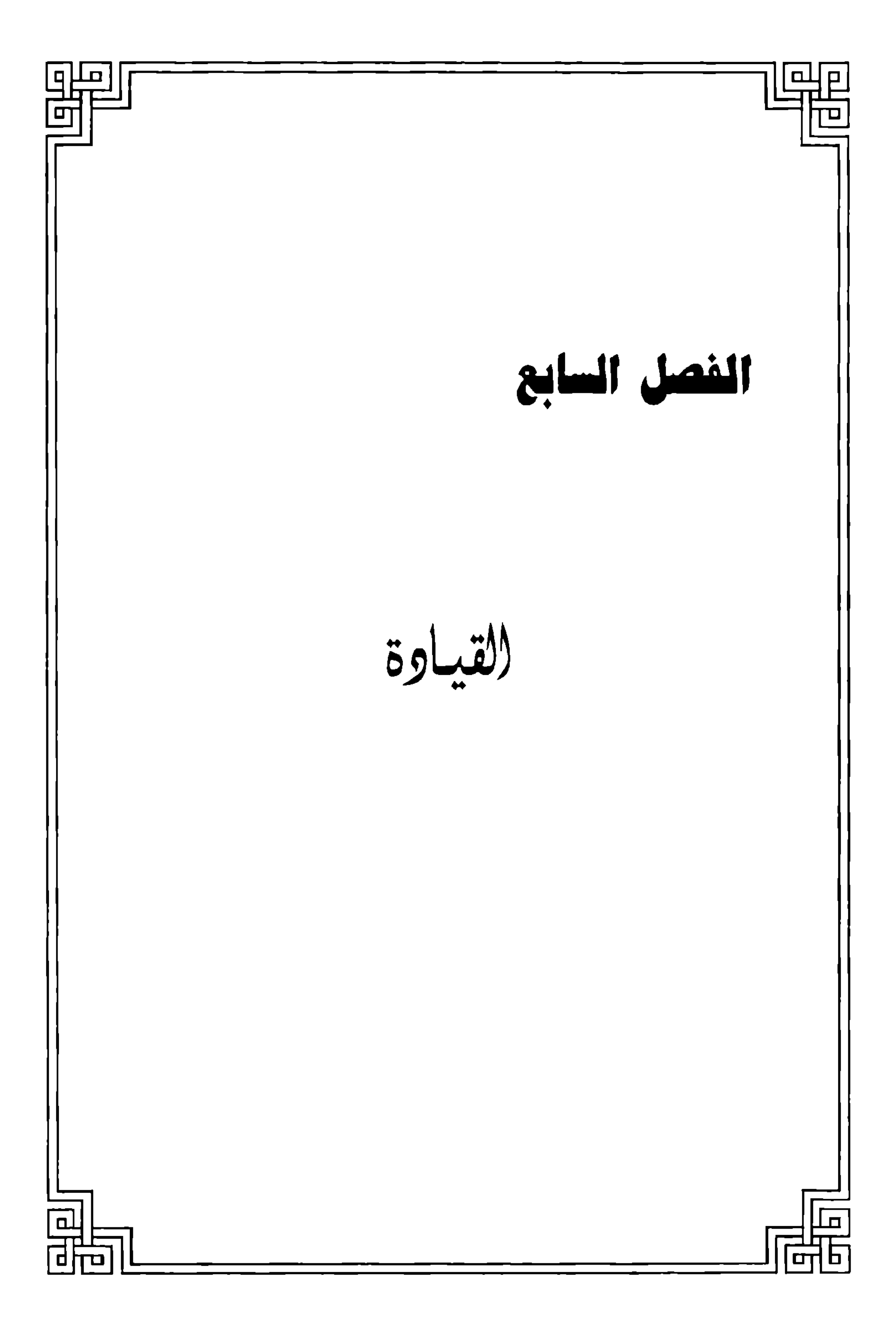
فالشيوعية إذا كانت قد أخذت جزءاً من «خصوصيتها الفكرية» من الشعارات الثورية التي رفعتها في مرحلة من المراحل، ومن «تحالفها» مع الشعوب والفلاحين والكادحين وحركات التحرر العالمية، فهي اليوم تبادر المبادرة تلو الأخرى لكي تُبدّل هذا التحالف مع القوى الكبرى لاسيما الولايات المتحدة الأميركية، وتسعى إلى عالم محكوم بالتفاهم مع واشنطن، مع علمها بماهية السياسة الأميركية التي إزدادت ظلما وتعديا على الدول الصغرى، والتي مارست ولازالت تمارس الإرهاب الدولي بطريقة بشعة ووحشية، وإذا كان من معنى لهذا التحالف الشيوعي مع الولايات المتحدة فهو معنى يترجم إلى حد بعيد إخفاق الفكرة الشيوعية وإنهزامها لاسيما في الجانب المرتبط بمقارعة الإمبريالية، فأي إمبريالية تلك التي تقارعها اليوم موسكو؟ وأي شعوب تلك التي تتحالف معها وتدافع عنها وهي تفتح أبواب الوفاق والتفاهم مع واشنطن كلما أغلقتها هذه الأخيرة؟.

أية ثورية «لرفاق» المنطقة الشيوعيين بقيت بعد تحولات السياسة السوفياتية خلال السنوات الثلاث الماضية؟ وأي رصيد يمكن أن يتاجروا به في البازار الثوري؟.

الثورية باتت مفردة من مفردات الماضي.. مفردة إستطاعت أن تخدع مئات الالاف من الناس وأن تستنزفهم بصورة مرعبة، والشيوعية أصبحت في متاحف التاريخ كما قالها الإمام الخميني ـ رضوان الله عليه ـ وهو يرصد الموقف الفكري العالمي والتحولات التي شهدتها الساحة الفكرية الدولية.

ففي رسالته الشهيرة التي بعث بها إلى الزعيم السوفياتي «ميخائيل غورباتشوف»، كان الإمام يقول: «لقد إتضح للجميع أن البحث عن الشيوعية ينبغي أن يتوجه من الآن فصاعداً إلى متاحف التاريخ السياسي العالمي ذلك لأن الماركسية لا تلبي شيئاً من إحتياجات الإنسان الحقيقية، فهي مذهب مادي ومحال أن تستطيع المادية إنقاذ البشرية من الأزمة التي خلقها فقدان الإيمان بالمعنويات الذي يمثل العلة الرئيسية لما تعانيه المجتمعات البشرية شرقية كانت أو غربية».

وبالطبع إن الإمام عندما كان يسبق الجميع في بلورة ما يتعلق بحركة الفكرة الشيوعية، فإنه سبقهم أيضاً وبلغة أقرب إلى القطعية بما مفاده إن الفكر الصاعد والذي سيترجم صعوده على شكل إنتفاضات تعم المنطقة هو الفكر الإسلامي كما قُلنا.



الفصل السابع

القيادة

المحاسبة والمراقبة

المحاسبة الذاتية:

«وصيتي إلى الوزراء والمسؤولين في العصر الحاضر والعصور اللاحقة، هي إنكم جميعاً بحاجة إلى دعم الشعب فبدعم الشعب خاصة فئاته المحرومة تحقق الإنتصار وقطعت أيدي الظلم الملكي من البلد وثرواته، ولو حرمتم يوماً هذا الدعم فستعزلون ويحل محلكم ظلمة من أمثال النظام «الشاهنشاهي» الظالم، هذا فضلا عن إن أرزاقكم وأرزاق العاملين في الوزراة تأتي من ميزانية هي من أموال الشعب».

المقطع الأخير من هذا النص من وصية الإمام الخميني ـ رضي الله عنه ـ هو مقطع ذو دلالات بالغة في مجال السلوك القيادي، فهذا السلوك يجب أن يخضع إلى أدق الأحكام الشرعية على الدوام ويجب أن يكون معبراً عن واقع وجوهر هذه الأحكام وإمتيازاتها وإنفرادها بصفات أخلاقية وإنسانية، في عالم يغص بتنظيرات الإستغلال الفكرية، فالقيادة والوزارة لاتعطي القائد والوزير إمتيازاً على الآخرين في مستوى معيشته، بل هي تفرض عليه مسؤوليات إضافية وتضعه أقرب إلى مبدأ المحاسبة الذاتية أو الخارجية، المحاسبة حتى في إطار المرتب الشهري الذي يتقاضاه الوزير من خزينة الدولة العائدة للشعب، فهذا المرتب قد يتحول إلى مصدر رزق حرام إذا ما كان هنالك إخلال في أداء الواجب الوظيفي. . . هكذا يوصي الإمام «رض» العاملين في الوزارات، سواء كانوا وزراء أو أقل درجة وظيفية منهم، يوصيهم بأن لا يتقاعسوا عن ملاحقة قضايا الشعب لكي لا يكون هنالك إشكال في حكم أرزاقهم، وهذه الوصية بقدر ما

تعكس واقعا عاشته قيادة الثورة الإسلامية في إيران منذ إنطلاقها وحتى الآن، فهي تمثل أيضاً مقياساً ثابتاً لسلامة القيادة وشروط الأمانة الذاتية التي يجب أن تتوفر لها، فالقائد إذا ما تجاوز حدود هذه العلاقة مع أموال الشعب، فإنه سيفقد ثقة هذا الشعب به تدريجياً وستضيع الثورة بأسرها، فضياع الثورة هو الآخر مربوط بثقة الشعب بالقيادة، فأي قيادة لا تحظى بوقوف جماهيرها وراءها وأي قيادة تقع ضحية الغرور في يوم من الأيام وتتهاون في رؤيتها إلى دور الشعب في الحفاظ على النظام الإسلامي تكون في الواقع قد ساهمت في إسقاط هذا النظام وإرجاع أنظمة الفردية والسلطوية، إن الإمام «رض» يرسم ويحدد من خلال ما تقدم ثابتة من ثوابت الرؤية والتقييم للقيادة الإسلامية ثابتة تضعها أمام أدق المسؤوليات وتحاسبها على أصغر الأمور، وتحرِّك العناصر الوجدانية والفطرية فيها، ويستفاد من ذلك في عرض الإسلام الحاكم كنظام وكقيادة. وكمسؤولية أمام الآخرين، إذ أن الحكم على النظام الإسلامي يجب أن لا يقوم على المزاجية في رؤية الأمور أو على التمني في التعاطي معها، كأن يصار إلى الحكم عليه من خلال المسألة الإقتصادية التي قد يكون النظام الإسلامي أخفق مرحلياً في إيجاد العلاج المناسب لبعض مظاهرها وأعراضها، فالرؤية هنا يجب أن تكون رؤية متكاملة تنظر إلى المسألة الإقتصادية من خلال ترابطها مع المسائل الأخرى الكبيرة للبلد ومع الجو الإقتصادي الدولي الذي يتداخل معها ويؤثر عليها.

إن رؤية التقييم يجب أن تقام على عناصر الأمانة في تجسيد الرسالة الإسلامية، ويجب أن ترفض التبريرية التي تنتج على الفور ألقاباً وشهادات فخرية ومخصصات وإمتيازات وقصوراً فخمة ضخمة ومنتجعات، كما هو الحال مع أغلب قيادات الأنظمة الوضعية القائمة، سواء كانت تلك التي ترفع الشعار الإشتراكي أو الرأسمالي أو «الإشتراكية الخليطة» أو المطعمة... الإسلام يرفض هذه التبريرية ويضع الضوابط الشرعية لها، ويعتبرها إخلالا في القيادة وإبتعاداً عن المسؤولية، ومظهراً شاذاً من مظاهر خيانة الأمانة... فالثراء والثراء «الفاحش» إن لم تكن له أسباب منطقية، وإذا لم تعرف مصادره وقنواته ومداخيله المالية، وإذا لم يتأكد النظام الإسلامي بأنها مداخيل وقنوات ومصادر مشروعة،

فإنه ظاهرة خطيرة يجب أن تخضع إلى ضوابط التشريع الإسلامي في الشك والمحاسبة والتدقيق. . . إن هذه الحالة جسّدها النظام الإسلامي بلا شك منذ الشهور الأولى لقيامه في إيران، عندما أخضع قانونياً الوزير أو القائد إلى ضوابط محاسبة لمصادر ثروته قبل وبعد تسلمه القيادة والوزارة، ويجب أن يكون هنالك تطابق رقمي مالي في الحدود المعقولة بين الفترة الزمنية التي سبقت إستلامه المنصب القيادي وبين الفترة الزمنية لتسلّم هذا المنصب.

فأي علامة فارقة أو فوارق مالية غير معقولة أو مظهر من مظاهر الإثراء اللامشروع، تعطي النظام الإسلامي حرية التدخل والتأكد. والإمام الخميني الكبير ـ قدس الله نفسه الزكية ـ يحاول أن يكون أكثر دقة حتى من القوانين المسنة في هذا الإطار. . . إنه يريد أن يحرك الوجدانية في شخصية القائد إلى أبعد حدود الحركة ويريد أن يوجد عوامل المحاسبة الذاتية القيادية حتى إلى ما يصل إلى راتبه الشهري «القانوني».

فالقانون في الإسلام ليس شكلي المحتوى، إنما هو معنى، ولذا فإن الحضور الروتيني للموظف في دائرته الرسمية لا يبرر وحده «تحليل» رزقه وهو مرتبه الشهري. . إن ذلك يحتاج إلى المعنى الحقيقي لإداء الواجب الوظيفي، ويحاول الإمام «رض» أن يجعل هذا المعنى هو مقياس الحلال والحرام لدى القيادة الإسلامية ولدى الكادر الوظيفي للبلاد، لكي لا يتسلل الإنحراف تدريجياً إلى مؤسسات البلاد، ولكي لا ينتهي الأمر إلى ما لا يقره الشارع الإسلامي، ولكي يدرك ويميز الإسلام الحقيقي عن الإسلام الآخر بكل صيغة المدعاة، لاسيما الصيغة السعودية التي تجعل من خزينة الدولة ملكاً خاصاً للملك وأسرته ونسائه، والتي تبيح له أن يحيا حياة الترف «الخرافي» في حين إن قسماً من أبناء الحجاز المسحوقين يسكنون أكواخ الصفيح، وفي حين إن هنالك مجاعة وأوضاعاً إقتصادية مأساوية مهددة تطل بقرنها الكئيب على أكثر من نقطة أفريقية من نقاط العالم الإسلامي. . . فأي إسلام يا ترى هذا الذي يبيح حياة الأسرة السعودية بقصورها المقامة في شتى أرجاء العالم وفيلاتها فضلا عن حانات القمار والفجور؟.

إن الإسلام الأصيل، هو الإسلام الذي يجعل من القائد كأي فرد عادي من أفراد الأمة في شؤونه الحياتية والمعيشية، لا بل إنه يضاعف من المسؤولية عليه، ويردعه عن التمتع في حقوقه قبل أن يطمئن إلى أن الآخرين قد نالوا حقوقهم «فلعل في الحجاز أو اليمامة» من لا عهد له بشبع. . . هذا هو معنى القيادة في الإسلام. . قيادة ذات مواصفات خاصة، كقائد بدون إمتيازات أو تفضيل حياتي له على الآخرين. . قيادة تنفرد بقيم عليا، كقائد يهيمن على ذاته، ويعمل بالضمير والوجدان والأمانة.

وباختصار، فإن الأمام «رض» وفي بيان تاريخي له لعلماء الدين (كيهان العربي العدد ١٦٠٦) يقول في خصائص القيادة ما يلي:

«فالمجتهد الديني ينبغي أن يكون محيطا بالقضايا المعاصرة ولا يقول للجماهير والشباب وحتى العامة أن يقول مرجعها الديني: إن ليس لي رأي في القضايا السياسية. . .

إن من خصائص المجتهد الجامع هي المعرفة بأساليب التعامل مع مكائد الثقافة المسيطرة على العالم وتظليلاتها وإمتلاك الوعي والبصيرة في الشؤون الإقتصادية والإحاطة بكيفية التعامل مع النظام الإقتصادي المسيطر على العالم، ومعرفة أنماط السياسة حتى الساسة ومعادلاتهم معرفة كل ذلك وإدراك نقاط القوة والضعف في قطبي الرأسمالية والشيوعية، فالمجتهد ينبغي أن يتحلى بالفطنة والذكاء والفراسة اللازمة لقيادة المجتمع الإسلامي الكبير بل وحتى المجتمعات غير الإسلامية، وإضافة إلى الإخلاص والتقوى والزهد وهي الخصائص التي تستلزمها طبيعة المجتهد الديني، يجب أن يكون المجتهد الديني قادراً على الإدارة والتخطيط، فالحكم في نظره هو الفلسفة العلمية للفقه الإسلامي كله وفي مختلف المجالات الحياتية للبشر، الحكم هو التجسيد العملي لاقتدار الفقه الإسلامي على معالجة كافة المعضلات الإجتماعية والسياسية والعسكرية والثقافية، الفقه النموذجي هو النهج العملي الكامل القادر على إدارة المجتمع والفرد من المهد إلى اللحد، فالهدف الأساسي هو كيف

نستطيع أن نطبق مبادىء الفقه المتينة عملياً في سلوكيات الفرد والمجتمع، وكيف نحل بها المعضلات ـ ».

ولكن تبقى كل هذه الشروط إن لم تتسع دائرتها لشرط المحاسبة الذاتية غير كافية في نظر الإمام(قدس) حيث يقول«رض» في هذا الإطار وفي خطابٍ له مع أعضاء مجلس الشورى الإسلامي وقيادات الحرس الثوري في ١١/ ذي القعدة/ ١٤٠٢ هـ يقول: ـ «إن الإنسان يجب أن يراقب نفسه دائماً، فإن كان حارساً من حرس الثورة يجب أن يرى ألا تكون اليد الأمارة خافية في نفسه، أيها السفراء والقائمون بالأعمال في الخارج، يا منتسبي الحرس الثوري وسائر القوات المسلحة العسكرية والمحلية، أيها النواب في المجلس، أيها العاملون في القضاء راقبو أنفسكم وأعلموا بأن القوى الكبرى قد جعلت لكل واحد منكم حساباً خاصاً».

منطق الفرض ومنطق الحوار:

«وأوصي هنا أولئك الذين يعارضون الجمهورية الإسلامية لدوافع شتى، والشبان فتية وفتيات ممن استغلهم المنافقون والمنحرفون والإنتهازيون والنفعيون، أوصيهم بأن يُقيّموا الأمور بحيادية وفكر حر، أوصيكم بأن تناقشوا بدقة وبعيداً عن الأهواء النفسية وغايات الذين يريدون إسقاط الجمهورية الإسلامية، وأن تتأملوا في سلوكياتهم تجاه المحرومين، وتلاحظوا هوية المجموعات والحكومات التي كانت لازالت تدعمهم، وهوية المجاميع والشخصيات التي تزايلت إليهم وباتت تدعمهم بالداخل وأن تفكروا بدقة وبعيداً عن أهواء النفس في أخلاقياتهم الذاتية وسلوكياتهم تجاه أتباعهم وتناقضات مواقفهم تجاه شتى الوقائع».

هـذا النـص هـو مقطـع مـن وصيـة الإمـام الخمينـي ـ قـدس الله سـره الشريف ـ المباركة، وهو نص تعكس قراءته بتمعن وعمق كبر الروح الأبوية الكريمة التي كان الإمام يتعاطى بها حتى مع أعدائه وأعداء الإسلام، فلعلنا لسنا بحاجة هنا إلى العودة إلى أرشيف ممارسات أعداء الثورة، فهي ممارسات

وصلت حدود الاشمئزاز، من التعدي والتخريب والقتل والإرهاب والإغتيال والتحالف مع أعداء البلاد الخارجيين، والتوسل بكل السبل من أجل الإطاحة بالثورة. ولكن رغم وضوح هذه الممارسات وأثرها، ما كان يرى فيها الإمام ـ رضوان الله عليه ـ سبباً مانعاً عن العمل بمبدأ التمييز بين المجاميع العدوة للثورة، فبعض الشباب المنطوين تحت هذه المجاميع كانت قد تحولت إلى ضحية بحكم أساليب الإغراء والمخادعة والإستغلال للرؤوس المنافقة والنفعية التي كانت تستغل براءتهم و توجههم في أعمال عدائية للثورة، فعظمة الإمام ورحمته ما كانت تسمح له بأن يساوي هؤلاء الضحايا المخدوعين بالرموز المخططة لتوظيفهم ضد الثورة، وما كانت تسمح له بأن يرى هؤلاء قد خسروا حياتهم وكرامتهم في خدمة مشاريع دولية منحرفة، بل إنه كان يرى ضرورة مخاطبتهم بلسان حيادي حريص حتى بعد رحيله إلى الملكوت الأعلى.

وكان بذلك يرسم لنا بعداً تعاملياً قائماً على الدعوة إلى التحليل وحشد كل أساليب المقارنة ومفردات الموقف. وبالطبع لا نبالغ إذا ما قلنا بأن أحداً من قادة العالم والتاريخ لم يعمل بمثل هذا المبدأ، لا بل لم يؤمن به حتى على الصعيد النظري. فالعالم اليوم يغص بتطبيقات المنطق الفرضي الموغل بالبشاعة والقوة والعنف والغدر والشماتة، والعالم اليوم لا يعرف إلا منطق القوة مع الجميع ـ الأصدقاء والأعداء ـ والعالم اليوم يرفض كلمة الحوار الإنسانية و يرفض مبدأ النصيحة، وهو إذا ما عمل بهذا المبدأ، لا يكون فعله إلا لمصالح ذاتية ولا يعبر عن موقف أخلاقي فكري، والدافع إليه هو الضعف أو الإستمالة... وليس ما تمليه مدرسة الإسلام الفكرية من قيم ومثل وسلوكيات تبقى غريبة على ممارسة هذا العالم الدموية السوداء.

إنه مبدأ الدعوة إلى التحليل، تحليل الأحداث والوقائع والإرتباطات وطبيعة الصراع القائم ولكن بشرط الإبتعاد عن هوى النفس، وتحكيم الوجدان، والإمتثال إلى الضمير، ونبذ إسلوب الإصرار على ممارسة الخطأ والإنحراف.

إنه مبدأ الدعوة إلى التفحص والبحث والتنقيب والدراسة المتأنية، والبعد عن الأحكام المتشرعة، والشمولية في النظرة، والتدقيق في الأساسيات، ومع

من؟ مع خصم مارس عدائية هائلة إزاء الثورة، لكن هذه العدائية جاءت بسبب الإنسياق وراء كيد المنافقين، وليست هي أصل النفاق.

إن نظرة معمقة إلى هذا النص في وصية الإمام المباركة، يمكن أن تؤدي إلى ما مفاده بأن الإمام ـ رضوان الله عليه ـ كان يرسم لنا مبادىء الإسلام الأصيلة في شؤون الحياة العامة، ويحدد لنا المسالك وطرق التعامل ومعالجة المواقف في إطارها، إذ تبقى الدعوة هي الأساس في الإسلام، ويبقى الحوار هو المنطلق مع أولئك المخدوعين أو قليلي الوعي أو الذين غرتهم حبائل النفاق والنفعية، فإزاء هكذا حالات يجب الإبتعاد عن العمل بالمنطق الفرضي الذي يصادر متطلبات الذوق والعدالة والإنصاف، والذي يخالف منطق الدعوة الإلهي في التعامل مع بني البشر، فالقائد الإسلامي الثوري عليه، كما يرى الإمام، أن يبتكر أسلوب الدعوة ومادتها ومفرداتها، وأن يقرب الحالة القائمة من ذهنية هؤلاء المخدوعين قدر الإمكان، وفي هذا المجال يرسم لنا الإمام نموذجاً رائعاً لهذه المسؤولية في إنتخاب أسلوب الدعوة. ومادتها، فهو نموذج يعتمد المقارنة في الهوية وفي العلاقات الخارجية وفي المواقف السياسية وفي حالات التناقض والتلفيق التي تجر إليها هذه المواقف وفي الأخلاقيات والسلوكيات الذاتية، إن ما يبدو في هذه المقارنة هو ثقة الإمام العالية بالثورة فهي ثقة أقرب إلى التحدي أو بمعنى آخر أقرب إلى المحاكمة.

يخاطب الإمام أعداء الثورة أن تعالوا حاكموا الثورة وحاكموا أنفسكم محاكمة عادلة. تمعنوا في سلوكية الثورة وفي مواقفها وفي سياساتها، وأرصدوا على الجهة الأخرى ما يشبه ذلك.

وليس هنالك بالطبع من قائد يتحدث بلغة التحدي هذه، إن لم يكن سلفاً قد آمن بمبدأ المحاسبة والنقد الإيجابي وملك جرأة الشجاعة والثقة بخطوات البلاد السياسية، إلى الدرجة التي يخوض فيها غمار الحوار لا بل الدعوة إليه ومرة أخرى نقول لمن؟. لأولئك الذين مارسوا شتى الممارسات العدائية والإرهابية ضد الدولة الإسلامية، ولأولئك الذين لا يشكلون اليوم وفي أي وقت مضى ثقلاً يهدد البلاد، بل إنهم كانوا ولا زالوا يمثلون مجموعة صغيرة منبوذة

من الشعب الإيراني والشعوب الإسلامية.

ولكن مقاييس الإمام ومقاييس الإسلام لا تخضع لمنطق القلة أو الكثرة، ولا هي متوقفة على مدى «التهديد» الذي تشكله هذه المجاميع على الثورة، إنها مقاييس الحرص على بني البشر، والتعامل مع المخدوعين منهم بنفس أبوي رحيم، والعمل على هدايتهم بالدعوة إلى سبيل الرشاد والإستقامة، فتلك تبقى مسؤولية كبرى في التشريع الإسلامي، ولم ينس الإمام أن يذكرنا بها في وصيته وهو يرحل إلى جنات النعيم.

الدقة النقلية:

«وصيتي لتلك الفئة من علماء الدين والمتلبسين بزيهم الذين يعادون الجمهورية الإسلامية ومؤسساتها بدوافع شتى، ويصرفون وقتهم لإسقاطها، ويعينون أعداءها المؤتمرين وأرباب اللعب السياسية إلى درجة تصل أحياناً ـ مثلما ينقل ـ حد تقديم مساعدات ضخمة مما يتسلمونه من مبالغ طائلة يقدمها لهذا الغرض الرأسماليون الغافلون عن الله ـ وصيتي لهؤلاء هي إنكم لن تجنوا شيئاً من هذه الأعمال المنحرفة ولا أظنكم تجنون شيئاً أبداً. إذا كان عملكم هذا سعياً للدنيا فالله لا يدعكم تصلون لهدفكم المشؤوم، فالأفضل هو ما دام باب التوبة مفتوحاً فاستغفروا الله عز وجل وضموا صوتكم لصوت شعبكم المعدم المظلوم، وأدعموا الجمهورية الإسلامية التي تحققت بتضحيات الشعب، ففي هذا خير الدنيا والآخرة، وإن كنت لا أظنكم توفقون للتوبة».

«مثلما ينقل»، هذه العبارة حتى وإن جاءت في سياق هذا الجزء في وصية الإمام المباركة دون تكليف أو تركيز أو قصد في الإثارة، إلا أنها تنم عن مسألة مهمة في السلوك الإجتماعي وفي بناء المواقف من الخصوم وتجديد ماهية ونوعية وشكل المصادر الخبرية التي ترسم مثل هذا الموقف، فليس الأمر في سياق هذا الجزء من الوصية يتطلب تأكيدات لكي يعرف مثلاً الدور الذي قام ويقوم به المتزينون المتزيّون العلماء والذين يمارسون في الواقع مهاماً مخربة ضد الجمهورية الإسلامية.

فممارساتهم التخريبية في هذا الإطار واضحة، ونماذجها عديدة خلال السنوات المنصرمة، لكن هذا الوضوح وتعدد النماذج في إطاره، لا يجيز على ضوء المعايير الأخلاقية الإسلامية، ومقاييس التعاطي مع المنحرفين، أن نعمل بمبدأ الإطلاق في توجيه التهم، وفيما إذا كانت هذه التهم قابلة للتصديق على ضوء الموقف السلوكي والخلفية الإنحرافية للأعداء، فإن هذا لا يعفينا من تحديد المصدر ـ مصدر الفعل الإنحرافي ـ والطريقة التي عُرف بها الإنحراف، طريقة نقلية أو عبر الرؤية أو عبر التحقيق أو عبر أي شيء آخر.

فالإمام «رض» مارس الأمانة في الحديث والسلوك والتعامل وفي إتخاذ المواقف حتى من أعدائه، وما لم يرق الإنسان إلى هذا المستوى الإلتزامي والإحترامي بالمبدأ، لا يصل مطلقاً إلى ما وصل إليه الإمام من رفعة وورع وإجتهاد وعظمة، ولن يستطيع أن يكون قائداً كروح الله الموسوي الخميني «رض».

الأمانة السلوكية، وأمانة القول هي ضمانة العظمة، وبخلاف ذلك فإن التساهل واللامبالاة في التعاطي الحديثي والسلوكي، يمكن أن يكونا بداية الإنحرافات الكبرى، تماماً كما توصي الشريعة المقدسة بإجتناب الصغائر، لأنها الطريق إلى إرتكاب الكبائر، وعليه مهما يكن وضوح العدو في الممارسة الميدانية وفي الخلفية الإنحرافية، فإن هذا الوضوح لا يبيح لنا التحدث إذاً بمبدأ الإطلاق، وأن نتبنّى كل ما يقال عنه بلا شروط، فإذا كان الإنحراف المنسوب للعدو قابلاً للتصديق في ضوء الجو السلوكي العام له، فعلينا أن نلتزم الأمانة إلى أبعد حدودها في التعامل معه، كما يعكس بالضبط سلوك الإمام «رض» وقوله من خلال النص المذكور ومن خلال أقواله الأخرى، فهو في ١٠/ ١١/ ١٩٧٩ م. وأثناء إستقباله مبعوث البابا يوحنا بولس الثاني إليه بصدد إعادة «شاه» إيران لمحاكمته، يقول:

«إن ما يريده شعبنا هو إعادة هذا الشخص الموجود حالياً في أمريكا. . إنه يطالب بالرجل الذي تعذب من وجوده قرابة ٣٧ سنة، وخانه مدة ٣٧ سنة وعاش شعبنا تحت ظلمه وطالت سلطته حياة البشر لمدة ٣٧ سنة. . . الرجل الذي فرض

بيديه طوال هذهِ السنين الإضطهاد الكامل على الشعب والبلاد. . . الرجل الذي قتل في الخامس عشر من خرداد ١٣٤٢ هـ ـ ش، ١٩٦٣ م. عدداً كبيراً (من أبناء الشعب) كما ينقلون.

وبتاريخ ٢٠/ رجب/ ١٤٠٠ هـ وفي خطابه للمؤتمر العالمي للنظر في تدخلات أمريكا في إيران، كان الإمام «رض» يقول: «يقولون في الخامس عشر من خرداد هذا الذي تصادف غداً ذكراه السنوية، ماذا كان يقول الناس لكي يستحق خمسة عشر ألف مظلوم أن تراق دماؤهم وفي ١٥ خرداد كما يُقال وبناءً على ما قالوا فإن «الشاه» المخلوع كان بنفسه يوجه هذهِ الخطة».

إن عبارة «كما ينقلون» في النص الأول وعبارة «كما يقال وبناءً على ما قالوا» في النص التالي يظهران إن الدقة النقلية التي تحدثنا عنها لم تكن مجسدة من خلال نص من نصوص وصية الإمام «رض» فقط. . . إنما هي تشكل ثابتة من ثوابت تعاطي الإمام مع الأحداث بصورة عامة وشرطاً من شروط القيادة.

المسألة الثانية هنا تتعلق بعبارة «وإن كنت لا أظنكم توفقون للتوبة» فالإمام «رض» حريص دائماً على أن يعبىء كل قطاعات الأمة إلى خدمة الإسلام، وهو ينظر إلى الإنسان نظرة متفائلة إذا ما توفرت له ظروف التعرف على الحقائق، كما إنه يدعوه على الدوام إلى الإقبال على رحمة الله جل وعلا الواسعة، وهو أي الإمام «رض» يأمل أن يتغير حتى أولئك المنافقون الذين رفعوا السلاح بوجه الثورة الإسلامية، إنطلاقاً من إدراكه، بأنهم قد يكونون خدعوا بحيل وأحابيل قادتهم، لكنه يخاطب بصريح العبارة أولئك المتظاهرين بالقدسية والمتزيين بزي الإسلام يخاطبهم بالقول: «وإن كنت لا أظنكم توفقون للتوبة». لماذا هذا الظن؟ وما هي أسبابه؟ إن أحداً عندما يريد أن يتفحص الدور الذي لعبته هذه الفئة على طول السنوات العشر الماضية، فإنه لا يشك أبداً بأن هذا الدور بكل ألوانه المحاربة للدولة الإسلامية وبكل صورة العدائية لها. . . إنما كان ينم عن خبث استثنائي مضاعف ومتأصل في نفسية هذه الفئة، فهي فئة لها القابلية أن تعايش الظلم والأنظمة الإرهابية الظالمة عبر التزلف وروح النفاق وإتباع سياسة الإنتقاء المبررة لهذا التعايش، إنتقاء الأحاديث النبوية والروايات وأقوال الأئمة الأطهار

(ع)، بعد سلخها عن أجوائها الخاصة أو تأويلها ومن ثم توظيفها لأغراض ذاتية وشخصية دون النظر إلى مخاطرها وإفرازاتها سواء على حركة المجتمع السياسية والأخلاقية أو على قدسية الرسول (ص) والأئمة الأطهار سلام الله عليهم.

إنه إذن استعداد غير طبيعي هذا الذي يدفع بهذه الفئة إلى ممارسة الإنحراف بهذه الطريقة، استعداد شاذ ينطوي على تركيبة نفسية خبيثة، وعلى خلل متأصل في أعماق هذه الفئة، وبالتالي فإن الفارق هنا هائل بين هذه النفسية واستعدادها النفاقي وخطرها على حركة الرسالة المحمدية وبين الأعداء الواضحين لهذه الرسالة، فهؤلاء الأعداء مهما نافقوا أو تكالبوا على الأمة الإسلامية هم أعجز من أن يوقعوها في بلبلة وانشقاق وتشتت داخلي كبير، مثلما تفعل فئة علماء السوء كما إنهم ـ أي أعداء الأمة المباشرين ـ في أكثر الإحتمالات لا يستطيعون التأثير في موقف الأمة ودورها الصراعي، مثلما تستطيع هذه الفئة المنافقة التي يمكن أن تعثر حركتها في الوسط الإجتماعي على مجال تأثيري ما، نظراً لتفاوت درجات الوعي في أوساط الأمة، ونظراً لأن مساحة كبيرة من هذه الأمة غير مؤهلة لقراءة مواقف هؤلاء (العلماء) المنافقين في ضوء مقاييس الشريعة الإسلامية.

إن هذا التأصل النفاقي والإنحرافي في التركيبة النفسية لهؤلاء لا يفسح لهم المجال لرؤية النور الإلهي، ولم يبق لديهم شيء من الفطرة النظيفة التي يمكن أن تتعلق في لحظة ما بأبواب التوبة وتستفيق من الغفلة.

وهل بعد التجارب القاسية وحالات الضنك التي مرت بها الدولة الإسلامية خلال سنواتها العشرة الماضية، فرصة أوضح لرؤية الحق وقراءته؟ لكن هذه الفئة الضالة لم توفق للرؤية ولا للقراءة، وبقيت تمارس دور إبليس بين بني البشر، فمن أين تتفتح لها أبواب التوبة؟ وكيف توفق لهذه النعمة الإلهية بعد ذلك؟ وعن دور هذه الفئة قبل الثورة كان الإمام «رض» يقول في خطاب تاريخي له موجه إلى علماء الإسلام (كيهان العربي العدد: ١٦٠٦) يقول:

«في إنتفاضة الخامس عشر من خرداد عام ١٣٤٢ من السنة الهجرية الشمسية، لم يكن التصدي أساساً لرصاص ومدافع «الشاه» ولو انحصر الأمر

بمواجهة ذلك لهان، ولكن ما كان كذلك بل تعداه فإضافة إلى مواجهة ذاك الرصاص والمدافع، كان هناك رصاص ينطلق من الجبهة الداخلية، كانت هناك رصاصات المكر واطراءات بالقدسية ورصاص التحجر، كانت هناك رصاصات التعريض واللمز والنفاق، وكانت هذه أشد أذى بألف مرة من البارود والرصاص، تحرق الأكباد والقلوب وتمزقها، لقد لجأت أيدي أميركا و «الشاه» الظاهرة والخفية إلى الشائعات والإفتراءات، حتى كانت تطلق الإتهامات بترك الصلاة والشيوعية والعمالة للإنجليز وتوجهها إلى المتصدين لمسؤولية قيادة الجهاد».

ويواصل الإمام حديثه فيقول في هذا الخطاب نفسه: «لقد اتضحت بعد الانتصار هوية المجموعة العميلة من أولئك الذين كانوا يسايرون مرتكبي الخيانة العظمى، إن ما تلقاه الإسلام من ضربات هؤلاء المتلبسين بزي العلماء والمرائين بمظاهر القدسية لم يتلق أمثالها من أي فئة أخرى، والنموذج البارز لهذهِ الضربات يتجلى في مظلومية وغربة أمير المؤمنين عليه السلام، وهو نموذج معروف تاريخياً، فلأدعْ ولأمُرّ ولا أزيدُ مشاعر المرارة بأكثر مما تقدم، ولكن ليعلم الشباب من طلبة العلوم الدينية إن ملف نمط تفكير ومنهجية المرائين بالقدسية لازال مفتوحاً وما تغير فهي أساليب المراءات والمتاجرة بالدين».

نبذ الإدعائية:

وأما بالنسبة لتلك الفئة التي تخالف بشدة الجمهورية الإسلامية وحكمها أساساً وتعمل لإسقاطها من أجل الله!!.

وبحسب أوهامها، فهذه الجمهورية أسوأ من الحكم الملكي أو مثله وكل ذلك بسبب بعض الأخطاء وبعض الإنحرافات المخالفة لأحكام الإسلام والصادرة عمداً أو سهواً من أشخاص متخلفين أو عن الفئات المناهضة، وصيتي لهؤلاء هي أن يتفكروا بنية مخلصة في الخلوات وليقارنوا الحال ـ بإنصاف ـ بحكم النظام السابق ولينتبهوا أيضاً على حقيقة أن الثورات العالمية يلازمها عادة وقوع إضطرابات وإنحرافات وحالات من الإنتهازية».

هذا النص من وصية الإمام الخميني ـ رضوان الله عليه ـ يختزن ولا شك معاني وأبعاد أخرى، ولعل معنى نبذ التمجيد والإدعائية هو واحد من أكثر المعاني تعبيراً ودلالة للثقة على النفس، ولا يخفى إن هذا المعنى يعكس أو يوضح نمطاً تعاملياً أو سلوكياً جديداً على الأنماط التي عرفتها المنطقة، فهذه الأنماط تعتمد «التقديس والمعصومية» والتمجيد اللامشروط، وتعتمد التعداد. . . تعداد «المنجزات والمكاسب» التي أنجزها وحققها هذا النظام أو ذاك، أما قيادة هذه الأنظمة فهي تتحدث لغة لا تعترف بوجود «المعارضات» مهما كان حجمها أو تأثيرها أو إرتباطها بالواقع الإجتماعي السائد في أي بلد من بلدان المنطقة، أو إنها تبحث عن تخريجات لتفسير الواقع الإقتصادي المتردي ـ إذا ما اعترفت بوجود هذا التردي أصلاً ـ أو إنها تعتبره حالة طبيعية مقارنة مع ما هو سائد في دول العالم. . . وفي كل الأحوال فإن هذه الأنظمة إذا ما اعترفت بوجود الأزمات الإقتصادية والإجتماعية والسياسية، فإن اعترافها لا يعبر عن ميول ذاتية للواقعية والمسؤولية ومتطلبات الأمانة. . . إنما هو يكون استجابة لضغط جماهيري أو لواقع قاهر يمثل الإعتراف بالأزمة أحد مخارجه العلاجية من وجهة نظر هذه الأنظمة. . وأقرب نموذجين لهذه الحالة في المنطقة، هما النموذج الأردني والنموذج الجزائري بما يعكسانه من استجابة للقوة ـ قوة الشارع ـ التي أحدثت حالات الإعتراف ومن ثم التغيير الذي يهدف لإمتصاص آثار هذه القوة.

هذا النمط يختلف تماماً عن نمط الإمام الخميني ـ قدس الله نفسه الزكية ـ وهو يقتحم أبواب المصارحة ويبتعد عن لغة «التقديس الذاتي». . فنمط الإمام هنا هو تعبير من تعبيراته الذاتية ـ التكوينية. . . تعبير لا يقبل التكلف بل هو أقرب إلى العفوية في تناول القضايا والتعاطي معها، فالإمام «رض» ما كان يجد في داخله «الفكري والمبدئي» ما يدفعه إلى البحث عن أساليب تعبر عن التكلف، فهو مباشر في كل مراحل وأحداث حياته واضح وجريء بما يجعله أكبر من أية أزمة، لا بل إن واجبه الديني يملي عليه أن يكون اكبر منها ويملي عليه أن يتداولها بتكرار، لا أن يصفح عنها أو يتمايل بها أو يؤجل التحدث بها إلى حين

آخر. . . ومن هنا فإن الإمام «رض» جسد ما يمكن أن يقال عنه في أن الفكر الإسلامي والنظام الإسلامي الذي يمثله لا يخاف من «الأزمة» ولا يتستر عليها ولا يضطر إلى تحريكها تحت عامل القوة. . بل هو يملك أساس تحريكها الشرعي كطريق لطرحها من أجل الحل. . ويرى هذا التحريك على أنه واجب شرعي. . ومن هنا أيضاً يبرز جانباً من جوانب القوة في الفكر الإسلامي في بنائه المحكم، جانب يترجمه الإمام «رض» إلى واقع سلوكي ويوصي به بعد أن يودع هذه الحياة الفانية، ويجعل منه ظاهرة تستحق التأمل والدراسة وسط ظواهر «التعظيم» الشاذة التي تفترض أن كل خطوة يخطوها ـ الملك أو رئيس الدولة الفلانية ـ على أنها عمل من أعمال الحكمة والحصافة واللياقة والإقتدار وما إلى ذلك من مصطلحات.

نقول إن الإمام بقدر ما كان يكرر من خلال أحاديثه، إن الثورة الإسلامية هي ثورة الشعب الإيراني بكافة فئاته، فإنه لا يغفل أن يقول في المقابل ـ وحتى في وصيته المباركة ـ بأن أي شعب يمكن أن يصبح نسيجاً متجانساً منسقاً بصورة نسبية وليست مطلقة، فهذا الشعب يبقى في هامش من هوامشه يضم عناصر إما مخربة وإما متخلفة، قد تتصور بأنها من خلال ممارسة معينة أنها تخدم النظام والإسلام، لكن الواقع هو خلاف ذلك. . . إنها تسيء إلى الإسلام وتعطي «الذريعة» للفئات الحاقدة والنفعية لكي تواصل حربها على الثورة الإسلامية في إيران، وهذا هو المعنى الآخر الذي يتضمنه النص المذكور من الوصية المباركة، فهو معنى يرتبط أولاً بتلك الشريحة غير الواعية للفكر الإسلامي ومصلحة نظامه السياسي، ولا تفهم دلالات التأثير السلوكي على سمعة البلاد والنظام. . ولا يبدو أنها قابلة لتغيير سريع ينقلها إلى مستويات أكثر وعياً وذكاء، كما إن تعطيل هذه الشريحة وعزلها عن مواقع المسؤولية أو تفريغ المواقع الوظيفية والأمنية منها يبدو أمراً مستحيلاً بالنسبة لأي نظام في العالم.

إن المعنى المذكور يرتبط من ناحية أخرى بتلك الفئة الموظفة لهذا التخلف في سياق الجهود العدوة للثورة، فهي تعتبره على الفور على أنه شاهد

من شواهد الواقع الإسلامي «المتردي» الذي هو «أسوأ» من الوضع إبان الحكم «الشاهنشاهي»!!..

إن ما يريد أن يقوله الإمام «رض» هو أن هذا التوظيف ينطوي على لون من ألوان مجافاة الواقعية والنظرة الحيادية للثورة.. كما أنه نتيجة لخلفية إحساسية متحاملة على الثورة وتختزن العقد إزاءها وتسعى إلى الإساءة إليها بأية صورة من الصور.

التواضع والواجب الديني:

«إنني ومع ما أراه في الشعب العزيز من يقظة ووعي وإيمان وتضحية وروح مقاومة وإصرار وصلابة في طريق الحق لدي أمل في أن تنتقل هذه القيم الإنسانية إلى أعقاب هذا الشعب، وتربو جيلاً بعد آخر بفضل الله تعالىٰ، إنني ومع هذا الذي أرى وبهذا الأمل أستأذنكم أيها الأخوة والأخوات لأرحل عن خدمتكم إلى المقر الأبدي بقلب مطمئن وروح مسرورة وضمير ملؤه الأمل وبفضل الله وأنا في غاية الحاجة لدعواتكم الصالحة، وأسأل الله أن يقبل عذري عمّا كان فيّ من قصور وتقصير في الخدمة، وآمل من أبناء الشعب أن يقبلوا عذري عن أشكال القصور أو التقصير ويواصلوا بقوة وعزم وإرادة التقدم إلى الإمام، وليعلموا أنه لن تحدث ثغرة في كلمة الشعب الفولاذية بسبب ذهاب خادم، فهناك خدمة أسمى وخدمٌ أرفع مشغولون بالخدمة، والله حافظ هذا الشعب ومظلومي العالم، والسلام عليكم وعلى عباد الله الصالحين ورحمة الله وبركاته...».

حتى في سطور الوداع الأخيرة كان الإمام «رض» يبعث فينا قدراً عالياً من القيم والمثل الإسلامية ولعل في مقدمتها قيمة التواضع القيادي اللامفتعل الذي يشكل سجية من سجايا الإمام وخصلة من خصاله الثابتة طوال حياته... خصلة أعطت المنصب مكانة معينة، ووضعت العالم أمام حالة بعيدة عن الإدعاء النظري وبعيدة عن التصنع أو المصلحة.. حالة ربما لم يشهد التاريخ الإنساني بعد رسول الله (ص) والأئمة المعصومين (ع) مثيلا لها، حالة حية مباشرة تتمم الشوط الجهادي الذي خاضه الإمام «رض» في حياته خاتمة مجسّدة لأرقى قيم

الفكر الإسلامي، فالإمام «رض» لم يأتِ بزي «أخلاقي» ويرحل بزي آخر، ولم يأتِ بشعار ثوري ويرحل بشعار آخر، لم يأتِ على الأكتاف ويرحل بغيرها.

لم يأتِ بادعاء ويرحل إلى الملكوت الأعلى بخلافه، لم يوصِ بالأخلاق في كل مناسبة من المناسبات ويمارس خلاف ما يوصي به.. إنه توج التسعين عاماً التي قضاها في الحياة بدرس التواضع.. هذا الدرس الذي طالما ينظر لهُ الآخرون، وطالما يدّعون معرفة خفاياه وأسراره، وطالما يعلنون أنهم أساتذته، لكن لم يذكر لنا التاريخ ان أحداً صمد في ساحة اختباره.. السلطة أقسى ساحة اختبار للعظماء والكبار والمدّعين والقيادات؛ وهي بكل هذا ليست أمراً هيناً، والانتصار عليها وعلى مغرياتها، يمكن أن يكون كما قلنا من خلال الإدعاء، أما الواقع فإليك التاريخ بكل مافيه من ملفات قيادية وقصص وروايات ما دون الأنبياء والمعصومين عليهم السلام)... إليك هذا التاريخ لتقرأ فيه الآف الألوان من الخضوع إلى إغراء السلطة، لكنك لا تقرأ ولا لمرة واحدة «إعتذار الإمام» على لسان واحد من قادته.. ماذا فعل الإمام «رض» بالسلطة..؟ إنه فعل بها بخلاف ما فعلت هي بالآخرين تماماً.. إنه رفضها بأشكالها التقليدية، الظالمة، الإستبدادية، ورفضها بامتيازاتها وأضوائها، وقبلها على أن تكون مجالاً للخدمة الواقعية والمعاناة المتواصلة والمسؤولية الجسيمة «المحفوفة بالمخاطر»، كما يقول هو «رض»، قبلها بشروط قاتلة وساحقة للذات والأنا حتى في حدودها «المشروعة»، فسجل بذلك سابقة في عالم مليء بنماذج السلطة الدكتاتورية أو الإستغلالية، ووسط رؤساء أسرتهم السلطة ولم يأسروها.

وسط عالم، يقول الإمام «رض» بصددهِ في خطاب ألقاه في ١١ ذي القعدة ١٤٠٢ هـ في جمع من أعضاء مجلس الشورى الإسلامي وقيادات الحرس الثوري يقول:

«تعلمون ما الذي يجري الآن في هذا العالم، وما الذي يجري في بلاد المسلمين، وأي ظلم يلحق اليوم بالدول المظلومة، إن أساس كل هذا هو حب السلطة والرئاسة، فحب التسلط هو الذي يدفع أمريكا لإرتكاب هذهِ الجرائم التي لا مثيل لها في التاريخ، وحب السلطة والرئاسة هو الذي يدفع روسيا لأن تفعل ما

تفعل بالشعوب ومظلومي العالم. وحب النفس هو الذي يدفع حكام الدول الإسلامية إلى الخنوع والسكوت على جرائم هذهِ القوى أو عملائها. فإن لم يكن حب الذات قائماً في نفوس زعماء الدول الإسلامية. ولو لو يكن حب الجاه والحكم مسيطراً عليهم لما سكت هؤلاء على الجرائم والمظالم التي لحقت بإيران، والأسوأ من ذلك، الجرائم التي لحقت بلبنان».

أما الدرس الثاني الذي يمكن أن يقرأ من خلال النص المذكور فهو درس المسؤولية.. فالإمام «رض» كان إلى حدٍ قريب، قبل رحيله إلى الملكوت الأعلى، قد تجرع «السم» القاتل في لحظة من لحظات التعاطي بهذه المسؤولية الخطيرة، وهي لحظة القبول بالقرار الدولي ٥٩٨ الخاص بالحرب العراقية ـ الإيرانية... إلى فترة قريبة كان الإمام «رض» يكابد ويقود المسيرة وسط هجوم محموم بالحراب الدولية والإقليمية الغادرة والسهام الصفراء، كانت مجزرة مكة وكانت قضية القرار المذكور، وقضايا داخلية أخرى، كلها تأخذ مأخذاً مؤلماً من قلب الإمام، وتنهك قواه، وتفتك بجسده الطاهر إلى حد مفعول السم... لكن عندما حانت لحظة الوداع.. لحظة الرحيل تحول كل شيء إلى سرور وتفاؤل وأمل.. حصل هذا التحول إنطلاقاً من إحساس الإمام «رض» بالقيام بالمسؤولية وتأدية الواجب الإلهي بالصورة التي لم يوفق لها إلا القليل من رموز التاريخ الإسلامي... كان الإمام «رض» يسعى إلى أن يمارس الواجب الشرعي فضلاً عن نتائج هذه الممارسة، ويتألم لحركة هذا الواجب ولا يتألم لذاته أو لمكسب معين، ولذا فإنه في لحظة الرحيل وعندما سلم المسؤولية إلى غيره، رحل مسرور الخاطر وبضمير ملؤه الأمل وبنفس مطمئنة واثقة مما قامت به، وكيف لا يرحل الإمام «رض» بهذا القدر التفاؤلي، وهو الذي أسقط هيبة الولايات المتحدة الأمريكية بما لم تستطع كل رموز القرن الحالي القومية والعلمانية وغيرها أن تقف ولو لمرة واحدة بثقة وجدٍّ وثبات بوجه مستغلة العالم، أمريكا، ولكن دون أن يدفع به ذلك إلى ما يمس ثوابته الأخلاقية العليا.

إن الإمام «رض» كان يمارس هذا اللون التربوي القاضي بتعميق الإحساس بالواجب وأدائه فضلاً عن النتائج، فهو كان يقول في نداء إلى حجاج بيت الله

الحرام ١/ ذي الحجة ١٤٠٦هـ. ق ما يلي: ـ

«ليس من الإنصاف أن يقدم شبابنا أرواحهم في الجبهات ويضحّون، بينما أنتم بشراء هذه البضائع تساعدون مجرمي الحرب وتسيئون إلى الإسلام والجمهورية الإسلامية وشعبكم المظلوم، تستطيعون أن تقتنوا لأنفسكم ولأصدقائكم أشياء مناسبة من إيران نفسها حتى لا يكون عملكم مساعدة لأعداء إيران والإسلام، لقد أديت واجبي، وبقي عليكم يا زوار بيت الله ورسوله، أن تمتنعوا عن مساعدة أعداء الله ورسوله وعن الإساءة إلى سمعة شعبكم. لقد ذكّرت بهذا في السنوات الماضية لأهمية الموضوع ومن واجبي أن أكرر ذلك.

وفي مكان آخر من هذا النداء يقول:

«لقد أديت ما علي من واجب إسلامي في تذكير المسلمين وحكومات المنطقة لما فيه صلاحهم وأسأل الله تعالى أن يهديهم إلى الطريق السوي المستقيم ويصونهم من الإنحراف».

إنه إذن أداء الواجب بما يؤدي المسؤولية وليس بما يلاحق النتائج المباشرة.. بحيث تتحول هذه النتائج إلى مؤثر في حركة هذا الواجب الشرعي سلباً.

مصادر البحث

هي نصوص خطابات الإمام «رض» المأخوذة من الكتب التالية:

١ ـ الحج مؤثر عبادي ـ سياسي مجموعة خطابات ونداءات الإمام الخميني مركز الحج للدراسات والنشر.

٢ ـ الإمام الخميني و١٣ آبان مركز إعلام الذكرى الرابعة لإنتصار الثورة الإسلامية في إيران.

٣ ـ نداء الثورة الإسلامية عرض لطائفة من نداءات الإمام الخميني إلى أبناء العالم الإسلامي ـ إعداد محمد علي حسين وزارة الإرشاد الإسلامي.

٤ ـ الإمام في مواجهة الصهيونية مقتطفات من خطب الإمام حول الصهيونية مركز إعلام الذكرى الخامس لإنتصار الثورة الإسلامية في إيران.

٥ ـ نظرة عامة حول الوحدة الإسلامية وزارة الإرشاد الإسلامي.

٦ ـ الإمام القائد في مواجهة الصهيونية مقتطفات من أحاديث ونداءات الإمام الخميني بشأن فلسطين السليبة والصهيونية الغاصبة والتي جاءت على مدى عشرين عاماً وزارة الإرشاد الإسلامي.

٧ ـ اليوم العالمي للقدس وزارة الإرشاد الإسلامي.

٨ ـ مطلع الفجر وزارة الإرشاد الإسلامي.

٩ ـ مشاكل وعقبات أمام وحدة المسلمين وزارة الإرشاد الإسلامي.

١٠ ـ المستضعفون واقعهم... ومستقبلهم وزارة الإرشاد الإسلامي.

١١ ـ الإمام الخميني ومؤتمر الحج العالمي وزارة الإرشاد الإسلامي.

١٢ ـ إستقلال، حرية، جمهورية إسلامية مقتطفات من أقوال الإمام القائد دار سروش للطباعة والنشر.

الفهرس